

إسماعيل

من وحي القرآن والسنة

تأليف

أ د عقيل حسين عقيل

القاهرة

2017م

المحتويات

4.....	المقدّمة
24	إسماعيل من وحي القرآن
98	نشأة إسماعيل:
174	من صفات النبي إسماعيل
174	1- حلّيم: {فَبَشِّرْهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ}
199	2- العلم بالأشياء:
199	3- قادر مقتدر:
357	4 - إسماعيل رسول نبي:
367	5-رسالة إسماعيل:
370	6 - عابد داعي إلى الله:
370	7 - مرضى عنه:
371	8 - من الأخيار:
372	9 - مُفَضَّل:
374	10 - صابِر:
377	11 . مبتلي:
381	النبي إسماعيل من السنّة
382	أَوْصَافُ إِسْمَاعِيلِ الْخَلْقِيَّةِ وَالْحُلُقِيَّةِ:
388	دعاء إبراهيم لإسماعيل:

- 393 حبّ الخيل:
- 394 بناء الكعبة:
- 395 حجر البيت:
- 398 اكتساء البيت:
- 399 فُتح لإسماعيل باب من الجنّة:
- 400 بئر زمزم:
- 401 إسماعيل وأمه أوّل من شربا ماء زمزم:
- 402 إسماعيل رامي:
- 403 ختان إسماعيل:

المقدمة

إسماعيل عليه الصّلاة والسّلام نبي من أنبياء الله تعالى، وهو ابن إبراهيم الخليل عليهما الصّلاة والسّلام، ولد إسماعيل بعد دعاء مجاب من المجيب العظيم جلّ جلاله. وأمه السيدة هاجر.

إسماعيل صلّى الله عليه وسلّم هبة الله لإبراهيم صلّى الله عليه وسلّم، هبة محمودة، جاءت بعد اشتداد حاجة الأب إلى وريث ومعين في ساعة الكبرّ مصداقا لقوله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدَّعَاءِ} 1.

هبة بعد دعاء مخلص لله عزّ وجلّ، يقول الحقّ مخبرًا عن دعاء إبراهيم: {وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ} 2.

فإسماعيل هبة، والهبة في الاصطلاح عطاء من غير مقابل³، وقد وهب الله إسماعيل لإبراهيم من غير مقابل، وهنا مهم أن نقول إنّ هبات الله لخلقها لا تُنتظر بعد عمل أو إنفاق أو أيّ عبادة، بل الله يهب ما يشاء لمن يشاء بغير حساب.

والوهب نتيجة الدّعاء كان إجابة، وهنا يعدّ إسماعيل عليه السّلام إجابة ربّانية لعبدٍ مخلص العبادة لله وحده.

ولكن من الذي يُسأل؛ فيجيب؟

1 - إبراهيم 39.

2 - الصافات 99-101.

3 - معجم لغة الفقهاء ج 1، ص 492.

الذي يُسأل هو الذي بيده أمر الإجابة، والذي يجيب: هو الذي يعطي ويهب ويزق ولا ينقص من عطائه شيء؛ وهو الذي يسمع الدعاء ويعلم بالحاجة وما يشبعها بشرى وطمأنة.

ولهذا؛ فالمجيب "هو الذي يقال مسألة السائلين بالإسعاف ودعاء الداعين بالإجابة وضرورة المضطرين بالكفاية، بل ينعم قبل النداء، ويتفضل قبل الدعاء، وليس ذلك إلا لله عزّ وعلا؛ فإنه يعلم حاجة المحتاجين قبل سؤالهم، وقد علمها في الأزل فدبّر أسباب كفاية الحاجات بخلق الأطعمة والأقوات وتيسير الأسباب والآلات الموصلة إلى جميع المهمات"⁴.

والمجيب "من أسمائه تعالى (المجيب) لدعوة الداعين وسؤال السائلين وعبادة المستجيبين"⁵.

وهو الذي يسأل فيجيب دون منّة، ولا مجيب بالمطلق إلا مالك الملك المطلق. والمجيب هو السميع الذي يدرك الأمر وما يتعلق به من حاجة فيستجيب إليها، والمجيب هو السريع في الإجابة مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} 6 فالفعل قريب يتعهد الإجابة الفورية لمن استجاب لله دون سواه.

أمّا الاستجابة؛ فهي في حقّ العبد الذي لم يعرف الحقيقة بعد فيمر بزمن الانتظار المشروط بالاستجابة التي لما يصل إليها يدعو الله، حينها يكون الله هو المجيب وليس المستجيب، مصداقا لقوله تعالى: {الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ

4 المقصد الأسنى، ج 1، ص 118.

5 شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة، ج 1، ص 62.

6 البقرة 186.

الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدِ جَمَعُوا لَكُمْ فَآخِشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا
حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ {7} ولأنه العليم بالشيء وأسبابه والحاجة ومشبعاتها
من ملكه، قال تعالى: {وَكَايِنٍ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ
وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} {8}. الدابة البرية ترعى فيما استجاب إليها الله به فهي لا
تملك أن تنتج ولا تزرع ولا تمتلك بذور الزرع ولا تخرج الماء من بطن الأرض
كما يفعل الذي خلقه تعالى في أحسن تقويم، ومع ذلك المحيب يرزقها بما
يشبع حاجتها للماء والطعام سبحانه جلّ جلاله.

وقال تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا
وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} {9}.

وقد هاجر إبراهيم من العراق إلى الأرض المقدسة فلسطين، وفي الطريق
استقر لوط في سدوم ليدعو قومها إلى عبادة الله تعالى، واستقر إبراهيم ومن
معه في مدينة الخليل بفلسطين. وبعد مولد إسماعيل من هاجر، جاء الأمر
الإلهي للنبي إبراهيم بأن يأخذ هاجر والمولود إسماعيل إلى الأرض المقدسة،
فسار بهما تجاه الجزيرة العربية، حتى وصلوا إلى أرض قاحلة، ف جاء الأمر
الإلهي بأن هذه الأرض هي الأرض المقدسة، وأنّ المستقر هنا، فاستودع
إبراهيم زوجته وابنه الله الذي لا تضيع الودائع عنده، {رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ
دُرِّيِّ بَوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً
مِنَ النَّاسِ تُهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ} {10}.

ترك إبراهيم زوجته وابنه ومعهم شيء من الماء والزاد، ولا راعي لهما إلا
الله، ومن هنا المعجزات تنزل، ومن ثمّ بدأت القصة المشهورة وهي سعي

7 آل عمران 172، 173.

8 العنكبوت 60.

9 هود 6.

10 إبراهيم 37.

هاجر بين الصفا والمروة سعيا وبحثا عن الماء، حتى أكرمها الله تعالى بأن فجر الماء عند مرقد الطفل إسماعيل وأمه، فكانت زمزم بئر يزم ماء، وبدأت القوافل تنزل عندهم، ويقال أنّ قبيلة جرهم اليمينية أول نازل عندهم، التي أكرمت هاجر وإسماعيل، ومن هناك تعلّم إسماعيل اللسان اليميني العربيّ.

وقد هاجر إبراهيم من العراق إلى الأرض المقدسة فلسطين، وفي الطريق استقر لوط في سدوم ليدعو قومها إلى عبادة الله تعالى، واستقر إبراهيم ومن معه في مدينة الخليل بفلسطين. وبعد مولد إسماعيل من هاجر، جاء الأمر الإلهي للنبي إبراهيم بأن يأخذ هاجر والمولود إسماعيل إلى الأرض المقدسة، فسار بهما تجاه الجزيرة العربية، حتى وصلوا إلى أرض قاحلة، ف جاء الأمر الإلهي بأن هذه الأرض هي الأرض المقدسة، وأنّ المستقر هنا، فاستودع إبراهيم زوجته وابنه الله الذي لا تضيع الودائع عنده، ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْنِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ 11.

مع أنّ إبراهيم عليه الصلوة والسلام قد أظهر دعاؤه لربه، ولكن ذلك الدعاء كان نتاج باطن (إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ)، ولهذا كان إسماعيل هبة ظاهرة من دعاء باطن، أي أنّ باطن إبراهيم صفة له من الباطن عز وجلّ.

ولهذا عندما يكون باطن الإنسان على علاقة مباشر بالباطن الأعظم، يصبح باطنه ظاهرا كما ظهر إجابة لإبراهيم بابنه إسماعيل عليهما الصلوة والسلام، الذي كان أثرا ظاهرا من باطن الدعاء وباطن الإيمان بالباطن الذي يرانا ولا نحن نراه، إنّ الله الظاهر الباطن جلّ جلاله.

ولذلك فالْبَاطِنُ هو: "الَّذِي لَا يُحْسُ، وَإِنَّمَا يُدْرِكُ بِأَثَرِهِ وَأَفْعَالِهِ" 12.

وهو الذي "احتجب عن أبصار الناظرين لجلاله وحكمته وكمال عزته وعظمته" 13

والمجيب الذي جعل إسماعيل عليه السّلام إجابة هو دائم الإجابة؛ فلا يملّ ولا يبخل كرما، ذلك لأنّ إجابته مطلقة نصّ عليها سبحانه مشروطة بالدعاء ظاهرا كان أم خفيا: { وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ } 14، وفي هذه الآية الكريمة نشعر بكرمه سبحانه إذ جعل الإطلاق صفتها الأساسية، فليس هناك تحديد للدعاء، فأنت تستطيع أن تدعو المجيب بكلّ ما تريد وما تشتهي نفسك، وإذا سأل السائل عن دعوة تخالف مرضاة الله؟ فالإجابة تكون بقوله تعالى: { مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبْورُ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ } 15، أما الكلام غير الصالح فانه لا يرقى إلى ملكوته عزّ وجلّ، والذين يَمْكُرُونَ السيئات لا يغفل عنهم فلهم العذاب الشديد فهؤلاء يَمْكُرُونَ ويمكر الله والله خير الماكرين { وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ } 16.

12 الأسماء والصفات للبيهقي، ج 1، ص 98.

13 أسماء الله الحسنى، ج 32، ص 43.

14 غافر 60.

15 فاطر 10، 11.

16 الأنفال 30.

ذكر الله في كتابه الكريم، ثلاث مشاهد من حياة إسماعيل عليه السلام. وأول هذه المشاهد هو أمر الله سبحانه وتعالى لإبراهيم بترك إسماعيل وأمه في واد غير ذي زرع، لا ماء فيه ولا طعام.

الثاني: كبر إسماعيل، وتعلق به قلب إبراهيم وابتلى الله تعالى إبراهيم بلاء عظيمًا؛ فقد رأى إبراهيم عليه السلام في المنام أنه يذبح ابنه الوحيد إسماعيل. وكانت من إسماعيل الطاعة.

الثالث: بناء بيت الله تعالى.

ويجزي المولى عز وجل عن إسماعيل وعدد من الأنبياء والرسل تفضيلهم على العالمين: {وإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ} 17.

احتج القائلون بأن الأنبياء عليهم السلام أفضل من الملائكة بقوله تعالى بعد ذكر هؤلاء عليهم السلام: (وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ) وذلك لأن العالم اسم لكل موجود سوى الله تعالى، فيدخل في لفظ العالم الملائكة، فقوله تعالى: (وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ) يقتضي كونهم أفضل من كل العالمين. وذلك يقتضي كونهم أفضل من الملائكة، ومن الأحكام المستنبطة من هذه الآية: أن الأنبياء عليهم السلام يجب أن يكونوا أفضل من كل الأولياء، لأن عموم قوله تعالى: (وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ) يوجب ذلك 18.

ولأن إسماعيل آية من آيات الخالق فقد كان مطيعا لأمر الذبح ونعقد أنه يعلم أن أمر الذبح آية، ولهذا فإسماعيل كان مرضيا عند الله عز وجل وهذا لا خلاف حول من أطاع أمر ذبحه ابتغاء مرضاة الله عز وجل لا بد أن يكون على درجة من الإيمان الخالص مما يؤهله إلى درجة الرضا الإلهي وهذا

17 - الأنعام 86.

18 - تفسير الرازي، ج 6، ص 361.

ليس مقصورا على إسماعيل بل على كل يجعل الإيمان شعاره ودثاره فإن
الرضا يحصل برحمة من الله العزيز القدير الذي يقول محبباً عن رضي عنهم:
{ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْقَوْلُ
الْعَظِيمُ } 19.

وهو عند الله مرضي في الأقوال والأفعال والأحوال، مرضي من الناس أي
تقبله النفوس فلا تنكره ولا تنفر عنه 20.

والحق أن من كانت صفاته كهذه الصفات التي ذكرها الله له ونبحت
نحن فيها لا بد أن يكن مرضيا عند الناس لأن الرسل غايتهم خير ورسالتهم
خير يستهدفون بها إصلاح أحوال الناس ممن يقصدون بلاغهم فيخرجوهم
من الظلمات إلى النور هذا يؤدي بالتالي إلى رضا الناس على هؤلاء الرسل
صلوات الله وسلامه عليهم.

ومن الابن الذي ينقاد إلى مكان ذبحه راضيا طاعات مقبلا غير مدبر
إلا مصطفى مختار مثل إسماعيل صلى الله عليه وسلم مصداقا لقوله تعالى:
{ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ رَبُّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ فَبَشَّرْنَاهُ
بِعُلَامٍ حَلِيمٍ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ
فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ
الصَّابِرِينَ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا
إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ

وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ {21}.

هذه الآيات فيها توضيح لكيفية مواجهة إبراهيم لبلائه وقد اشرنا إلى ذلك فيما سبق، ونريد الآن الحديث عن صبر إسماعيل على بلاءه، حيث واجه ذلك بقوة العقيدة ويدل عليها عدة أمور منها.

- طاعة مطلقة من إسماعيل لأمر الله عز وجل.

- صبر على البلاء.

- البر الخالص من الابن للأب.

- صدق خالص.

- شجاعة في الحق ورباط عليه.

والواضح من الآيات أنّ إسماعيل استمع إلى حديث يدور عن رؤيا في منام { يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ {22}، والمسألة تتطلب افتراضات هي:

- أن يكون إسماعيل يعلم أن رؤيا الأنبياء حق فقط.

- أن يكون لا يعلم ذلك.

- أو أن يكون إبراهيم أخبر ابنه بتفاصيل دقيقة عن كل هذا البلاء.

قال الفاكهي: "وقد قال الناس في الدَّيِّحِ مَا قَالُوا؛ فَقَالَتِ الْعَرَبُ: هُوَ إسماعيل، وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَأَهْلَ الْكِتَابِ جَمِيعًا: إِنَّهُ إِسْحَاقُ فَإِنَّ أَقْوَالَ الْعَرَبِ فِي ذَلِكَ أَثْبَت، وَاسْتَدَلَّ الْفَاكُهِيُّ عَلَىٰ ذَلِكَ بِمَا مَعْنَاهُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ عَبَّرَ عَنِ قِصَّةِ إِسْمَاعِيلَ بِقَوْلِهِ: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُ

21 - الصافات 99-112.

22 الصافات 102.

مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾، وَأَخْبَرَ عَنِ قِصَّةِ إِسْحَاقَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وَإِنْ ذَكَرَ قِصَّةَ إِسْحَاقَ بَعْدَ الْقِصَّةِ الَّتِي قَبْلَهَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ إِسْحَاقَ غَيْرَ الذَّبِيحِ، وَأَنَّ ذَلِكَ يَتَأَيَّدُ بِكَوْنِ سَارَةَ بَشْرَتِ إِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ 23.

إِسْمَاعِيلُ ابْنُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هُوَ الَّذِي شَارَكَ أَبِيهِ بِنَاءَ الْكَعْبَةِ (بَيْتِ اللَّهِ) وَهُوَ أَوَّلُ بَيْتِ بَنِي لِعِبَادَةِ الْوَاحِدِ الْوَاحِدِ جَلَّ جَلَالُهُ، وَيُقَالُ أَنَّ آدَمَ هُوَ أَوَّلُ مَنْ بَنَى الْبَيْتَ الْحَرَامَ، وَلِهَذَا جَاءَ إِبْرَاهِيمَ وَابْنَهُ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِرَفْعِ الْقَوَاعِدِ كَوْنَهَا سَابِقَةً عَلَيْهِمَا، أَي: أَهَّا قَدْ تَأَثَّرَتْ بِفِعْلِ الطُّوفَانِ فِي زَمَنِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ دُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَمَنْ يَرْعُبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} 24.

تَعَدَّ الْكَعْبَةُ الشَّرِيفَةُ أَوَّلُ بَيْتٍ وَضَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِعِبَادَةِ اللَّهِ، فِي حِينِ كَانَتْ الْكَثِيرُ مِنَ الشُّعُوبِ وَالْأُمَّمِ الْقَدِيمَةِ يَبْنُونَ الْبُيُوتَ لِعِبَادَةِ التَّمَاثِيلِ وَالْأَصْنَامِ، فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ

23 أخبار مكة للفاكهي ، 5، 80.

24 البقرة 127 . 132.

حُجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ
الْعَالَمِينَ {25}.

وقد اشتهر إسماعيل بترويض الخيل، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إِنَّ
رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "إِنَّ أَبَاكُمْ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوَّلُ
مَنْ ذُلِّلَتْ لَهُ الْخَيْلُ الْعَرَابُ؛ فَأَعْتَمَقَهَا وَأَوْزَنَكُمْ حُبَّهَا؛ وَذَلِكَ أَنَّ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ
السَّلَامُ خَرَجَ حَتَّى أَتَى أَجْيَادَ، فَأَلْهَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى الدُّعَابَةَ بِالْخَيْلِ، فَدَعَا فَلَمْ
يَبْقَ فِي بِلَادِ الْعَرَبِ عَلَيْهَا فَرَسٌ إِلَّا أَتَاهُ، وَذَلِكَ اللَّهُ لَهُ وَأَمَّا مَنْ
نَوَاصِيهَا"26، وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ وَأَوَّلُ مَنْ نَصَبَ ذَلِكَ
الْخَيْلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِدَلَالَةِ جَبْرِئِيلَ لَهُ ثُمَّ قَصِي بِنِ كِلَابٍ وَقِيلَ نَصَبَهَا
إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ أَبِيهِ الْخَيْلِ ثُمَّ قَصِي"27.

وهناك من يرى أنّ إسماعيل عليه الصلّاة والسّلام أوّل من روض الخيل؛
فهي من قبله كانت وحشية، قال الدميري: أوّل من ركب الخيل إسماعيل
عليه السّلام، ولذلك سميت بالعراب، وكانت قبل ذلك وحشية كسائر
الوحوش؛ فلما أذن الله تعالى لإبراهيم وإسماعيل عليهما السّلام برفع القواعد
من البيت قال الله عزّ وجلّ: إنيّ معطيكما كنزاً دخرته لكما، ثمّ أوحى الله
إلى إسماعيل: أن اخرج فادع بذلك الكنز؛ فخرج إلى أجساد، وكان لا يدري
ما الدّعاء والكنز! فألهمه الله تعالى الدّعاء، فلم يبق على وجه الأرض فرس
بأرض العرب إلا أجابته، فأمكنته من نواصيها وتذلت له؛ ولذلك قال نبينا
عليه الصلّاة والسّلام: "اركبوا الخيل؛ فإنّها ميراث أبيكم إسماعيل"28.

25 آل عمران 96 ، 97 .

26 أخبار مكة للفاكهي، 4، 167 .

27 أخبار مكة للفاكهي، 5، ص 207 .

28 أخرجه أبو حاتم الرازي في الزهد (99) موقوفاً على ابن عباس، وإسناده ضعيف .

وروى الثعلبي بإسناده عن النبي عليه الصلّاة والسّلام أنّه قال: (ما من
فرس إلا ويؤذن له عند كلّ فجر بدعوة يدعو بها: اللهم من خولتني من بني
آدم وجعلتني له؛ فاجعلني أحب أهله وماله إليه²⁹).

وعليه؛ فإنّ لغة الأنبياء عليهم الصلّاة والسّلام حُجّة، ورؤاهم عين
اليقين، ودعاؤهم مستجاب، وإيمانهم جبال لا تهتز إلاّ تسبيحا لله تعالى،
ولذلك فلا غرابة أن يفدى إسماعيل بذبح عظيم؛ فعن منصورٍ، وابن أبي
نُجَيْحٍ، عن مُجَاهِدٍ، {وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ} 30، قال: "مُتَقَبَّلٌ، إنه إسماعيلُ
عَلَيْهِ السَّلَامُ"³¹

ومن هذا الأحاديث صفات لإسماعيل عليه الصلّاة والسّلام:

1. ذبيح الحقّ.
2. عظيم المثوبة.
3. طائع لأمر الله، حيث قال: (ليفعل ما أمره الله به).
4. متحدّي، (فَقَالَ: أَيُّهَا الْعُلَامَ هَلْ تَدْرِي أَيْنَ يَذْهَبُ بِكَ أَبُوكَ؟
قَالَ: نَحْتَطِبُ لِأَهْلِنَا، قَالَ: لَا وَاللَّهِ مَا يُرِيدُ إِلَّا أَنْ يَذْبَحَكَ؛ قَالَ: وَلِمَ؟! قَالَ:
يَزْعَمُ أَنَّ رَبَّهُ أَمَرَهُ بِذَلِكَ؛ قَالَ: فَلْيَفْعَلْ مَا أَمَرَهُ بِهِ رَبُّهُ سَمْعًا وَطَاعَةً) وقال: (يَا
أَبْتِ أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ستجدني إن شاء الله من الصابرين).
5. صبور مطيع، (يَا أَبْتَاهُ إِذَا أَرَدْتُ ذَبْحِي فَأَشْدُدْ رَبَّاطِي لَا يَصِيْبُكَ مِنْ
دَمِي فَيَنْقُصُ أَجْرِي؛ فَإِنَّ الْمَوْتَ شَدِيدٌ، وَلَا أَمِنْ أَنْ اضْطَرَبَ عِنْدَهُ إِذَا
وَجَدْتَ مَسَّهُ، وَاشْحَذْ شَفْرَتَكَ حَتَّى تَجْهَزَ عَلَيَّ فَتَذْبَحَنِي، فَإِذَا أَنْتَ أَضْجَعْتَنِي

29 حياة الحيوان الكبرى، 1، 435.

30 الصافات 107.

31 معجم ابن المقرئ، ص 188.

فَأَكْبِنِي عَلَى جَنْبِي، وَلَا تَضْجَعْنِي لَشَقِي؛ فَإِنِّي أَحْشَىٰ إِنَّ أَنْتَ نَظَرْتَ إِلَيَّ
وَجْهِي أَنْ تَذْرُكَ الرِّقَةَ فَتَحُولَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ أَمْرِ رَبِّكَ فِي).

6 . معين لأمر الله، (وَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَرُدَّ فَمِصِّي إِلَىٰ أُمِّي فَإِنَّهُ عَسَىٰ أَنْ
يَكُونَ أَسْلَىٰ لَهَا فافعل؛ فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: نعم العون أَنْتَ يَا بَنِي عَلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ).

7 . مُفْدَى، (وَيُقَالُ: إِنَّهُ رَبَّطَهُ كَمَا أَمَرَهُ بِالْحَبْلِ فَأَوْثَقَهُ، ثُمَّ شَحَذَ شَفْرَتَهُ،
ثُمَّ تَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَاتَّقَى النَّظَرَ إِلَىٰ وَجْهِهِ، ثُمَّ أَدْخَلَ الشَّفْرَةَ حَلْقَهُ فَقَلَبَهَا حَبْرِيْلَ
عَلَيْهِ السَّلَامَ لِقْفَاهَا فِي يَدِهِ؛ ثُمَّ اجْتَذَبَهَا إِلَيْهِ وَنُودِيَ ﴿أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ
صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا 32﴾ فَهَذِهِ ذَبِيحَتِكَ فِدَاءَ لَابْنِكَ فَادْبَحْهَا دُونَهُ).

ثُمَّ قَالَ الْفَاكَهِي: "قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَحَدَّثَنِي مَنْ لَا أَتَّهِمُ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ
عَنْ الْحُسَيْنِ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: مَا فُدِيَ إِلَّا بِتَيْسٍ مِنَ الْأُرْوَى هَبَطَ عَلَيْهِ مِنْ
ثَبِيرٍ. ثُمَّ قَالَ الْفَاكَهِي: وَيَزْعُمُ أَهْلُ الْكِتَابِ وَكَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ أَنَّ ذَبِيحَةَ
إِبْرَاهِيمَ الَّتِي فَدِيَ بِهَا إِسْمَاعِيلَ كَبَشَ أَمْلَحَ أَرَعَ أَعِينُ 33".

نشأ إسماعيل في كنف بيت مبارك الأعراق والأركان، فقد تربى في رعاية
إبراهيم النبي الرسول الخليل الأواه الحليم، ومع أم صابرة مطيعة مرحومة
مباركة

ففي بيت رحمة الله برحمته تربى إسماعيل، والبيت الذي نعني في الحقيقة
بيتان هما:

بيت إبراهيم وهاجر أم إسماعيل.

32 الصفات، 104 - 105.

33 أخبار مكة للفاكهي، 5، 76.

البيت الحرام فإذا أصبح فتى يسعى في طاعة الله خرج إلى أرض مباركة مقدسة فيها بيت الله الحرام حيث الشعائر المقدسة، وهنا نتوقف مع حقيقة اختيار موضع التنشئة، ونتساءل:

هل كان خيار إبراهيم وإسماعيل للمعيشة؟ أم للطاعة؟

إنّ مسألة اختيار المكان لها دلالات عميقة مع اعتبارنا لكلّ القصص الإخبارية عن كون إبراهيم كان في الشام ثمّ ارتحل إلى مكة باحثاً عن بيت الله، ومن هذه الدلالات:

إنّ إبراهيم كان يعلم أنّ في مكة بيت الله {رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ دُونِ النَّاسِ بِيْتًا لِذِي زُرْعٍ وَارْتَمِثَ مِنْ الشَّجَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ} 34.

أنّ إسماعيل ترك في مكة لدور محدد (رسالته).

أنّ إحياء سيحصل على يد إسماعيل لبلد وأمة.

دعوة إبراهيم كانت لذريته إسماعيل وأبنائه ومن حولهم.

وقد سبق الإشارة إلى دور إبراهيم ومعرفته بالبيت الحرام، ونحن الآن بصدد الحديث عن دور إسماعيل حيث سيتحوّل هذا لوادي من واد مجذب موحش عديم الثمرات إلى وادٍ تطفو إليه القلوب، يفيض بالخيرات الآتية إليه وذلك بصبرٍ إسماعيل على أداء الرسالة.

والواضح الجلي أنّ دعوة إبراهيم (فَأَجْعَلْ أَقْضَىٰ مَنْ النَّاسِ كَهْوِي إِلَيْهِمْ) كانت لأبنائه لأنّه يعلم أنّ الله سيتكفل بيته، هذا من، جانب أمّا من، جانب آخر فنشعر في دعوة إبراهيم لإسماعيل وذريته من بعده أنّ فيها معرفة

بأهمية الواجب الموكل إليهم وصعوبته لذلك كان الدعاء، وقد كان اختيار لفظة (تهوي) في غاية الإعجاز لما هو مطلوب لأنها لفظة تعني دلالات عديدة منها ما يسير في سياق دلالة الآية وهو: "هَوَىٰ إِلَيْهِمْ وَارزُقُهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ فَيَمْنُ قَرَأَ بِهِ إِتْمَا عَدَّاهُ بِإِلَى لِأَنَّ فِيهِ مَعْنَى تَمِيلُ وَالقِرَاءَةُ المَعْرُوفَةُ تَهْوِي إِلَيْهِمْ أَي تَرْتَفِعُ وَالجَمْعُ أَهْوَاءُ وَقَدْ هَوِيَهُ هَوَىٰ فَهُوَ هَوٍ وَقَالَ الفَرَاءُ مَعْنَى الْآيَةِ يَقُولُ أَجْعَلُ أَفئِدَةَ مِنَ النَّاسِ تُرِيدُهُمْ كَمَا تَقُولُ رَأَيْتُ فُلَانًا يَهْوِي نَحْوَكُ مَعْنَاهُ يُرِيدُكَ قَالَ وَقَرَأَ بَعْضُ النَّاسِ تَهْوَىٰ إِلَيْهِمْ بِمَعْنَى تَهَوَّاهُمْ كَمَا قَالَ رَدَفَ لَكُمْ وَرَدَفَكُمْ، وَتَهْوَىٰ إِلَيْهِمْ زَعَمُوا أَنَّهُ فِي التَّفْسِيرِ تَهَوَّاهُمْ، وَتَهْوَىٰ إِلَيْهِمْ أَي تُسْرِعُ"35، وإذا كان علماء اللغة يرجحون واحدا من هذه المعاني دون تخطئة آخر فهذا يدل على أن كل الوجوه يمكن أن تكون صحيحة ونحن نعتقد أنه يمكن أن تكون لفظة (تهوي)، جامعة لكل هذه الدلالات فإبراهيم أرد لإسماعيل وذريته:

- أن تميل الناس إليهم.

- أن يحببهم الناس.

- أن تريدهم.

- أن تسرع إليهم بإجابة دعواهم.

وهذه الدلالات كلها تصلح لمطلوب الدعاء، أما عن تنمة الدعاء (وَارزُقُهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ) فهي مطلقة وغير مخصصة بمعنى أن طلب الرزق لم يكن لإسماعيل وذريته فقط لأن ذلك كان سيبدو حاشا لله نوعا من الأنانية والفردية فكان الدعاء للعموم أي لإسماعيل وذريته ولمن سيهوي إليهم ويعيش من المؤمنين في كل زمان ومكان.

35 لسان العرب، ج 15، ص 371.

فالدعاء على ذلك انطلق من الخاص إلى العام، وهو منهج نبوي علينا أن نتخذه سلوكاً فنبداً الدعاء من الخاص الذي يخصّ الداعي حين يطلب مسألة له ولأهله إلى العام أي عموم المؤمنين بعد ذلك، يقول الحقّ، جلّ وعلا مبينا لنا منهج الدعاء: {رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ} 36.

مع أنّ إبراهيم عليه الصلّاة والسّلام قد أظهر دعاؤه لربه، ولكن ذلك الدعاء كان نتاج باطن (إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ)، ولهذا كان إسماعيل هبة ظاهرة من دعاء باطن، أي أنّ باطن إبراهيم صفة له من الباطن عزّ وجلّ.

ولهذا عندما يكون باطن الإنسان على علاقة مباشرة بالباطن الأعظم، يصبح باطنه ظاهراً كما ظهر إجابة لإبراهيم بابنه إسماعيل عليهما الصلّاة والسّلام، الذي كان أثراً ظاهراً من باطن الدعاء وباطن الإيمان بالباطن الذي يرانا ولا نحن نراه، إنّه الله الظاهر الباطن جلّ جلاله.

ولذلك فالْبَاطِنُ هو: "الَّذِي لَا يُحْسُ، وَإِنَّمَا يُدْرِكُ بِأَثَرِهِ وَأَفْعَالِهِ" 37.

وهو الذي "احتجب عن أبصار الناظرين لجلاله وحكمته وكمال عزته وعظمته" 38

36 - إبراهيم 37، 38.

37 الأسماء والصفات للبيهقي، ج 1، ص 98.

38 أسماء الله الحسنى، ج 32، ص 43.

اتصف إسماعيل بحلمه، والحليم في اللغة صفة للموصوف بالحلم، فعله حلم ويعني "الأناة والتثبت في الأمور وذلك من شعار العقلاء"39، فصفة الحلم تعني الأناة ومعالجة الأمور بصبرٍ وعلم وحكمة، وفي مقابلها العجلة المفسدة لأمر الدين والدنيا. والحليم هو الذي يرغب في العفو ولا يسارع بالعقوبة، قال الله تعالى في وصف نبيه إسماعيل صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ).

والحلم لا يكون حلما مع الضعف والعجز عن المعاقبة، والجهل بالفعل الذي يكون الحلم فيه، ولذلك فلا بد أن يستوجب الحلم عدة أشياء ضرورية لاعتباره حلما، منها:

1- القوة:

فالحلم يعتبر ضعفا إذا لم يكن الحليم قويا فيكون بذلك مثلبة لا مكرمة. وقد قال النابغة في ذلك:

ولا خير في حلم إذا لم يكن له... موارد تحمي صفوه أن يكذرا

هنا نتساءل:

هل كان إسماعيل قويا؟

الأصل في الأنبياء والرسل أن يكونوا أقوياء كجزء من مواصفات من يقوم بمهمة الرسالة إذا لم نقل أساسا من أهم أسسها مصدقا لقوله تعالى: {يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ}40، والمسألة هنا لا ترتبط بنبي دون آخر فمهام الرسالة لا بد لها من قوة تسهم في الأداء والتبليغ المكلف به النبي

39 لسان العرب، ج 12، ص 145.

40 مريم 12.

والرسول، والقوة المقصودة لا تقتصر على القوة الجسدية، بل هي مزيج من
قوة، جسدية وروحية معا، وعلى النحو الآتي:

أ- القوة الجسدية

تظهر في أفعاله التي وصفها لنا رب العزة فقال: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ
الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} {41؛
فرع القواعد مع أبيه عليهما الصلاة والسلام يتطلب ولا شك قوة، جسدية
تؤهله لهذا الفعل.

الإيحاء الآخر بقوته يتمثل في فعل الخير، ومعلوم أنّ فعل الخير أنواع منه
ما يطلب قوة، جسدية تعين الفاعل على فعل الخير كالسعي في الصدقات
وإعانة الفقراء وزيارة المريض وغير ذلك ونعتقد أنّ إسماعيل كان يقوم بمثل
ذلك وأكثر لأنّ الله سبحانه وتعالى وصفه بأنّه من الأخيار فقال مخبرا عنه
وعن غيره من المصطفين، {وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ
الْأَخْيَارِ} {42.

ب- القوة الروحية (قوة العقيدة).

وتبدو واضحة دالة على قوة عقيدة إسماعيل وهو يواجه بقوة أمرا
تضطربّ عنده النفس وينفلت الجسد هو أمر الذبح؛ إنّ القوة تظهر في ردة
فعل إسماعيل حيث كان الخطاب الموجه من الأب لابنه بالذبح أمرا إلهيا
{فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا
تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمُرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ} {43،
المواجهة كانت شديدة بين حب الحياة وحب الآخرة تصدى لها إسماعيل

41 البقرة 127.

42 - ص 48.

43 الصافات 102.

بقوة ورباطة جأش، قل أو ندر أن تظهر في غيره إلا ما شاء الله فقال لأبيه دون تردد أو نقاش أو أخذ ورد مع أنّ الأب لم يفرض، بل عرض على ابنه أن ينظر في الأمر لكنّ إسماعيل اختار أن يظهر قوة إيمانه ليكون أسوة للمؤتسي كما يخبرنا العليم الخبير عمّا جرى بين أب وابنه لا ثالث معهما إلا الله: {قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنِ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ} 44.

وخلاصة القول في ذلك أنّ الحلم هو: تجرّع الغيظ، ودعامة العقل وعلامة علو الهمة والثقة بالنفس، فلا يحركها الغضب بسرعة.

وأنّ الحليم هو من أوسع الناس صدرا، وألينهم عريكةً، وأشدّهم ثباتا وأفواهم جنانا، فلا تستفزه بدايات الأمور، وينظر إلى عواقبها ومآلاتها ولذلك من يفتقد هذه الخلة قد يُفسد أكثر ممّا يُصلح.

والحلم من الصفات التي يجبها الله في عباده، فعلى العبد أن يدرك أنّ توحيد الله في اسمه الحليم مقتضاه أن يكون الموحد حليما صبورا يتأني في رأيه وحكمه وقوله وفعله، ويتخير ما هو أنفع له وللآخرين، ويبادر بالتوبة إلى الله الحليم، روى مسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنه أنّ النبي صلّى الله عليه وسلّم قال لأشج بن عبد القيس: "إِنَّ فِيكَ حَصَلَتَيْنِ يُجِبُّهُمَا اللَّهُ الْحِلْمَ وَالْأَنَاءُ" 45. وفي رواية أخرى عند أبي داود وحسنها الألباني: "إِنَّ فِيكَ حَلَّتَيْنِ يُجِبُّهُمَا اللَّهُ الْحِلْمَ وَالْأَنَاءُ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَا أَتَخَلَّقُ بِهِمَا أَمْ اللَّهُ جَبَلَنِي عَلَيْهِمَا؟ قَالَ: بَلِ اللَّهُ جَبَلَكَ عَلَيْهِمَا، قَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَبَلَنِي عَلَى حَلَّتَيْنِ يُجِبُّهُمَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ" 46.

44 - الصافات 102.

45 - صحيح مسلم، ج 1، ص 107.

46 - سنن أبو داود، ج 1، ص 457.

وعلينا أن نعرف الحلم والإمهال: إنّ كل حلم إمهال وليس كل إمهال حلما لأنّ الله تعالى لو أمهل من أخذه لم يكن هذا الإمهال حلما لأنّ الحلم صفة مدح والإمهال على هذا الوجه مذموم وإذا كان الأخذ والإمهال سواء في الإصلاح فالإمهال تفضل والانتقام عدل وعلى هذا يجب أن يكون ضد الحلم السفه إذا كان الحلم واجبا لأنّ ضده استفساد فلو فعله لم يكن ظلما إلا أنّه لم يكن حكمة ألا ترى أنه قد يكون الشيء سفها وإن لم يكن ضده حلما وهذا نحو صرف الثواب عن المستحقّ إلى غيره لأنّ ذلك يكون ظلما من حيث حرمان من استحقّهُ ويكون سفها من حيث وضعه في غير موضعه ولو أعطي مثل ثواب المطيعين من لم يطع لم يكن ذلك ظلما لأحد ولكن كان سفها لأنّه وضع الشيء في غير موضعه، وقولنا الله حلِيم من صفات الفعل، ويكون من صفات الذات بمعنى أهل لأنّ يحلم إذا عصي، ويفرق بين الحلم والإمهال من وجه آخر وهو أن الحلم لا يكون إلا عن المستحقّ للانتقام وليس كذلك الإمهال ألا ترى أنّك تمهل غريمك إلى مدة ولا يكون ذلك منك حلما، ولذا فالحلم لين، والحليم عطوف رؤوف بحال من هم في حاجة، فيتجاوز عنهم حتى يعلموا أنّه رؤوف رحمن رحيم.

ولا شكّ أنّ الحليم يمتلك مفاتيح العلم بالأشياء ليتسنى له التمييز بين ما يستحقّ أن يحلم معه من الأفعال وما لا يستحقّ، لأنّه ليس كل الأفعال توجب الحلم فالباطل لا حلم معه، وهذه كانت صفة إسماعيل حليم عليهم، والدليل على علم إسماعيل يتحصل لنا من النظر في مجموعة صفاته، فعبد عابد صابّر حليم من الأخيار نبي رسول صفات كلها تفضي لأنّ يكون إسماعيل صلّى الله عليه وسلّم عليما قادرا على أن يأخذ كفة الترجيح ليحكم بها فيميز بين الحقّ والباطل، فيكون حلمه بعد ذلك نابع من هذا العلم.

وبعد ذلك نقول: إنّ إسماعيل استمد صفة الحلم من اسم الله الحليم وعرف معانيها من علم النبوة والرسالة لذلك فإن كل ما في اسم الحليم من

معان يقدر إسماعيل على فهمها واستيعابها والعمل بها ستكون منهجه في السلوك والتبشير والتبليغ.

ومن صفات إسماعيل الصبر والطاعة؛ فهو متحدّي الخوف بالإيمان، (يا أبتاه إذا أردت ذبحي فأشدد ربّاطي لا يصيبك من دمي فينقص أجري؛ فإنّ الموت شديد، ولا آمن أن اضطرب عنده إذا وجدت مسّه، واشحد شفرتك حتّى تجهز عليّ فتذبجني، فإذا أنت أضجعتني فأكبني على جنبي، ولا تضجعي لشقي؛ فإنّي أخشى إن أنت نظرت إلى وجهي أن تدرك الرقة فتحول بينك وبين أمر ربك في). والحمد لله رب العالمين.

أد عقيل حسين عقيل

القاهرة 2017

إسماعيل

من وحي القرآن

إسماعيل صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هبة الله لإبراهيم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هبة محمودة، جاءت بعد اشتداد حاجة الأب إلى وريث ومعين في ساعة الكبر مصداقا لقوله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدَّعَاءِ} 47.

هبة بعد دعاء مخلص لله عز وجل، يقول الحق مخبراً عن دعاء إبراهيم: {وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ} 48.

فإسماعيل هبة، والهبة في الاصطلاح عطاء من غير مقابل 49، وقد وهب الله إسماعيل لإبراهيم من غير مقابل، وهنا مهم أن نقول إن هبات الله خلقه لا تُنتظر بعد عمل أو إنفاق أو أي عبادة، بل الله يهب ما يشاء لمن يشاء بغير حساب.

والوهب نتيجة الدعاء كان إجابة، وهنا يعدّ إسماعيل عليه السلام إجابة ربّانية لعبدٍ مخلص العبادة لله وحده.

ولكن من الذي يُسأل؛ فيجيب؟

47 - إبراهيم 39.

48 - الصافات 99-101.

49 - معجم لغة الفقهاء ج 1، ص 492.

الذي يُسأل هو الذي بيده أمر الإجابة، والذي يجيب: هو الذي يعطي ويهب ويزق ولا ينقص من عطائه شيء؛ وهو الذي يسمع الدعاء ويعلم بالحاجة وما يشبعها بشرى وطمأنة.

ولهذا؛ فالمجيب "هو الذي يقال مسألة السائلين بالإسعاف ودعاء الداعين بالإجابة وضرورة المضطرين بالكفاية، بل ينعم قبل النداء، ويتفضل قبل الدعاء، وليس ذلك إلا لله عزّ وعلا؛ فإنه يعلم حاجة المحتاجين قبل سؤالهم، وقد علمها في الأزل فدبر أسباب كفاية الحاجات بخلق الأطعمة والأقوات وتيسير الأسباب والآلات الموصلة إلى جميع المهمات"50.

والمجيب "من أسمائه تعالى (المجيب) لدعوة الداعين وسؤال السائلين وعبادة المستجيبين"51.

وهو الذي يسأل فيجيب دون منّة، ولا مجيب بالمطلق إلا مالك الملك المطلق. والمجيب هو السميع الذي يدرك الأمر وما يتعلق به من حاجة فيستجيب إليها، والمجيب هو السريع في الإجابة مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ}52 فالفعل قريب يتعهد الإجابة الفورية لمن استجاب لله دون سواه.

أمّا الاستجابة؛ فهي في حقّ العبد الذي لم يعرف الحقيقة بعد فيمر بزمن الانتظار المشروط بالاستجابة التي لما يصل إليها يدعو الله، حينها يكون الله هو المجيب وليس المستجيب، مصداقا لقوله تعالى: {الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ

50 المقصد الأسنى، ج 1، ص 118.

51 شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة، ج 1، ص 62.

52 البقرة 186.

الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدِ جَمَعُوا لَكُمْ فَاسْتَخَشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا
حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ {53} ولأنه العليم بالشيء وأسبابه والحاجة ومشبعاتها
من ملكه، قال تعالى: {وَكَايِنٍ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ
وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} {54}. الدابة البرية ترعى فيما استجاب إليها الله به فهي
لا تملك أن تنتج ولا تزرع ولا تمتلك بذور الزرع ولا تخرج الماء من بطن
الأرض كما يفعل الذي خلقه تعالى في أحسن تقويم، ومع ذلك المجيب
يرزقها بما يشبع حاجتها للماء والطعام سبحانه جلّ جلاله.

وقال تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا
وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} {55}.

وقال تعالى: {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا
رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا
كَانُوا يَصْنَعُونَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ
ظَالِمُونَ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنَّ كُنْتُمْ إِيَّاهُ
تَعْبُدُونَ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلِيَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ
اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} {56}. المجيب لا يجب إلا بما
يفيد وفقا لما يراه من حق وعدل، وتكون الغايات الكريمة من ورائه كما
هو حال إسماعيل الذي وهب صالحا ونبيا يدعو إلى الله الواحد القهار.

أما القرية التي ضرب بها الله مثلا في الآية السابقة؛ فهي كانت آمنة
مطمئنة بما آتاها الله من رزق مفيد ونافع وغير منقوص، ولما كفرت به
وبنعمه جاء الحق بما عملت أيديهم من فساد في الأرض، خاصة وأن الله قد

53 آل عمران 172، 173.

54 العنكبوت 60.

55 هود 6.

56 النحل، 112، 114.

اندرهم برسول منهم فكذبوه؛ فأخذهم العذاب بظلمهم، وفي هذا درس وحكمة لبني آدم ليعلموا أن المجيب هو محق الحق ومزهق الباطل قال تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ هَهُوَ لَا تَتَّخِذُنَا مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ} 57.

المجيب جلّ وعلا هو الذي يسمع الظاهر والباطن من الدعاء، فهو الذي يسمع الملفوظ من دعاء العباد و يحثهم عليه ليحببهم فيقول: {هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} 58، وإن لم ينطق العبد استجاب الرحمن لما في صدره فهو الذي يعلم المكنون في الصدور: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمُ مَا تُوسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ} 59، وعلمه سبحانه كلي مطلق شامل وسمع الدعاء من علمه بالبواطن، فلا يشترط لفظ القول في ما يدعو الإنسان به ربّه لأنه عليم بذات الصدور: {وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} 60، فهو السميع الذي لا تخفى عليه خافية: {يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابِيَةَ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَةَ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ

57 الأنبياء 22 . 16 .

58 غافر 65 ، 66 .

59 ق، 16 ، 17 .

60 الملك 13 .

كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ
فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتِ كِتَابِيهِ وَلَمْ أَذْرِ مَا حِسَابِيهِ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ مَا
أَغْنَى عَنِّي مَالِيهِ هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ثُمَّ فِي
سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ وَلَا
يُحْضِرُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ {61}.

والمجيب الذي جعل إسماعيل عليه السلام إجابة هو دائم الإجابة؛ فلا
يمل ولا يبخل كرما، ذلك لأن إجابته مطلقة نصّ عليها سبحانه مشروطة
بالدعاء ظاهرا كان أم خفيا: {وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ
يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} {62}، وفي هذه الآية الكريمة
نشعر بكرمه سبحانه إذ جعل الإطلاق صفتها الأساسية، فليس هناك
تحديد للدعاء، فأنت تستطيع أن تدعو المجيب بكل ما تريد وما تشتهي
نفسك، وإذا سأل السائل عن دعوة تخالف مرضاة الله؟ فالإجابة تكون
بقوله تعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ
وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ
أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا
تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ
إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} {63}، أما الكلام غير الصالح فانه لا
يرقى إلى ملكوته عز وجل، والذين يَمْكُرُونَ السيئات لا يغفل عنهم فلهم
العذاب الشديد فهؤلاء يَمْكُرُونَ ويمكر الله والله خير الماكرين {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ

61 الحاقة 17 . 34.

62 غافر 60.

63 فاطر 10 ، 11.

الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ
الْمَاكِرِينَ {64}.

فللعبد أن يدعو الله في الحاجة الواحدة ما يشاء من الدعاء، وفي كثرة
الحاجات فوق ذلك. كما أنه من كرمه لم يحدد نوع الدعاء المطلوب لتحقيق
الإجابة لأنه يعلم بعلمه أن بين عباده المتمكن من القول بدرجات البلاغة
والفصاحة والبيان، ومنهم الأمي الذي لا يعرف من القول إلا ما سمع من
غيره وكل ذلك مقبول عنده مرضي من جلاله: {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا
الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوا بِهَا
وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا} {65}. الحديث موجه للخليفة الذي لا يدعو مع الله
إلها آخر، ولأن الأعمال بالنيات فأيا ما يدعو له الاسماء الحسنى، وأيا ما
يدعوه تكون الإجابة.

وكما الدعاء مطلق فالإجابة مطلقة تتبع إرادته سبحانه، فهي فورية
أحيانا لا تأخير فيها وذلك عندما يكون الدعاء بقصدٍ مخصوص كما في
دعاء سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام: {قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا
أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارزُقْنَا
وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ قَالَ اللَّهُ إِنَّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي
أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ} {66}، سأل عيسى عليه الصلاة
والسلام ربه فكانت الإجابة فورية لأنّ الدعاء كان لغرض إلزام الحجة التي
يجب أن تكون قاطعة لا لبس فيها. وسؤال عيسى يقيني بأنه مجيب ووطن
الآخرين فيه شك فكانت الإجابة يقينا كما رآها عيسى يقينا. وهكذا يكون
الخليفة أبدا، مؤمنا بأنه المجيب، أي بطبيعة الحال بما أنه المجيب لا بدّ وان

64 الأنفال 30.

65 الاسراء 110.

66 المائدة 114، 115.

يجيب فهذه من صفاته، وإِنَّه لمن الغرابة أن يؤمن الإنسان بأنَّه المحيب ويظن في دعائه إليه بين شك ويقين، استغفر الله دائما من يدعوه دون شك يجده أسرع المجيبين، قال تعالى: {وَتُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَعْرِقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ} 67، وقال تعالى: {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أُنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذَكَرَى لِلْعَابِدِينَ} 68، وقال تعالى: {وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُعَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْعَمِّ وَكَذَلِكَ نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ وَرَكَرِبًا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رِعْبًا وَرَهْبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ} 69. ما أجمل كلمة (فاستجبنا) المعبرة عن الالتزام مع أمره كن فيكون فهي ليست استعجاليه بل هي المتلازمة مع الأمر كن، ولذا تتكون من معطيات القوَّة التي ترتبط بقوَّة المحيب دون تردد وذلك لارتباط قوَّة السائل بالمحيب دون شك وتردد.

وللإجابة الفورية شرط أساس هو الإخلاص التام في الدِّعاء والانقطاع إلى الله عزَّ وجلَّ دون غيره، وأمثلة القرآن المؤكدة لذلك عديدة منها قوله

67 الأنبياء 76 .81.

68 الأنبياء 83، 84.

69 الأنبياء 87 .90.

تعالى: {هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِن أُنجِيتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ فَلَمَّا أَتَجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَعَيْتُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} 70، ولأن الإنسان في الحياة الدنيا هو محل اختبار في كل ما يقول ويفعل ولأن الله يمهّل ولا يهمل فالله يجب دعاء السائل المحتاج إليه حين السؤال ليبين له أنه المحجب المطلق فإن آمن كان خيرا له وأن ارتد أو كفر فله عذاب اليم، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّبَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ كَلَّا بَلْ تُكَدِّبُونَ بِاللِّدِينِ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ} 71.

فالإخلاص في الدعاء أنجى هؤلاء ومثلهم كثير مع معرفته سبحانه بأهم سيعودون إلى سابق عهدهم في النكران ولكنه سبحانه يريد أن يفهم خليفة الله في الأرض أن الإخلاص له مكانة عالية ودرجة رفيعة يجب أن يثاب عليه المخلص، قال تعالى: {عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُمْ عُدتنا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا} 72. الله جلّ جلاله يريد بالإنسان خيرا ولهذا خلقه في أحسن

70 يونس 22، 23.

71 الانفطار 6. 19.

72 الإسراء 8. 11.

تقوم، ولكن بعض من بني الإنسان يريدون الحياة الدنيا على حساب الآخرة فمثل هؤلاء ليس لهم في الآخرة من نصيب، قال تعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصَلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا} 73.

والتوحيد الخالص المطلق الذي يجعل الإنسان مع ربه الكريم فقط ودون غيره مع التيقن بالإجابة من دواعي الإجابة الفورية: {وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ فَلَمَّا نَجَّكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا} 74.

وقد تكون إجابة المحيب سبحانه أجلية أي بأجل مخصوص كما في إجابة دعاء سيدنا أيوب على عظمة عبادته وإخلاصه كما يصفه عز وجل في كتابه العزيز: {إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ وَذُكِّرَ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ وَإِنَّمَا عِنْدَنَا لِمَنْ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ وَذُكِّرَ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لِحُسْنِ مَآبٍ جَنَّاتٍ عَدْنٍ مُمْتَتَعَةً لَهُمُ الْأَنْبُوبُ مُتَّكِعِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ جَهَنَّمَ يَصَلُّوْهَا فَبئسَ الْمِهَادُ هَذَا فَلْيُدْوَ قُوهُ حَمِيمٍ وَغَسَّاقٍ وَآخِرٌ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ هَذَا فَوْجٌ مُفْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ

73 الإسراء، 18 . 21.

74 الاسراء، 67.

صَالُوا النَّارَ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَيَسِّرَ الْقَرَارُ قَالُوا
رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرِّدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ {75}.

وربما لنا أن نقف مع هذه الإجابة ونتساءل: إذا كان أيوب عليه الصلاة
والسلام كما وصفه الله تعالى من العبادة والصبر والإيمان فلم تأخر في دعوته
حتى يستجيب الله له؟

لأنه يعلم بأنه نبي.

لأنه يعلم أن لا قدرة على الصبر إلا عند الصالحين.

لأنه يعلم أن في ذلك أجرا عظيما.

لأنه يعلم أن في الصبر عبادة.

وذلك لعلمه بأن الله مجيب، ولذا عندما حان وقت الدعاء دعا فكانت
الإجابة.

قال تعالى: {وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِنُظْرِهِمَّا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا
الْعَالِمُونَ} {76}، لان ما مر به أيوب بمثابة الدرس لخليفة الله ليأخذ من قصته
العبرة التي تعينه في القيام بأمر الخلافة، وأيوب صلى الله عليه وسلم كان ممن
خصه الله تعالى بأنواع البلاء وهو غير مغضوب عليه، والمقصود من جميع
هذه القصص الحكمة والاعتبار. كأن الله تعالى قال: يا محمد اصبر على
سفاهة قومك فإنه ما كان في الدنيا أكثر نعمة ومالا وجاها من داود
وسليمان عليهما الصلاة والسلام، وما كان أكثر بلاء ومحنة من أيوب عليه
الصلاة والسلام، فتأمل في أحوال هؤلاء لتعرف أن أحوال الدنيا لا تنتظم
لأحد، وأن العاقل المؤمن لا بد له من الصبر على المكروه، وأعلم أنه كان قد

75 ص، 44 .61.

76 العنكبوت، 43.

حصل عنده نوعان من المكروه: الغم الشديد بسبب زوال الخيرات وحصول المكروهات، والألم الشديد في الجسم ولما حصل هذان النوعان لا جرم، ذكر الله تعالى لفظين وهما النَّصَب والعذاب، وقد روي أن إبليس سأل ربّه، فقال هل في عبيدك من لو سلطتني عليه يمتنع مني؟ فقال الله تعالى: نعم عبيدي أيوب، فجعل يأتيه بوساوسه وهو يرى إبليس عيانا ولا يلتفت إليه، فقال: يا ربّ إنّهُ قد امتنع علي فسلطني على ماله، وكان يجيئه ويقول له: هلك من مالك كذا وكذا، فيقول الله أعطى والله أخذ، ثم يحمد الله، فقال: يا ربّ إن أيوب لا يبالي بماله فسلطني على ولده، فجاء وزلزل الدار فهلك أولاده بالكلية، فجاءه وأخبره به فلم يلتفت إليه، فقال يا ربّ لا يبالي بماله وولده فسلطني على جسده، فأذن فيه، فنفخ في جلد أيوب، وحدثت أسقام عظيمة وآلام شديدة فيه، فمكث في ذلك البلاء سنين، حتى صار بحيث استقذره أهل بلده، فخرج إلى الصحراء وما كان يقرب منه أحد، فجاء الشيطان إلى امرأته، وقال لو أن زوجك استعان بي لخلصته من هذا البلاء، فذكرت المرأة ذلك لزوجها، فحلف بالله لئن عافاه الله ليجلدنّها مائة جلدة، وعند هذه الواقعة قال: {وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَيُّ مَسِّئِي الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُعْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ} 77 فأجاب الله دعاءه ، فأظهر الله من تحت رجله عينا باردة طيبة فاغتسل منها، فأذهب الله عنه كل داء في ظاهره وباطنه، ورد عليه أهله وماله 78.

فهذه الآية وأخواتها في الكتاب الحكيم تبين لنا ولغيرنا صبر أيوب عليه الصلّاة والسلام فلا نعبد الله على حرف: {وَمَنْ النَّاسُ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ} 79، وبهذا المثل يتبين أن ليس

77 ص، 41، 42.

78 تفسير الرازي، ج 13، ص 197.

79 الحج 11.

تأخير إجابة الدّعاء دليلاً للإِنكار وإنما تكون هذه الأمثال دليلاً على الوجود، وتبيان قوّة الإيمان لدى المستخلف بالاصطفاء ليكون الخليفة من بعده مقتدياً بأمر الطاعة للمجيب المطلق.

وقد تكون الإجابة إجابة تدبير لان المجيب هو المدبر، فربّما دعا إنسان ربّه طلباً للمال مثلاً فان الإجابة تكون بالتدبير كأن يسهل الله لهذا العبد عملاً من الأعمال ويبارك له فيه وهكذا يجيب المدبر: {قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ} 80.

ومن كرمه سبحانه أنّه يجيب المحتاج مثل سيدنا موسى عليه الصلّاة والسّلام قال تعالى: {وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ فَسَقَى هُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْسِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الظَّالِمِينَ} 81، في قوله: {فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ} الخليفة موسى عليه الصلّاة والسّلام يشكر ربّه على عطائه واستجابته له، ويقر إنه لا غنا عنه في أي إجابة بل كل ما يجيب المجيب جلّ جلاله تزداد الحاجة إليه إثباتاً. والحاجة التي يلبها المجيب سبحانه لا تكون بالضرورة حاجة مادية كالمال أو الطعام فربّما تكون حاجة معنوية كالصحة والشفاء قال تعالى: {قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً

80 يونس، 31، 32.

81 القصص، 23، 25.

مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي
وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا قَالَ
قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى {82، أو السلطان
أو الحكم: } قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي
إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ {83، أو الذرية وهي من الحاجات التي جبل الله العباد
على حبها، فما من بشر إلا ورغب في ذرية على ما فيها من نصب وعناء
في الإنفاق والرعاية لكنها سنة الله في خلقه ليكون من بعد الخليفة خليفة،
وقد طلب هذه الحاجة إبراهيم عليه الصلاة والسلام: } وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا
إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامًا قَالُوا سَلَامًا قَالُوا لَا تَنْبَغِي لِي
وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا
إِلَى قَوْمٍ لُوطٍ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ
يَعْقُوبَ {84، وطلبها زكريا عليه الصلاة والسلام: } وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ
لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ {85، وهذه الحاجات هي الدنيوية وعلى
العبد أن يدعو لحاجته الأخروية فلا يجعل كل دعائه للدنيا كما يأمرنا
المجيب: } فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا
فَمَنْ النَّاسُ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَمِنْهُمْ
مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ
أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ {86.

وغير المحتاج إجابته واقعة بإذن الله وليس المقصود بغير المحتاج أنه الغني
عن المجيب، فلا مخلوق من بشر وشجر وحيوان وأفلاك ونجوم غني عن الله

82 طه، 25، 37.

83 ص، 35.

84 هود، 69، 71.

85 الانبياء، 89.

86 البقرة، 200، 202.

سبحانه فكل المخلوقات فقيرة ومحتاجة إلى الله وإنما المقصود من يمتلك عوناً مادياً يجعله في واسع أمره كأن يملك المال فله أن يطلب مزيداً، وإذا أمتلك القوة والصحة فله طلب المزيد وإذا رزق بالبنين فله أن يطلب مزيداً، يقول المولى سبحانه: { وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ } 87، وفي هذه المسألة أمور مهمة أولى بنا إن نقف عليها للإجابة عن سؤال لماذا يدعو غير المحتاج؟ ولماذا يجيب الله سبحانه دعوته؟

غير المحتاج يدعو الله لعلمه إنَّ ما أعطاه إياه هو فضل منه، ولذا فإنَّ الاعتراف بالفضل اعتراف بالحقّ الذي لا يكون إلا من مجيب، ولهذا تكون الزيادة مرضاة من السميع المجيب، أما دعوة المحتاج فتكون أحياناً للضرورة أي للحاجة وبالتالي ليس دائماً كلّ سائل خليفة، فغير الخليفة لا ضامن له بالاستمرار في الدّعاء، وقد يظن أنّ ما أتاه ليس بأسباب الدّعاء والسؤال لله تعالى، فيتغير أو يجيد عن النفس التي بها دعا الله حتى الإجابة، وإجابة الله دليل إثبات إنه قريب مجيب الدّعاء.

المجيب يجيب لثبات صفة الإجابة عنده، ووقت الإجابة لم يكن بيد البشر، فهو دائماً بيد المجيب العليم الخبير الذي يعلم ويخبر متى تكون الإجابة ومتى لا تكون من حيث الظرف الزماني والمكاني ومن حيث التقدير العام. فالله سبحانه وتعالى يعلم مصلحة الداعي فيقدر وقت الإجابة تأجيلاً أو تعجيلاً بما تقتضيه المشيئة الإلهية المتعلقة بالمصلحة التي من أجلها دعا الداعي فتكون الإجابة في وقتها أمراً نافداً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

والإجابة أنواع:

. إجابة لإثبات قدرة ومثلك.

. إجابة ليقين السائل بأنه المحيب .

. إجابة لإزالة الظن والشك في القوّة والقدرة والسمع والبصر .

. إجابة ابتلائية .

. إجابة عقابية .

. إجابة لإحقاق حقّ وزهق باطل .

وعليه فبالنسبة لله الكل محتاج إليه، إمّا بالنسبة لمن يقارن بغيره من حيث الحاجة ودرجات إشباعها فالأمر يستوجب التعرف على ما يجيب على السؤال السابق بجزءيه المركب منهما .

إنّ قصر الإجابة على المحتاج هو نقيض للكرم الذي هو من صفاته عزّ وجلّ فهو الكريم، فإذا ترك غير المحتاج أوّل مرضى النفوس البخل للعزير الأكرم سبحانه وتعالى عما يصفون، وكذلك فيه مدخل للقول بالضعف عن إجابة الكل والله هو القوي لذا فان المحيب وفي كل الآيات المتعلقة بالدعاء استخدم أسلوب الإطلاق لا الحصر وهو أسلوب يتناسب مع صفات المحيب من حيث الكرم والقوّة والدوام والغنى وكل الصفات له سبحانه: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُعْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ } 88.

وربّما يتخذ بعض مرضى النفوس مسألة قصر الإجابة على المحتاج ذريعة للقول بالحاجة إلى اله أو آلهة تجيب من تركهم المحيب، وليس غريباً أن نجد

مثل هؤلاء، فقد قال نفر منهم أن الله فقير: {لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنُفُوذُفُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ} {89، وقال نفر أن له أبناء: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ} {90، والمجيب سبحانه اله واحد فرد صمد، ووحدانيته تغني عن سؤال غيره، وكل ما سواه مقصّر عن الإجابة إما كلياً وإما جزئياً، كلياً لأن الله الواسع الغني يجيب الدعاء صغيراً وكبيراً، فلو دعا إنسان يطلب الذرية وهو فاقد الوسيلة إليها لأي سبب كان فلا يستطيع أحد إجابة دعوته إلا الله: {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ} {91.

وجزئياً من حيث أن قدرة البشر على العطاء مهما كبرت فإنها تبقى محدودة قاصرة، فلو طلبت من بشر كريم مال أعطاك لكن من الضامن لدوام حال البقاء للمال أو لغيره إلا المعطي سبحانه، وإذا سألت طبيباً علاج مرضك فمن يضمن البراء من الداء إلا المجيب اللطيف جلّ وعلا.

الدعاء دليل إيماني وهو عبادة لا تؤدّي إلا بالدعاء الصالح الذي تكون إجابته إحقاق حقّ وإزهاق باطل، أو تخلص من مظالم أو فتح باب رزق وخير ورحمة وهداية وشفاء.

ولذا فإن ترك الدعاء هو تقصير عن عبادة وتكبر في غير محله قال تعالى: {وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ

89 ال عمران، 181.

90 التوبة، 30.

91 يس، 77. 79.

مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ {92}.

الدعاء تقرب إلى الله، والتقرب إلى الله عبادة، فمن عبد الله كفر بالشرك وبالظلم وأكل الحرام، ولذا فالتقرب لله معطيات محمودة منها:

أولاً: الاعتراف المسبوق بالنية الخالصة: بشهادة لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وهذه الدعوة الأولى المستجابة. قال تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} {93}، وقال تعالى: {الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كِبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اتَّقَى} {94}.

ثانياً: التسليم بمن أرسل: قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} {95}، هذه الآية تعني فيما تعني، إن الله خالق محمد والملائكة وخالق كل شيء يصلي أي يبارك على محمد وملائكته الطائفة له تصلي على محمد مثلما يصلي جلّ جلاله

92 غافر، 60 .66.

93 النحل، 115.

94 النجم، 32.

95 الأحزاب، 56.

عليه، والفرق بين الصلاتين: الأولى صلاة معرفة، والثانية صلاة تسليم بما أمر الله بـ(الصلاة عليه).

في هذه الآية الرسالة موجهة للمؤمنين الذين تستخلف الأرض بهم، وهم الطائعون مثلما أطاع الملائكة أمر الله تعالى بالصلاة والسلام على سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه أبداً؛ وجاءت المخاطبة هنا للمؤمنين وذلك لارتباط الإجابة منهم بالطاعة التامة لمن صلى على النبي وأمر بالصلاة والسلام عليه.

وعليه فقوله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) تدل على وجوب المباركة بمن جاء به رسولا، أي من يصطفيه الله للعباد الصالحين يستوجب مباركتين اثنتين هما:

الأولى: مباركة الاختيار: أي مباركة من اختاره الله فهو علام الغيوب وهو السميع العليم وهو الخالق الذي له جميع صفات الجمال والكمال جلا جلاله ولهذا سجد الملائكة لله ولأمره طائعين قال تعالى: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾⁹⁶. ولذا فالصلاة عليه تدل على الاعتراف به مصطفيا من عند الله واعترافا بأن اختيار الله هو الاختيار الذي لا يدخله الباطل من أمامه وخلفه ولا من بين جانبيه ولا من تحته ولا من أعلى منه، إنه الاختيار الحق الواجب الإتيان. و(صلوا عليه وسلموا تسليما) هذه الأخرى هي دليل اعتراف تسليمي، أي أنها التسليم بالمطلق بمحمد وبما أتى به محمد من عند الله تعالى، ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾⁹⁷. ولأن محمد عليه الصلاة والسلام مستخلف بالاصطفاء المباشر من عند الله تعالى فإتياعه واجب ومن تبعه وجوبا يكون من المستخلفين فيها حيث الغاية واحدة وهي الإصلاح في الأرض قال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ

96 الحجر 30.

97 النجم 4، 5.

لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ
 وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ {98، وقال تعالى: {بَلِ الْإِنْسَانُ
 عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ لَا تُحْرِكُ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا
 جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ {99. لا شيء يبقى
 غير الهداية، والهداية عمل صالح والصلح خير.

وعليه فالتسليم اعتراف عن يقين، ولهذا آمن الرسول بما انزل إليه
 والمؤمنون كل آمن بالله وبالرسول وبالكتاب، والإيمان بالكتاب يتضمن
 الإيمان بما يحتويه الكتاب من أوامر ونواهي وعبادات، وبما فيه من عبر
 وقصص وفقا لقاعدة الأخذ بما يجب الأخذ به، والابتعاد عما يجب الابتعاد
 عنه. ولذا فالصلاة والسلام على الرسول الكريم أمر تسليم وطاعة، والمؤمنون
 هم الخلفاء الذين يصلون عليه ويسلمون تسليما.

والثانية: مباركة المختار: الذي أمره الله بأن يقول: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي
 رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي
 وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ
 تَهْتَدُونَ {100، فقال المحسنون منهم كما جاء في الكتاب العزيز: {وَمَا لَنَا
 لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ
 فَأَنَّا بَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ
 الْمُحْسِنِينَ {101. ولذلك قال تعالى: {مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ
 وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا {102. ولذا علينا أن نقول إيماننا:

98 الجاثية 14، 15.

99 القيامة، 14، 19.

100 الأعراف، 158.

101 المائدة 84، 85.

102 النساء، 80.

تبارك الله على محمد صلوات الله وسلامه عليه الذي ارتبطت طاعته بطاعة الله.

قال تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} {103}، وقال تعالى: {أَمَرَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} {104}. هذا الإيمان المتسلسل من خليفة بالاصطفاء إلى خليفة بالاتباع والاهتداء جاء بهيئته التسليمية المطلقة بالله تعالى، ثم بالملائكة التي ارتبطت مباركتها للرسول مع مباركة الله له، ثم الكتب التي أنزلها الله على من اصطفى من الرسل، ثم جاء إيمان الرسل بالرسل الذين سبقوهم، ولهذا فنحن لا نفرق بين أحد من رسله، وهكذا جاء إيمان الخليفة بالرسل حتى الرسالة الخاتمة.

ثالثا، التسليم بما أمر: قال تعالى: {لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} {105}. والأمر الذي احتوته الآية السابقة هو:

103 الأعراف، 158.

104 البقرة، 285.

105 البقرة، 177.

1 . الإيمان بالله: وخير ما نستدل به ما قاله تعالى في سورة محمد صلوات الله عليه وسلم تسليما: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ} 106.

2 . الإيمان باليوم الآخر: قال تعالى: {قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} 107.

3 . الإيمان بالملائكة: قال تعالى: {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا عُفْرَانِكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} 108، وقال تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مِثْنَى وَثَلَاثَ وَرَبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} 109، وفي سورة النحل قال تعالى: {يُنزِلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ} 110.

4 . الإيمان بالكتاب: قال تعالى: {الْمِ ذَلِكِ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى} 111، وقال تعالى: {وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ أَوْكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ

106 محمد، 19.

107 التوبة، 29.

108 البقرة، 285.

109 فاطر، 1.

110 النحل، 2.

111 البقرة 1، 2.

وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ {112}.

5 . الإيمان بالنبیین: قال تعالى: {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ
النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيَمَا
اختلفوا فيه وَمَا اختلف فيه إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا
بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اختلفوا فيه مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ
يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ {113}، وقال تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ
عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ
وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ حَرَّوْا سُجَّدًا
وَبُكْيًا فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ
يَلْقَوْنَ عَذَابًا إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا
يُظْلَمُونَ شَيْئًا {114}.

6 . إيتاء المال على حبه لمن لهم حق فيه وهم:

أ . ذوي القربى: قال تعالى: {وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى
وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ
وَالْمُؤَفُّونَ بَعْدَهُمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ
أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ {115}، وقال تعالى: {وَإِذَا حَضَرَ
الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا

112 البقرة 99 . 101.

113 البقرة 213.

114 مريم 58 . 60.

115 البقرة 177.

مَعْرُوفًا {116}. وقال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} {117}.

ب . اليتامى: قال تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ حَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} {118}. وقال تعالى: {وَأَثُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا} {119}.

ج . المساكين: قال تعالى: {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْعَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} {120}, وقال تعالى: {مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} {121}.

د . ابن السبيل: قال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ} {122}, وقال تعالى: {وَأَتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ}

116 النساء، 8.

117 النحل، 90.

118 البقرة،

119 النساء، 2.

120 التوبة، 60.

121 الحشر 7.

122 البقرة 215.

وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا {123}.

هـ السائلون: قال تعالى: {وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ} {124}، وقال تعالى: {لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} {125}.

و . في الرقاب: قال تعالى: {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْعَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنَ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} {126}، وقال تعالى: {لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} {127}.

ع . إقامة الصلاة: قال تعالى: {الْمَ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} {128}،

123 الإِسْرَاءُ 26، 27.

124 الضحى 10.

125 البقرة 177.

126 التوبة 60.

127 البقرة 177.

128 البقرة 1 . 3.

وقال تعالى: {فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَرُكُوعًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا} 129.

غ . إيتاء الزكاة: قال تعالى: {إِنَّمَا يَعْزَّمُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ أَمَنِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَمِمَّا يَخْشَىٰ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ} 130. وقال تعالى: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ} 131، وقال تعالى: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} 132.

ف . الوفاء بالعهد: قال تعالى: {وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا} 133، وقال تعالى: {وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} 134.

ق . الصَّابِرُونَ فِي الْبَأْسَاءِ: قال تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ} 135، وقال تعالى: {وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} 136.

129 النساء 103.

130 التوبة

131 البقرة 43.

132 البقرة 110.

133 الإسراء 34.

134 البقرة 177.

135 البقرة 214.

136 البقرة 177.

ك . الصابرون فِي الضَّرَاءِ: قال تعالى: {ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَاءُ وَالسَّرَاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} 137، وقال تعالى: {الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} 138.

ل . الصابرون حِينَ الْبَأْسِ: قال تعالى: {قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا} 139، وقال تعالى: {وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} 140.

رابعا: الإقدام على العمل الصالح: قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} 141. وقال تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} 142.

فقد يتوهم بعض البشر بمقارنته مع الآخرين أنه غني، ويعلم المتقون منهم إنهم الفقراء أمام الغني المطلق، ولذا فالخليفة فقير لله في حاجة إليه في كل حين، وسيظل كذلك وهو يعلم لا يستغنى إلا به فيمد يده إليه حتى يفوز برضاه فيستغنى بالعمل الصالح في الأرض حتى يرث الجنة. قال تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ

137 الأعراف 95.

138 الحج 35.

139 الأحزاب 18.

140 البقرة 177.

141 البقرة 62.

142 الكهف 110.

مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ
 الْعَادُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ
 يُحَافِظُونَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ {143،
 وقال تعالى: {هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ
 وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنِ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ
 قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ {144.

وعلى ذلك كانت الإجابة من المجيب سبحانه للمحتاج وغير المحتاج فهو
 ربّ الجميع ولا اله غيره وكل من يدعو غيره فهو في ضلال عقدي وفكري،
 عقدي من حيث فساد الاعتقاد عنده بقدرة غير الله على الإجابة: {وَمَنْ
 أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ
 دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ {145، والضلال الفكري يتمثل في تصور وجود قوّة غير
 الله سبحانه قادرة على فعل شيء: {وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ
 نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ {146.

إذن من الذي ينصرك إذا غلبت أو تغلبت؟ المناصرة يمكن أن تأتيك
 من بشر، أمّا النصر فلا يأتيك إلا من الله الذي يملك الأسباب مصداقا
 لقوله تعالى: {إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي
 يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ {147. ولذا فالخليفة ليس له
 بدّا إلا أن يقول كل صباح ومساءً توكلت على الله توكلت على الله توكلت
 على الله، وما توفيقى إلا بالله وما توفيقى إلا بالله وما توفيقى إلا بالله.

143 المؤمنون 11 . 1.

144 محمد 38.

145 الاحقاف 5.

146 الاعراف 197.

147 آل عمران 160.

والكريم يجيب المضطر: {قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ
 اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ أَمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ
 مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَأَلِلُّهُ مَعَ اللَّهِ
 بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ أَمْ مَنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا
 رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَأَلِلُّهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ أَمْ مَنْ
 يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَأَلِلُّهُ مَعَ اللَّهِ
 قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ أَمْ مَنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيَّاحَ
 بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَأَلِلُّهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} 148، والمضطر
 هو الذي أحوجته شدة من الشدائد وألجأته إلى اللجوء والضراعة إلى الله عزّ
 وجلّ، فهو اسم مفعول من الاضطرار الذي هو افتعال من الضرورة، وعليه
 فالمضطر في اشد الحاجة لنصير، وعندما تضيق الحظيرة به ويعقل الحق يدرك
 لا ناصر له إلا هو جلّ جلاله، فيلتجئ إليه واحداً واحداً فيجيبه سألته بما أنه
 قرر بكلّ وعي لا ملجأ منه إلا إليه فهو المحيب الذي يملك الأمر المحيب
 على كل سؤال، والحمد لله ربّ العالمين، (وَيَكْشِفُ السُّوءَ) المحيب وحده
 يعلم الأسباب فيكشفها أي يظهرها بعد أن كانت خفية، وأسباب السوء
 هي أسباب ظالمة جائرة، وبمعرفتها يتم التمكّن من الإصلاح ومغالبتها بنصر
 من المحيب عزّ وجلّ، فإن كان السوء بمرض يكشف سرّ علاجه ويتحقّق
 الشفاء بتوفر الدواء، وإن كان عطشاناً، يكشف الماء ويُمكن الخليفة من
 بلوغه، وهكذا من يملك الأمر يُجيب والحمد لله. قال تعالى: {وَالَّذِينَ كَذَّبُوا
 بِآيَاتِنَا صُمُّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَىٰ
 صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرِ اللَّهِ
 تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ بَلْ إِلَٰهُهُمُ اللَّهُ فَمَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ
 وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ

وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ
وَزَيَّنَّ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ
أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَعْتَةً فِإِذَا هُمْ
مُتَبَلِّسُونَ {149}.

وعليه فقوله (وَيَكْشِفُ السُّوءَ) أي يرفع عن الإنسان ما يعتره من الأمر
الذي يسوؤه، والكشف لا يتم إلا بقوة مالك الإجابة، وبالكشف لن يعد
هناك خافية، ولهذا الكشف أعم من الدفع والرفع.

والله يجيب غير المضطر وهو من وسع الله عليه في الرزق وفي الذرية وفي
كل شيء مما كتبه الله له في الدنيا والآخرة ومثالنا امرأة فرعون المؤمنة العارفة
بالله التي تسكن في قصر من أعظم قصور الدنيا في زمانها وعند ملك تحشاه
الملوك في زمانه، ومثلها غير مضطر، فالاضطرار لم يكن بالنسبة لها ماديا
فهي لم تكن محتاجة فعندها خير القصور والجواري في الدنيا، غير ان
الاضطرار كان معنويا فقد أرادت أن تفر من ضيق الماديات إلى واسع رحمته
جلّ جلاله فطلبت مكانا لها في الجنة نجاة من فرعون وكفره. ولمعرفتها برحمة
الله وحسن ثوابه طلبت قصرا في الجنة وهو ما لا يمكن لأحد أن يجيب مثل
هذه الدعوة إلا الله: { وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةٌ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ
رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ
الظَّالِمِينَ {150}.

والجيب الكريم لا يرد الدعاء لأنه عليم بالحاجات، فلم يرد دعوة القوي
بالإضافة {داوود} وهو يطلب المزيد لتحقيق نصر الله: { وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ
اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنْتَى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ
بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ

149 الانعام، 39 .44.

150 التحريم 11.

بَسْطَةَ فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهَ كَم مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةٌ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبَّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ {151،

فقوة داوود عليه الصلاة والسلام من إيمانه بالله سبحانه وثقته بالمؤمنين من حوله لكنه لم يكن بغنى عن إجابة المجيب فدعاه فأجابه سبحانه وحقق له ما يأمل به كل مؤمن، ولهذا فالمؤمن القوي أحب إلى الله، قال تعالى:

{وَأُخْرَىٰ تُحِبُّوهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ الْمُؤْمِنِينَ} 152.

أما الجبارون فبطشهم بالناس من ظلمهم وليس من إجابة دعاء، لان الجبارة ممن وصفهم الله بالخبيثة والخذلان فقال: {وَأَسْتَفْتَحُوا وَحَابَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ} 153.

أما جبابرة العناد الفكري من المجادلين بغير حق فهؤلاء ممن حكم الله عليه بالضلال إلى يوم القيامة، {الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ

151 البقرة 247 . 251.

152 الصف 13.

153 ابراهيم. 15.

أَتَاهُمْ كَبْرٌ مَّفْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ {154}.

وكما القوي فإن للضعيف عند المجيب إجابة لأنه النصير: {أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ} {155}، أي ضعيف مستحقر، فيه من الإهانات ما يعيبه ويجعل السخرية فيه، وعندما دعا هذا الضعيف وجد إجابة القوي العزيز، {وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالَهُمْ وَاشْدُدْ عَلَيَّ قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ قَالَ قَدْ أُجِيبَتِ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} {156}، وهذه الإجابة كانت لنصرة الضعيف على فرعون المتكبر الجبار، والمثير في هذه الآية أن الحوار كان لموسى عليه الصلوة والسلام والإجابة كانت له ولأخيه وفي ذلك قول يتعلق بصفة الإجابة فهي إجابة العليم الذي يسمع الظاهر من الكلام على لسان موسى والمخفي في صدر هارون في آن واحد فيجيبهما معا وليس لأحد سواه قدرة على ذلك، سبحانه إنه المجيب.

ومن صفة إجابة المجيب أنها دائمة، ويتلازم دوام الإجابة مع قدرة المجيب، فالله سبحانه يجيب من يسأله وهو قادر على الإجابة، {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} {157}، وهذا الدوام مرتبط بالقدرة فهو القوي الدائم، فلا كثرة الدعاء ولا كبر ما يُطلب من القوي يقلل من قدرته على الإجابة.

154 غافر 35.

155 الزخرف 52.

156 يونس 88، 89.

157 الملك 1.

وإجابة المجيب سبحانه دائمة من حيث الزمن، فلا زمن وقتي مخصوص، وإنما هو زمن مطلق لان المجيب حي قيوم، {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} {158، فإذا دعوت في الصباح أو في المساء أو في السحر أو في الفجر تجد السميع مجيب الدعاء.

ولا حدود مكانية تمنع الإجابة لان المجيب يقول: {وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} {159.

وربما يسأل السائل عن أماكن مخصوصة كالكعبة المشرفة أو المدينة المنورة وعن الدعاء فيهما؟ والجواب يكون بالآتي: إن شرف المكان يزيد في صدق وإخلاص الدعاء فيكون الرجاء في الإجابة أقوى، لان العبد في هذه المواضع يفترض أن يتجرد من الدنيا ويخلص الدعاء لربه، فإذا فعل وأيقن بالإجابة وهو يدعو نال مراده من ربّ كريم، وهكذا ستكون الإجابة لكل خليفة مخلص. ومع ذلك فإن للمحفظين شأن عظيم عند المجيب الكريم، يقول المجيب في الكتاب المحفوظ: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} {160، فهو العالم الذي يعرف صدق الدعاء من زيفه فيُجيب لمن يشاء.

والمجيب الكريم عادل، فهو يسمع كل دعاء ويحجب متى يشاء، كيف يشاء، لمن شاء، {فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ وَحَمَلْنَا عَلَى

158 البقرة 255.

159 البقرة 115.

160 الفصص 56.

ذَاتِ الْوَاحِ وَدُسُرٍ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرًا {161، ضمير الدعاء يعود على سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام، الذي دعا الله عز وجل يشكوه حاله مع قومه الذين لم يقلدوه حق قدره، فهم الساخرون منه، المقللين من شأنه وشأنه عظيم، وعندما حسَّ بمغالبتهم له اشتكاهم إلى ربِّه جلَّ جلاله، فكانت الإجابة الغرق بأسباب المطر الغزير المنهمر، والمنهمر هو الساقط بكل قوَّة، وفجَّر الأرض عيوننا، أي وكأن الأرض أصبحت عيوننا من كثرت العيون التي فجرها المحيب لدعاء نوح عليه الصلاة والسلام، وهذا دليل الكثرة عن واقع وليس دليل للمبالغة، فالتقى ماء السماء مع ماء الينابيع في الأرض فحقَّ الحقَّ وزهق الباطل بفعل الغرق وبفعل النجاة، غرق المكذبون والفاسقون والضالون ونجى نوح ومن معه من المؤمنين الذين رضي الله عنهم فأنجاهم من الغرق. نوح عليه الصلاة والسلام من المطيعين المخلصين ومن أولى العزم، وإجابة المحيب سبحانه لدعوة هؤلاء خاصة فيها إقبال منه سبحانه للإجابة كما ينص تعالت سماؤه، {وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنذِرِينَ فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ} 162.

(فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ) تدلُّ على ارتباط الطلب بالإجابة في علاقة صلة لا انفصال فيها، ولهذا فالمحيب يجيب بالطبيعة لأنه المحيب، والإجابة له وقتيه في الزمن الآن، والفرق فقط في أن بعض الإجابات الملبية للطلب والدعاء يكون الفعل فيها مرتبطاً مع القول، والبعض الآخر تسجل الإجابة في الحين ويؤخر موعد فعلها. ولفظ (فلنعم المحيبون) تدل على أن تلك الإجابة كانت من النعم العظيمة، وبيانه من وجوه:

161 ال قمر 10 . 14.

162 ال صافات 71 . 76.

الأول: أنه تعالى عبر عن ذاته بصيغة الجمع فقال: (وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ) والقادر العظيم لا يليق به إلا الإحسان العظيم.

والثاني: أنه أعاد صيغة الجمع في قوله: (فَلَنَعَمَ الْمُجِيبُونَ) وذلك أيضا يدل على تعظيم تلك النعمة وتعزيزه عزّ وجلّ لنوح عليه الصّلاة والسّلام. لا سيما وقد وصف تلك الإجابة بأنها نعمت الإجابة.

والثالث: أنّ الفاء في قوله: (فَلَنَعَمَ الْمُجِيبُونَ) يدل على أن حصول هذه الإجابة مرتب على ذلك النداء، والحكم المرتب على الوصف المناسب يقتضي كونه معللا به، وهذا يدل على أن النداء بالإخلاص سبب لحصول الإجابة، ثم إنه تعالى لما بين أنه سبحانه نعم المجيب على سبيل الإجمال، بيّن أنّ الإنعام حصل في تلك الإجابة من وجوه:

الأول: قوله تعالى: (وَنَجِّينَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ) وهو على القول الأول الكربّ الحاصل بسبب الخوف من الغرق، وعلى الثاني الكربّ الحاصل من أذى قومه.

والثاني: في قوله تعالى: (وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ) يفيد الحصر وذلك يدل على أن كل من سواه وسوى ذريته فقد فنوا.

والثالث: في قوله تعالى: (وَوَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ) سلام على نوح في العالمين) التسليم بنوح حقّ تم إثباته شاهدا أمام الأبصار والعقول المدركة، وفي هذا تشریف وتكريم لنوح عليه الصّلاة والسّلام، (إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ).

الله تعالى سميع لدعاء العاصي والمشرک ويجيب دعائهما: {قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ} قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ

تُشْرِكُونَ} 163. ظلمات البر والبحر ظلمات مخيفة لا يعلم أمرها إلا الله تعالى، وهو القادر على أن ينجي من يشاء منها، وجاءت ظلمات البر والبحر غير محددة فهي في حاجة للتفسير والاجتهاد، وفي معظم التفاسير والاجتهادات نسب بين اتفاق وتباين أو اختلاف، ولكن الذي يمكن أن يكون الاتفاق عليه هو إن في الظلمات مخاوف، وذلك لانعدام تجلي الرؤية وانعدام الوضوح في كل ظلمة، ولأنّ في الظلمة غمة فالغموض سيكون سائدا في الظلمة سواء كانت ظلمة بر أو ظلمة بحر، وفي الظلمة يحاط الإنسان بالمخاوف والشكوك والظنون وهو في دائرة الحركة والسكون، ولذا يلتجئ بالسؤال والدعاء للسميع المجيب ليخرجه من الظلمة وينجيه من كل كرب؛ وغير المؤمن يدعو ربه حتى تتحقق له الإجابة ثم ينسى ربه والعباد بالله فلا يشكره حتى وإن توعد بشكره أثناء الدعاء أو السؤال.

وقد يتساءل البعض: لماذا تجاب دعوة العاصي وهو عاص لله؟ المجيب يجيب دعوة العاصي لأنه ربه ولا رب غيره فإذا لم يجب فمن ذا غيره يجيب؟ لاسيما تلك الدعوات التي تتعلق بالنجاة من الهلاك وفي ذلك حكمة عظيمة، إذ عسى أن تكون هذه الإجابة سببا في عودة هؤلاء إلى طاعة الرحمن الرحيم وتوحيد واحد أحد، ولهذا فهو يمهّل ولا يهمل ويؤجل ولا يعجل حتى تتاح للاستغفار والتوبة فرصة.

فالمجيب يقبل دعاء الاستغفار على صغير الذنوب مصداقا لقوله تعالى: {الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى} 164، ويقول الحق سبحانه: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ

163 الأنعام 63، 64.

164 النجم 32.

ضَالًّا بِعِيدًا {165}، فكيف إذا عاد المشرك وأحس بعظم الجرم الذي اقترفه ودعا ربه طالبا التوبة والمغفرة؟ هل يُغلق بوجهه الباب؟ إن ربه الأكرم واسع المغفرة لا يغلق بابا للرحمة: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} {166}، و(جميعا) هذه لوحدها باب من أبواب رحمته عز وجل والوقوف عندها واجب، فلو وردت الآية من غيرها في هذا الموضع وقيل يغفر الذنوب لما استقام المعنى المراد ولبقي شك وإبهام هل المقصود بالذنوب الكبيرة أم الصغير؟ هل هي ذنوب المسرفين أم المقلين؟ لكن ورود جميعا في الآية أزال كل لبس، فما من ذنب يمكن أن يثنى العبد من العودة إلى الله وطلب مغفرته والبدء بطاعته وعبادته ثم الاستمرار في الحياة آمنا فيها سعيدا برحمة الله دون الرجوع إلى المعاصي أو الإصرار على ما كان منه في الماضي، فهل من رب غيره بهذا الكرم وهذه المغفرة؟ وعلى الخليفة أن يتسع صدره ويقبل من الناس عودتهم عن أخطائهم فلا يغلق الباب بوجه أحد ويسمح للمستغفرين والتائبين ببدء حياة جديدة ما داموا في حالهم الجديد، فإذا عادوا إلى ما كانوا عليه أخذ على أيديهم: {عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُذْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا} {167}.

والمجيب يرسل إلى ذوي الألباب من عباده إشارات واضحة ليدركوا دواعي الإجابة، فالمجيب سبحانه يهدينا الطريق لتصيينا إجابته، وهو إلى ذلك يدعو ويهدي ويرسل الرسل لأنه لا يريد لنا العذاب بل يريد لنا الرحمة

165 النساء 116.

166 الزمر 53.

167 الإسراء 8 . 11.

فهو الحبيب الودود: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ
 الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ
 الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ
 وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا
 عَظِيمًا مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَأَمَّنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا
 عَلِيمًا } 168.

ومن دواعي الإجابة:

1 . السؤال وهو أن تسأل الله حاجتك التي تريد ولا تشك في إجابته
 لان الكريم الذي لا يرد السائل ويعلم عباده ذلك فيقول لهم: { وَأَمَّا السَّائِلَ
 فَلَا تَنْهَرْ } 169، فإذا كان الحبيب يعلم عباده ويحثهم على إجابة السائل فلا
 شك أن من يسأل الله يجده ودودا محببا: { قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ
 لِي أَمْرِي وَاخْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي
 هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا
 إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا } قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى } 170.

والدعوة طلب يقدم مع ترجي وأمل بأحد الآتي أو بها جميعا أو ببعض

منها:

أ . دعوة قولية: كالاستغفار وطلب العفو والمسندة وغيره كثير. قال
 تعالى: { كَهَيْعِصَ ذِكْرٍ رَحْمَةٍ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا قَالَ
 رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا
 وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا

168 النساء 144 . 147.

169 الضحى 10.

170 طه 25 . 36.

يُرْتِي وَيَرْتُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا قَالَ رَبِّ أُنَى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا {171}، وقال تعالى: {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذَكَرَى لِلْعَابِدِينَ وَاسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْعَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ {172}.

ب . دعوة عملية: قال تعالى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِي آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَمَ يُتَقَبَّلَ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ لَئِن بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدَيَّ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ {173}، وقال تعالى: {وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ

171 مريم 11 . 1.

172 الأنبياء 83 . 90.

173 المائدة 27 . 30.

الظَّالِمُونَ} 174، وقال تعالى: {قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَا حُذْوًا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْعِجْيِ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ} 175.

ج . دعوة سلوكية أو فعلية: فالله تعالى يدعونا إلى اخذ العبرة والعظة، قال تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسْلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ} 176، وقال تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادِ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ وَمُمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ فَأَكْتَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ إِنَّ رَبَّكَ لِبِالْمُرْصَادِ} 177، وقال تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ} 178.

174 المائة 45.

175 الأعراف 144 . 146.

176 النحل 35 . 37.

177 الفجر 6 . 14.

178 الفيل 1 . 5.

د . سؤال قلبية: التوجه بنية الاستجابة مصداقا لقوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ حَبَالًا وَدُومًا مَا عَنَّتُمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّوهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُؤْتُوا بِعَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ إِنْ تَمَسَسْتُمْ حَسَنَةً تَسْؤُهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ {179، وقال تعالى: {وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ {180، وقال تعالى: {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ {181.

وكل هذه السؤال مما يجب على الخليفة إجابتها امثالاً لأمر الله ولو بكلمة طيبة: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ {182.

اعلم أنه تعالى لما شرح أحوال الأشقياء وأحوال السعداء، ذكر مثالا يبين الحال في حكم هذين القسمين، وهو هذا المثل. وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى ذكر شجرة موصوفة بصفات أربع ثم شبه الكلمة الطيبة بها.

فالصفة الأولى: لتلك الشجرة كونها طيبة، وذلك يحتمل أموراً. أحدها: كونها طيبة المنظر والصورة والشكل.

179 آل عمران 118 . 121.

180 البقرة 235.

181 غافر 19.

182 ابراهيم 24.

وثانيها: كونها طيبة الرائحة.

وثالثها: كونها طيبة الثمرة يعني أن الفواكه المتولدة منها تكون لذيذة مستطابة.

ورابعها: كونها طيبة بحسب المنفعة يعني أنها كما يستلذ بأكلها فكذلك يعظم الانتفاع بها، ويجب حمل قوله: شجرة طيبة، على مجموع هذه الوجوه لأن اجتماعها يحصل كمال الطيب.

والمسألة الثانية: قوله: (أَصْلُهَا ثَابِتٌ) أي راسخ باق آمن الانقلاع والانقطاع والزوال والفناء وذلك لأن الشيء الطيب إذا كان في معرض الانقراض والانقضاء، فهو وإن كان يحصل الفرح بسبب وجدانه إلا أنه يعظم الحزن بسبب الخوف من زواله وانقضائه، أما إذا علم من حاله أنه باق دائم لا يزول ولا ينقضي فإنه يعظم الفرح بوجوده ويكمل السرور بسبب الفوز به.

والمسألة الثالثة: قوله: (وَفَرَعُهَا فِي السَّمَاءِ) وهذا الوصف يدل على كمال حال تلك الشجرة من وجهين:

الأول: أنّ ارتفاع الأغصان وقوتها في التصاعد يدل على ثبات الأصل ورسوخ العروق. والثاني: أنها متى كانت متصاعدة مرتفعة كانت بعيدة عن عفونة الأرض وقاذورات الأبنية فكانت ثمراتها نقية ظاهرة طيبة عن جميع الشوائب.

والمسألة الرابعة: قوله: (تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا) والمراد: أنّ الشجرة المذكورة كانت موصوفة بهذه الصفة، وهي أن ثمرتها لا بد أن تكون حاضرة دائمة في كل الأوقات، ولا تكون مثل الأشجار التي تكون ثمارها فصلية أو موسمية حاضرا في بعض الأوقات دون بعض، فهذا شرح هذه الشجرة التي ذكرها الله تعالى في هذا الكتاب الكريم ومن المعلوم بالضرورة أن

الرغبة في تحصيل مثل هذه الشجرة يجب أن تكون عظيمة، وأنّ العاقل متى أمكنه تحصيلها وتملكها فإنه لا يجوز له أن يتغافل عنها وأن يتساهل في الفوز بها.

ولذا فالخليفة إذا سأل لا يسأل إلا المحيب، ولهذا تكون الإجابة عليه كالشجرة الضارّة في الأرض والمتفرعة في السماء وتؤتي أكلها كل حين سبحانه جلّ جلاله مجيب عظيم.

وعليه نعود لتبيان الصفات السابقة الذكر:

الصفة الأولى: فهي كونها طيبة فهي حاصلة، بل نقول: لا طيب ولا لذيذ في الحقيقة إلا هذه المعرفة وذلك لأن اللذة الحاصلة بتناول الفاكهة المعينة إنما حصلت، لأنّ إدراك تلك الفاكهة أمر ملائم لمزاج البدن، فلأجل حصول تلك الملائمة والمناسبة حصلت تلك اللذة العظيمة وهنا الملائم لجوهر النفس النطقية والروح القدسية، ليس إلا معرفة الله تعالى ومحبته والاستغراق في الابتهاج به فوجب أن تكون هذه المعرفة في مثالها لذة، بل نقول: اللذة الحاصلة من إدراك الفاكهة يجب أن تكون أقل حالا من اللذة الحاصلة بسبب إشراق جوهر النفس بمعرفة الله وبيان هذا التفاوت من وجوه:

الوجه الأوّل: أنّ المدركات المحسوسة إنما تصير مدركة بسبب أنّ سطح الحاس يلاقي سطح المحسوس فقط، فأما أن يقال إن جوهر المحسوس نفذ في جوهر الحاس فليس الأمر كذلك، لأنّ الأجسام يمتنع تداخلها أمّا ههنا فمعرفة الله تعالى وذلك النور وذلك الإشراق صار ساريا في جوهر النفس متحدًا به وكأن النفس عند حصول ذلك الإشراق تصير غير النفس التي كانت قبل حصول ذلك الإشراق فهذا فرق عظيم بين البابين.

والوجه الثاني: في الفرق أنّ في الالتذاذ بالفاكهة المدرك هو القوّة الذائقة، والمحسوس هو الطعم المخصوص وههنا المدرك هو جوهر النفس القدسية، والمعلوم والمشعور به هو ذات الحقّ جلّ جلاله، وصفات جلاله وإكرامه، فوجب أن تكون نسبة إحدى اللذتين إلى الأخرى كنسبة أحد المدركين إلى الآخر.

الوجه الثالث: في الفرق أنّ اللذات الحاصلة بتناول الفاكهة الطيبة كلما حصلت زالت في الحال، لأنها كيفية سريعة الاستحالة شديدة التغير، أمّا كمال الحقّ وجلاله فإنه ممتنع التغير والتبدل واستعداد جوهر النفس لقبول تلك السعادة أيضا ممتنع التغير، فظهر الفرق العظيم من هذا الوجه.

واعلم أنّ الفرق بين النوعين يقرب أن يكون من وجوه غير متناهية فليكتف بهذه الوجوه الثلاثة تنبيها للعقل السليم على سائرهما.

الصفة الثانية: وهي كون هذه الشجرة ثابتة الأصل، فهذه الصفة في شجرة معرفة الله تعالى أقوى وأكمل، وذلك لأنّ عروق هذه الشجرة راسخة في جوهر النفس القدسية، وهذا الجوهر جوهر مجرد عن الكون والفساد بعيد عن التغير والفناء، وأيضا مدد هذا الرسوخ إنّما هو من تجلي جلال الله تعالى، وهذا التجلي من لوازم كونه سبحانه في ذاته نور النور ومبدأ الظهور، وذلك ممّا يمتنع عقلا زواله لأنه سبحانه واجب الوجود لذاته، وواجب الوجود في جميع صفاته والتغير والفناء والتبدل والزوال والبخل والمنع محال في حقّه، فثبت أن الشجرة الموصوفة بكونها ثابتة الأصل ليست إلا هذه الشجرة المباركة.

الصفة الثالثة: لهذه الشجرة كونها بحيث يكون فرعها في السماء.

واعلم أنّ شجرة المعرفة لها أغصان صاعدة في هواء العالم الإلهي وأغصان صاعدة في هواء العالم الجسماني وفيها أنواع.

النوع الأول: التأمل في دلائل معرفة الله تعالى في عالم الأرواح، وفي عالم الأجسام، وفي أحوال عالم الأفلاك والكواكب، وفي أحوال العالم السفلي، ويدخل فيه محبة الله تعالى والشوق إلى الله تعالى والمواظبة على ذكر الله تعالى والاعتماد بالكلية على الله تعالى، والانقطاع بالكلية عما سوى الله تعالى والاستقصاء في ذكر هذه الأقسام غير مطموح فيه لأنها أحوال غير متناهية.

النوع الثاني: الرحمة والرأفة والصفح والتجاوز عن الذنوب، والسعي في إيصال الخير لكل من هو في حاجة، مع دفع الشر ومقابلة الإساءة بالإحسان. وهذه الأقسام أيضا غير متناهية وهي فروع ثابتة من شجرة معرفة الله تعالى فإن الإنسان كلما كان أكثر توغلا في معرفة الله تعالى كانت هذه الأحوال عنده أكمل وأقوى وأفضل.

وأما الصفة الرابعة: فهي المستمدة من قوله تعالى: (تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا) فهذه الشجرة أولى بهذه الصفة من الأشجار الجسمانية، لأن شجرة المعرفة موجبة لهذه الأحوال ومؤثرة في حصولها والسبب لا ينفك عن المسبب فأثر رسوخ شجرة المعرفة في أرض القلب أن يكون نظره بالعبارة كما قال: {فاعتبروا يا أولي الأبصار} 183، وأن يكون سماعه بالحكمة كما قال: {الذين يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ} 184، ونطقه بالصدق والصواب كما قال: {كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ} 185.

وهذا الإنسان كلما كان رسوخ شجرة المعرفة في أرض قلبه وسمائه أقوى وأكمل، كان ظهور هذه الآثار عنده أكثر، وربما توغل في هذا الباب فيصير بحيث كلما لاحظ شيئا لاحظ الحق فيه، وكلما نظر الخير رأى نور المجيب

183 الحشر 2.

184 الزمر 18.

185 النساء 35.

فيه، وربما عظم ترقيه فيه فيصير لا يرى شيئا إلا وقد ملأ الله قبله. فهذا هو المراد من قوله سبحانه وتعالى: (تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا) وأيضا فما ذكرناه إشارة إلى الإلهامات النفسانية والملكات الروحانية التي تحصل في جواهر الأرواح وتفيض على الأنفس المطمئنة، ثم لا يزال يصعد منها في كل حين ولحظة ولحظة كلام طيب وعمل صالح وخضوع وخشوع وبكاء وتذلل، كثمرة هذه الشجرة المباركة.

وقد قال بعض المحققين الشجرة لا تستحق أن تسمى شجرة، إلا بثلاثة أشياء: عرق راسخ، وأصل قائم، وأغصان عالية. كذلك الإيمان لا يتم إلا بثلاثة أشياء: معرفة في القلب، وقول باللسان، وعمل بالابدان 186.

ونحن نقول لا تبقى الشجرة ضارئة الجذور في الأرض ومتفرعة في السماء إلا بالماء، والماء هو رحمة المحيب على الخليفة، ولهذا من يتقي ربه يجد له مخرجا، مصداقا لقوله تعالى: {وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِيَلْدِ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} 187، وقال تعالى: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَّوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا} 188، وقال تعالى: {رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ} 189.

وعليه: عمل الخير في الأرض رحمة ويمكن من بلوغ شيئين عظيمين هما:

186 تفسير الرازي، ج 9، 244.

187 الأعراف 56، 57.

188 الطلاق 2، 3.

189 آل عمران 8.

الشيء الأول: الاستخلاف في الأرض: قال تعالى: {وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ} 190، وقال تعالى: {قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ أَمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَئِنَّ اللَّهَ بِهِ لَمُ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ أَمْ مَنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَئِنَّ اللَّهَ بِهِ لَمُ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ أَمْ مَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَئِنَّ اللَّهَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذْكُرُونَ أَمْ مَنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَئِنَّ اللَّهَ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} 191. ولذلك فالاستخلاف في الأرض لا يتم إلا بالعمل الصالح مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} 192، وقال تعالى: {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} 193، وقال تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} 194.

190 الأعراف 74.

191 النمل 59 .63.

192 الأنعام 54.

193 يونس 61.

194 النحل 97.

والشيء الثاني: الورثة في الجنة: قال تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوحِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} {195، وقال تعالى: {أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} {196، وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا} {197.

وللخير وجهان:

الوجه المادي: وورد ذلك في آيتين من القران، فالخير بمعنى المال ورد في قوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ} {198.

وورد الخير للإشارة إلى الخيل في قوله تعالى: {إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ} {199، والإشارة مخصوصة ولكنها تفيد العموم فكل ما ينفق ابتغاء مرضاة الله فهو خير.

195 المؤمنون 11 . 1.

196 المؤمنون 10، 11.

197 الكهف 107، 108.

198 البقرة 215.

199 ص 31، 32.

الوجه المعنوي: قال تعالى: {قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ} 200. قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ أي كلام جميل متعارف عليه آلفه الناس فيه منطوق وينال التقدير والاحترام من القائل والمقال له، مثل يرضى الله عنك ويرحمك بواسع رحمتهن ويحفظك من كل شر وسوء.

أما العمل المخصوص وهو العبادة الخالصة النابعة من إيمان ثابت فإن أجره كبير في الدنيا والآخرة، ومن أجر هذا العمل قبول الدعاء: {الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ رَبَّنَا إِنَّنا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْفِ الْمِيعَادَ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى} 201.

والعمل المخصوص هو العمل الصالح: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} 202.

وتطرح هذه الآية عدة أسئلة منها:

السؤال الأول: لفظة «من» في قوله: (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا) تفيد العموم فما الفائدة في ذكر الذكر والأنثى؟

200 البقرة 263.

201 ال عمران 191 . 195.

202 النحل 97.

والجواب: أنّ هذه الآية للوعد بالخيرات والمبالغة في تقرير الوعد من أعظم دلائل الكرم والرّحمة إثباتا للتأكيد وإزالة لوهم التخصيص.

السؤال الثاني: هل تدل هذه الآية على أن الإيمان مغاير للعمل الصالح؟

والجواب: نعم لأنه تعالى جعل الإيمان شرطا في كون العمل الصالح موجبا للثواب. وشرط الشيء مغاير لذلك الشيء.

السؤال الثالث: ظاهر الآية يقتضي أن العمل الصالح إنما يفيد الأثر بشرط الإيمان، فظاهر قوله: (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ) يدل على أن العمل الصالح يفيد الأثر سواء كان مع الإيمان أو كان مع عدمه.

والجواب: إنّ إفادة العمل الصالح للحياة الطيبة مشروط بالإيمان، أما إفادته لأثر غير هذه الحياة الطيبة وهو تخفيف العقاب فإنه لا يتوقف على الإيمان.

السؤال الرابع: هذه الحياة الطيبة تحصل في الدنيا أو في القبر أو في الآخرة.

والجواب فيه ثلاثة أقوال:

القول الأول: قال تعالى: (وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)، لا يبعد أن يكون المراد به الحياتين: الدنيا والآخرة مصداقا لقوله تعالى: {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ} {203}.

بقي أن نطرح سؤالاً مهماً عن الأعمال غير الصالحة: هل لها ثواب؟ فتكون الإجابة: الأمر يتعلق بالعمل ولا يتعلق بالمجيب لان المجيب باقى دائم الكرم، أما العامل فهو المتغير فإذا غير الإنسان عمله الطالح إلى العمل الصالح مخلصاً صادقاً أثيب برحمة الله على مجمل أعماله، بل يبدل له المجيب الكريم أجر سيئاته باجر جديد هو اجر الحسنات: {إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا} 204، وكلما كان العمل السابق سيئاً كريهاً وكان ترك العبد له تركاً نهائياً منقطاً ضاعف له المجيب الأجر: {إِنَّ الْمُصَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ} 205.

. وكذلك ترك المعاصي على لذاتها، وهذا من دواعي الإجابة لان فيه إخلاص واستقامة: {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ} 206، ومن ابلغ ما علمنا الله مثله الذي ضربته لنا في قصة يوسف عليه الصلاة والسلام الذي ترك عصيان المجيب بترك اللذة ثم دعا فكانت الإجابة: {قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} 207.

. والإنفاق وهو البذل بالحق على النفس أو على غيرها، فالإنفاق على العيال من الإنفاق في سبيل الله، والإنفاق على الفقراء والمساكين كذلك، وهو من دواعي إجابة المجيب: {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ

204 الفرقان 70، 71.

205 الحديد 18.

206 النازعات 40، 41.

207 يوسف 33، 34.

خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ فَلَا تَعْلَمَ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ
جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ {208.

. الصبر على الشدة: قال تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ
رَبِّكُمْ فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّٰ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا
عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَخُوكَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ
الْحَاكِمِينَ} {209، وقال تعالى: {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ
وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ
مُحْسِنُونَ} {210، وقال تعالى: {وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا
وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا وَطَعَامًا
ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا} {211. الإحسان: قال تعالى: {ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا
وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ
خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ} {212، وقال تعالى:
{وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
الْمُفْسِدِينَ} {213.

. ترك الحسد: يختلف البشر في النظر إلى انعم الله التي أسبغها على
عباده، فبعضهم حسود يتمنى زوال نعمة الغير وبعضهم ودود قال تعالى:
{وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ
عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ

208 السجدة 16، 17.

209 يونس 108، 109.

210 النحل 127، 128.

211 المزمّل 10، 13.

212 الأعراف 55، 56.

213 القصص، 77.

إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {214}. ومنهم من يرى في عطاء الله لعباده سعةً وفرصةً لدعاء المجيب لأنه يعلم أنه عادل لا يفرق بين عباده إذا سلكوا نُهجه كما حصل مع زكريا عليه الصلاة والسلام مصداقاً لقوله تعالى: {فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ {215}، لما وجد زكريا عند مريم ثمر الشتاء في الصيف وثمر الصيف في الشتاء يأتيها به جبريل قال لها: أنى لك هذا في غير حينه. قالت: هو رزق من عند الله يأتيني به الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب فرغب زكريا في الولد فقال: إن الذي أتى مريم بهذه الفاكهة في غير حينها لقادر على أن يصلح لي زوجتي ويهب لي منها ولدا فعند ذلك دعا ربه وذلك لثلاث ليال بقين من المحرم قام زكريا فاغتسل ثم ابتهل في الدعاء إلى الله تعالى. {هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَةُ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَادْكُرُّ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ {216}

. الإخلاص في العبادة: {وَأُتُوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ

214 البقرة 109.

215 آل عمران 37-39.

216 آل عمران، 38-41.

رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذَكَرَى لِلْعَابِدِينَ {217، والإشارة بينة فدعاء أيوب وإجابة
 الحبيب سبحانه ذكرى للعابدين لكي يتلمسوا طريق الإخلاص في العبادة
 كما أيوب لينالوا ما نال من إجابة الدعاء. قال تعالى: {هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا
 هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} {218، وقال تعالى:
 {أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ
 لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلْمِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ
 الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ
 كَفُورٍ} {219.

وفي هذه الآية مسائل:

المسألة الأولى: قوله: (مَوْجٌ كَالظُّلْمِ) أي أمواج متراكمة ومتراكبة فوق
 بعضها وكأنها جبال في كثافتها وعظمتها.

المسألة الثانية: قال في العنكبوت (فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكَ دَعَوْا اللَّهَ) ثم قال:
 {فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ} {220، وقال ههنا (فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى
 الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ) فنقول لما ذكر ههنا أمرا عظيما وهو الموج الذي كالجبال
 بقي أثر ذلك في قلوبهم فخرج منهم مقتصد أي في الكفر وهو الذي أنزجر
 بعض الانزجار، أو مقتصد في الإخلاص فبقي معه شيء منه ولم يبق على
 ما كان عليه من الإخلاص، وهناك لم يذكر مع ركوب البحر معاينة مثل
 ذلك الأمر فذكر إشراكهم حيث لم يبق عنده أثر.

217 الأنبياء 83، 84.

218 غافر 65.

219 لقمان 31، 32.

220 العنكبوت 65.

المسألة الثالثة: قوله تعالى: (وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا) في مقابلة قوله تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ} 221، يعني يعترف بها الصبار الشكور، ويحدها الختار الكفور والصبار في موازنة الختار لفظا ومعنى والكفور في موازنة الشكور، أما لفظا فظاهر، وأما معنى فلأن الختار هو الغدار الكثير الغدر أو الشديد الغدر، والغدر لا يكون إلا من قلة الصبر، لأن الصبور إن لم يكن يعهد مع أحد لا يعهد منه الأضرار، فإنه يصبر ويفوض الأمر إلى الله وأما الغدار فيعهد ولا يصبر على العهد فينقضه، وأما أن الكفور في مقابلة الشكور معنى فظاهر 222.

. الصفاء مع صدق الإيمان: قال تعالى: {وَذَا التُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ} 223.

. الاستغفار طلبا للعفو: قال تعالى: {قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ الْأَعْرَافِ، وَإِلَى تَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ} 224.

والجيب قريب من عباده، والقرب ليس قربا مكانيا لان الله سبحانه له المشرق والمغرب: {وَاللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ

221 لقمان 31.

222 تفسير الرازي ، ج12، ص 290.

223 الأنبياء 87، 88.

224 هود 23 . 25.

وَاسِعٌ عَلَيْكُمْ {225، وإنما هو قرب المالك من ملكه أي قرب معرفه وعلم، يقول المجيب جلّ وعلا: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} 226 اللهم أني أدعوك أن تفرج كل كربتي عني، وأنا متوكل عليك، وما توفيقني إلا بك، لا إله إلا أنت سبحانك.

أنّ قوله: (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي) يدل على أمور مهمة منها:

أولاً: أن العبد له أن يسأل

ثانياً: وقوله: فَإِنِّي قَرِيبٌ يدل على أنّ الرب قريب من العبد يسمع ويجيب السائلين بقوة المقرّبة منه.

ثالثها: أن الداعي ما دام يبقى خاطره مشغولاً بغير الله تعالى فإنه قد يكون بعيداً، بخلاف الله الذي لا تشغله شاغله عن شاغله.

ومن رحمة المجيب العادل أنّه أجاب البشر كلهم قبل دعائهم فمنحهم الحواس التي تعينهم: {قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ} 227، ولو تصور بشر أن الخالق ميّز بين عباده في هذه المسألة!

ومن الاستجابات الحاصلة من لدن العزيز الحكيم ما يتعلق بالقوانين الكونية لاسيما حركة الأفلاك، فهو الذي يحرّكها بإرادته: {وَالشَّمْسُ بَحْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ

225 البقرة 115.

226 البقرة 186.

227 الملك 23.

النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} 228، وهي استجابة لحاجات خلقه التي يعلمها قبل معرفتهم بها، ولذلك يُذكرهم سبحانه عليهم يشكرون: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَوْ لَيْلًا تَسْمَعُونَ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} 229.

ومن عظيم إجاباته عزّ وجلّ على دعاء خلقه ما كان مستمرا إلى أن يشاء دائما غير منقطعة بإذنه، كدعاء سيدنا إبراهيم: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مَنِ النَّاسَ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ} 230.

وقصة هذه الدعوى المجابة من غير انقطاع أو انتهاء هي أن هاجر أم اسماعيل عليه الصلاة والسلام كانت أمة من القبط لسارة فوهبتها من إبراهيم عليه السلام فلما ولدت له اسماعيل غارت فلم تقاره على كونه معها فأخرجها وابنها إلى أرض مكة فوضعهما عند البيت عند دوحه فوق زمزم وليس بها ماء ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء ثم قفى منطلقا فتبعته هاجر فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء ولم يلتفت إليها فقالت له: آله أمرك بهذا؟ قال: نعم.

228 يس 38 . 40.

229 القصص 71 . 73.

230 ابراهيم 35 . 37.

قالت: إذن لا يضيعنا ثم رجعت، وانطلق عليه الصلّاة والسّلام حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت وكان إذ ذاك مرتفعا من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله ثم دعا بهذه الدعوات ورفع يديه فقال: { رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ } {231}، دعاء من مستخلف إلى من أستخلفه فكانت الإجابة دائمة بنية السائل الصادقة، وبإيمان هاجر التي قالت لإبراهيم عليه الصلّاة والسّلام: "الله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذن لا يضيعنا". نعم إنه السميع الذي سمع حوارهما، وإنه المجيب الذي أجاب على دعائهما وصفاء نيتيهما، ولأن هاجر واثقة بأن الله لا يضيعها وابنها اسماعيل عادت من وداع إبراهيم لترضع ابنها وتشرب ممّا في السقاء حتى إذا نفذ عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه يتلبط فانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصفا أقرب جبل يليها فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدا فلم تر فهبطت حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزته ثم أتت المروءة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحدا فلم تر ففعلت ذلك سبع مرات ولذلك سعى الناس بينهما سبعا، فلما أشرفت على المروءة سمعت صوتا فقالت: صه تريد نفسه ثم تسمعت فسمعت أيضا فقالت: قد اسمعت إن كان عندك غواث فإذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه حتى ظهر الماء فجعلت تحوضه

وتغرف منه في سقائها وهو يفور فشربت وأرضعت ولدها وقال لها الملك: لا تخافي الضيعة فإن ههنا بيت الله تعالى بينه هذا الغلام وأبوه وإن الله سبحانه لا يضيع أهله، ثم أن مرت بهما فرقة من جرهم فرأوا طائرا عائفا فقالوا: لا طير إلا على الماء فبعثوا رسولهم فنظر فإذا بالماء فأتاهم فقصدوه وأم اسماعيل عنده، فقالوا: أشركنا في مائك نشرك في ألباننا ففعلت، فلما أدرك اسماعيل عليه السلام زوجته امرأة منهم 232، فكانت الإجابة دائمة في آل إبراهيم.

ودوام استمرار الإجابة مما يجب التفكير فيه، وطرح التساؤلات حوله،
فإلى متى تبقى؟ وكيف تنتهي؟

أما الزمن فالإجابة دائمة ما غير العبد فكفر أو استغنى، هنا عليه أن يتوقع تغير حاله، قال تعالى: {سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَحْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ يَمِينِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُعَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُعَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ} 233، فالزمن متعلق بالإنسان فإذا شكر زاده الله وإذا كفر انتظر من الله ما لا يسره والله عليهم خبير.

أما انتهاء الإجابة فهو من الأمور الخطيرة التي يجب على الإنسان تأملها، لأنه إذا أجاب المحيب أنسانا ثم كفر توالى عليه المصائب ونزل عليه البلاء، ومن أول هذه الأمور هو سلب ما أوجب وهو من أصعب ما يقع على الإنسان لتعوده عليه فإذا فقدته كانت المصيبة، فدعاء الإنسان لطلب الذرية وإجابة المحيب مما يكثر بين الناس والعام دوام هذه الإجابة نعمة من عنده فإذا فقد الوالد ولده كان في غم وهم وهو يعلم أن السلب إنما حدث

232 الالوسي، ج 9، ص 391.

233 الرعد 10، 11.

بسببه هو قال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُعَيَّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُعَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} {234}.

ومن الأمور التي تحدث للإجابة التبدل إلى حال يذهل منها المستجاب له وهو يعلم أنه لو شكر لزاده الله ولكنه كفر فبدل المحيب حاله: {وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَاهُمَا نَهْرًا وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لِأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَىٰ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا أَوْ يُصْبِحُ مَاؤها غُورًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا} {235}.

وقد تنقلب الإجابة انقلابا معاكسا لشدة كفر العبد بما أنعم الله عليه، كما حصل مع قارون: {إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَأَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ} قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ

234 الانفال 53.

235 الكهف 32 . 43.

مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ فَحَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَاقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ فَحَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيُكَفِّرُ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيُكَفِّرُ اللَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ {236}.

ويسأل سائل عن حالة بقاء الإجابة مع كفر المستجاب له! والجواب على عدة وجوه منها:

1- أن المحيب حلیم ومن حلمه على البشر أنه يمهلهم ما شاء رحمة منه بهم: قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَنْتُمْ لَنَا نُورٌ وَغَفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } {237}.

2- أن يكون دوام الحال مع الكفر ليضلوا فيلقوا من حسابهم ما يلقون في يوم لا ينفع مال ولا بنون، { وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ مَالَهُمْ مُّغْنِيهِمْ عَنْ اللَّهِ وَاللَّهُ لَظَاهِرٌ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ لَسَمِيعٌ } {238}، ولا غرابه في ذلك فالله القدير المحيب يعلم المشيئة في عبادته: { وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً }.

236 الفصص 76 . 82.

237 التحريم 8.

238 ال عمران، 178

وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلِتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ
تَعْمَلُونَ {239}.

3- أن يكون البقاء لغرض الاختبار، {قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي
أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ
كَرِيمٌ} {240}.

4- أن يكون للاعتبار والدعاء وإخلاص النية والعمل لله، {لَا يَسْأَمُ
الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ وَلَعِنَ أَدْفَنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا
مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لِيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَعِنَ رُجِعْتُ إِلَى
رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ
عَذَابٍ غَلِيظٍ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ
فَدُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ} {241}.

5 . أن يكون للتفكير عبرة، فمن اعتبر كان من المستخلفين والوارثين،
ومن لم يتفكر ويعتبر فليس له من الخلافة في شيء ولن يكن من الوارثين،
قال تعالى: {وَآتَلُّ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ
الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْعَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ
وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ
مِثْلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} {242}،
وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيِكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ
إِنَّا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّمَا مِثْلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا إِذَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ
السَّمَاءِ فَاحْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ

239 النحل 93.

240 النمل 40.

241 فصلت 49 . 51.

242 الأعراف 175، 176.

الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ
نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَّمْ تَعْنِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ {243.

6 . أن يكون للتذكر قيمة في النفس حتى تطمئن من كل شر وسوء
ولهذا يقف الخليفة عند المثل ليعتبر قبل الضلال قال تعالى: {أَمْ تَرَى كَيْفَ
ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ
تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبَ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ
وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ
يُثْبِتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ
الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ أَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا
قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ
سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ
وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا
خِلَالَ {244.

7 . مخافة الله قال تعالى: {إِنَّ يَوْمَ الْفُصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ يَوْمٌ لَا يُعْنِي
مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ
إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامٌ الْأَثِيمِ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلِي الْحَمِيمِ خُذُوهُ
فَاعْتَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ذُقْ إِنَّكَ
أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ فِي
جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ

243 يونس، 23، 24.

244 إبراهيم 24 . 31.

عَيْنٍ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ لَا يَذُقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى
وَوَقَّاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ {245.

8 . مد يد العون للمحتاجين تنمي المحبة بين المستخلفين في الأرض
وتمكنهم من بلوغ الجنة قال تعالى: {لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ
الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ
وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ
وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا
وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالصَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ
الْمُتَّقُونَ {246.

9 . رضا الله من رضا النفس والعباد قال تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ
ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا
كَانُوا يَعْمَلُونَ {247، وقال تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ
فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ {248.

10 . رضا الله من رضا الوالدين قال تعالى: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا
إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَنْتَعَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ
لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ
وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَحِمْتَنِي صَغِيرًا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا
صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غُفُورًا وَأَتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ

245 الدخان 40 . 57.

246 البقرة 177.

247 النحل 97.

248 فصلت، 46.

وَلَا تُبَدِّرْ تَبَدِيرًا إِنَّ الْمُبَدِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ
كَفُورًا {249}.

11 . التصدق مفتاح للخير يطهر النفس ويدخل الخليفة الجنة قال
تعالى: { إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ
وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ } {250}، وقال تعالى: { خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا
وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ
يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ وَقُلْ
اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ
وَالشَّهَادَةِ فَيُنبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } {251}.

وعليه فالجيب جلّ جلاله جعل إسماعيل إجابة صالحة لغاية كانت في
نفس إبراهيم ولمشيئة شائها الله الجيب تعالى، وهو المواهب به لإبراهيم
استجابة لدعائه، أي هو إجابة من الجيب العظيم، الذي سمع دعاء إبراهيم
فكان إسماعيل الاستجابة الهبة.

وعليه، يوضع اسم الله تعالى (الوهاب) ضمن الصفات التي تتحقق فيها
صفة الهبة والعتاء وهي (البرّ، الكريم، الواسع). هذه الأسماء تتقارب
معانيها، وتدللّ كلّها على اتصاف الرّب، بالرحمة، والبرّ، والجود، والكرم،
وعلى سعة رحمته ومواهبه التي عمّ بها جميع الوجود بحسب ما تقتضيه
حكّمته. وخص المؤمنين منها، بالنصيب الأوفر، والحظ التام، إذ يقول
تعالى: { وَاكْتُتِبَ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ

249 الإسرائ 23 . 27.

250 التوبة 60.

251 التوبة 105.

عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ
وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ {252

(الوَهَّاب) هو المتفضل بالعطايا المنعم بها لا عن استحقاق عليه، فلا يستحق أن يسمى وهابا إلا من تصرف مواهبه في أنواع العطايا فكثرت نوافله ودامت، والمخلوقون إنما يملكون أن يهبوا مالا ورزقا، ولا يملكون أن يهبوا شفاء لسقيم ولا ولدا لعقيم ولا هدى لضال ولا عافية لذي بلاء، والله الوهَّاب سبحانه يملك جميع ذلك وسع الخلق جوده ورحمته فدامت مواهبه واتصلت مننه وعوائده ومنها "المعطي والمانع" 253.

واسم الله تعالى (الوَهَّاب) هو مصدر كل هببة، والهببة هي العطية الخالية من العوض والغرض، فالهببة أن تجعل من ملكك لغيرك بغير عوض، يقال وهبته هبة وموهبة وموهبا، قال تعالى: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمَنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} وقوله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ} 254 أما قوله تعالى: {قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا} 255 فنسب الملك إلى نفسه الهبة لما كان سببا في إيصاله إليها، ويوصف الله تعالى بالواهب والوهَّاب بمعنى أنه يعطي كلا على استحقاقه 256، ولا تكون الهبة حقيقية إلا إذا كانت من الله تعالى، إذ لا مالك بالمطلق سواه، و المالك هو القاعدة الأساسية لكل هبة أو عطية فلا يكون هناك هبة أو عطاء من لا يملك، إذ يقول تعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ

252 - الأعراف 156

253 - الأسماء والصفات، ج 1، ص 138

254 - إبراهيم 39

255 - مريم 19

256 المفردات في غريب القرآن، ج 1، ص 533

الْمُلْكِ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ تُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ {257} هذه الآيات الكريمة بسياقاتها المتعددة الدالة على ملك الله تعالى، تعظم في أنفسنا عظم ملك الله تعالى، وتحيل إلينا كل الصور التي وردت من المادة اللغوية (وهب) في القرآن الكريم والتي تمثل بمجموعها تشكلا معرفيا يحيل لنا دلالات متعددة ومتنوعة أو مختلفة، ابرز ما يسم هذه الدلالات إنها تركزت على ملك الله تعالى وقدرته في الهبة والعطاء، وفي قضايا مهمة جدا، ومن هذه القضايا هي قضية الذرية، التي تشغل حيزا كبيرا في الفكر البشري، فهي أصل الاستمرار وبقاء النوع، فضلا عن ذلك تعد أحد الثمار المتبقية في الدنيا، يقول رسول الله عليه الصلاة والسلام: "إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ" 258. هنا تتضح صورة الذرية المطلوبة والمرجعيات التي تحيل عليها، وهذه الصورة تبقى ملازمة للخليفة يطلبها حثيثا مما يؤصل فيه فكرة الذرية التي تخرج من نطاق استمرار النوع إلى تشكل من تشكيلات المغفرة التي يسعى لها، لكن هذا لا يتحقق للجميع، إذ يقول تعالى: {لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاءً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ} 259 النص القرآني هنا يحيل إلى تشكيلات مختلفة من الهبة، فكلها تختلف وترسم صورة سعة ملك الله تعالى ونفوذ تصرفه في الملك والخلق لما يشاء، والتدبير لجميع الأمور، والهبة المتحققة هنا تجري وفق مشيئة الله تعالى وحكمته، فالثنائية التي يركز عليها استمرار النوع هي الذكر والأنثى وعدم

257 - أ ل عمران 26 - 27

258 - صحيح مسلم، ج 8، ص 405

259 - الشورى 49 - 50

الاستمرار العقم، والأمور هنا تعود إلى قاعدة واحدة وهي الزواج، يقول تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} 260 ومن هذه القاعدة ينطلق الاستمرار وعدمه، فمن الخلق من يهب له الله تعالى إناثا، ومنهم من يهب له ذكورا، ومنهم من يزوجهم، أي: يجمع له ذكورا وإناثا، ومنهم من يجعله عقيما لا يولد له. وفي كل هذه الأحوال الثلاث يترتب الأمر وفق علم الله تعالى، فانه عالم بما يصلح لكل واحد منهم وهم لا يعلمون سبحانه جلّ جلاله إنّه ربّي، فيتصرف بعلمه وإتقانه الأشياء، وبقدرته في مخلوقاته. وتتضح صورة علم الله تعالى في رزق الأزواج بالذرية الصالحة وعدمها بقوله: {فَأَنْطَلَقًا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا} 261، وهنا قتل الغلام رغم انه إحدى الهبات الثلاث، إذ يتجلى الأمر ليحيل لنا علم الله تعالى بما يصلح للخلق، إذ يقول تعالى: {وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِيَهُمَا رِجْمًا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاءً وَأَقْرَبَ رُحْمًا} 262 هنا ترسم لنا ملامح صيغة (يهب) التي تمثل الارتكاز في النص القرآني لقوله تعالى: {يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ} إلا أن دلالتها هنا موجودة وان لم ترد في النص القرآني، إذ أن الهبة تحققت هنا بالذكر، لكن هذه الهبة لم تستمر بل قل تغيرت ورسمت من جديد ضمن إطار الرّحمة المتحققة للأبوين، ممّا يعزز هنا فكرة الرّحمة المصاحبة للهبة. وهذا يحيلنا إلى قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا} 263 هنا تتجسد صفة المؤمن الباحث عن الجنة، وبطريق

260 - الروم 21

261 - الكهف 74

262 - الكهف 80، 81

263 - الفرقان 74

هو يختاره دون باقي الطرق، فضلا عن ذلك أن هذه الصفة تعنى بانتشار الإسلام وتكثير أتباعه فيدعون الله أن يرزقهم أزواجا وذريات تقر بهم أعينهم، فالأزواج يُطعنهم بإتباع الإسلام وشرائعه؛ فقد كان بعض أزواج المسلمين مخالفات أزواجهم في الدين، والذريات إذا نشأوا نشأوا مؤمنين، وقد جُمع ذلك لهم في صفة {قرة أعين} . فإنها جامعة للكمال في الدين واستقامة الأحوال في الحياة إذ لا تقر عيون المؤمنين إلا بأزواج وأبناء مؤمنين²⁶⁴. هنا نجد الترابط المعرفي المتزامن مع الفعل (هب) الذي يرسم أطر تشكيله متعددة تسيير ضمن تيارين كل واحد منهم يتكئ على الآخر من أجل الوصول إلى نهاية يتمناها المؤمن منذ أن عرف الشهادتين وتخيّل الجنة كما صورت له في القرآن الكريم، إذ يقول تعالى: {وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا} 265 وطلب الهبة جزء من السعي الموصل إلى مرضاة الله تبارك وتعالى.

نلتمس من السياقات المتعددة التي وردت فيها لفظة (وهبنا) أن الهبة فيها كانت ذرية للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، يقول تعالى: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} 266 وقوله تعالى: {وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ} 267 إلا لموسى عليه الصلاة والسلام فان الهبة كانت أن وهب الله تعالى له أخاه هارون عليه الصلاة والسلام، يقول تعالى: {وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا وَوَهَبْنَا

264 - التحرير والتنوير، ج 10، ص 126

265 - الإسراء 19

266 - الأنعام 84

267 - ص 30

لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَحَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا} 268 والهبة المتحققة هنا سبقها سؤال من موسى عليه الصلاة والسلام لله تعالى تضمن أن يكون هارون وزيراً له، إذ يقول تعالى: {قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا} قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى} 269، والهبتان المتحققتان تدلان على حكمة الله تعالى في تيسير دعوته، فكل الهبات عدا هبة موسى عليه الصلاة والسلام جرت ضمن تشكّل عمودي مستمر لا ينقطع يسير تترى وختاماً، قال تعالى: {رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا} 270.

قال تعالى: {ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلًّا مِمَّا جَاءَ أُمَّةً رُسُوهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ} 271 فهنا يحدث تشكلاً ملازماً ومستمرّاً للرسول عليهم الصلاة والسلام، وهو العقوبة المتحققة المستمرة التي لا تنقطع، فكلما بعث رسول إلى القوم الذين أرسل إليهم، كذبوه ووقفوا بوجه دعوته بكل الوسائل، فأهلكهم الله تعالى والحقهم بمن تقدمهم من المهلكين، وجعلهم أخباراً وأحاديث يتحدث بها الناس، فهنا يحصل التزام بين إرسال الرسل وبين العذاب المتحقق، وكلا الأمرين في حالة استمرار إلى أن تتحقق الدعوة التي يريدتها الله تبارك وتعالى كما يشاء لها أن تكون عليه سبحانه إنه القادر جلّ جلاله.

268 - مريم 51 - 53

269 - طه 25 - 36

270 الفرقان، 74.

271 - المؤمنون 44

أما هبة موسى عليه الصلّاة والسّلام، فتختلف عن باقي الهبات باستثناء هبة زكريا عليه الصلّاة والسّلام، فهي تشبهها إذ سبقت بطلب، وطلب موسى عليه الصلّاة والسّلام اشتمل على أمور كثيرة ذكرها وكلها تتعلق بهارون عليه الصلّاة والسّلام، البداية كانت موحية بأمر عظيم الجلل وهو المواجهة التي يجب أن تتحقّق مع فرعون بوصفه رأس الكفر والجبروت، وهنا نعود إلى سؤال موسى عليه الصلّاة والسّلام، فهو في مجمله يصب في صالح دعوته المرتقبة لفرعون الذي تمرد وزاد على الحد في الكفر والفساد والعلو في الأرض، والقهر للضعفاء، حتى إنه ادعى الرّبوبية والألوهية، فقد أحس أنه يحتاج إلى أمور تعينه وتكون سببا في إصلاح المرسل إليهم، فكانت البداية بشرح الصدر، لأن في سعته تحمل للأذى الذي قد يتعرض له، وقد يكون أذى قولي أو فعلي، لأن الصدر إذ ضاق ، لم يصلح صاحبه لهداية الخلق ودعوتهم. وهنا نتذكر قول الله تعالى لنبيه محمّد عليه الصلّاة والسّلام، يقول تعالى: {فِيمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ } 272.

أما قوله تعالى: {وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي} 273 فهنا صورة التيسير غير محده فهي مطلقة يريد موسى عليه الصلّاة والسّلام كلّ الطرق الموصلة لتحقيق الهدف المنشود أو المأمول، ثم بعد ذلك يعرض عيبا فيه (وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي) وكان في لسانه ثقل لا يكاد يفهم عنه الكلام، واللسان بطبيعة الحال هو أداة مهما في التواصل والتفاهم والحوار والجدل، إذ أن مهمته تتطلب هذه الأداة فلا بدّ أن تكون مهياًة كي تؤدي عملها المرتقب، ففيه المخاطبة والمراجعة والبيان عن المعاني. ثم يأتي بعد ذلك السؤال الأخير

272 - آل عمران 159

273 طه 26.

والمهم: {وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي} 274 وهنا تكمن نقطة مهمة في الاختيار فضلا عن المؤازرة والمساعدة وهي أنّ الاختيار أرادته لأخيه هارون عليه الصلّاة والسّلام؛ فذلك من باب البرّ وأحقّ بالبرّ القرابة، (وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي) ولم يكتفي موسى عليه الصلّاة والسّلام بالمشاركة لهارون معه بالأمر بل الإشارك بالنبوة، بأن يجعله الله تعالى نبيا رسولا مثله. فكانت الإجابة من الله تعالى: {قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى} 275 أي أعطيت جميع ما سألت، فكل ما سأله موسى عليه الصلّاة والسّلام يصب في صلب دعوة الله تعالى، فهو على معرفة تامّة بالأمر الذي يريد القيام به وما يتطلّبه.

قال تعالى: {وَزَكْرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ} 276 هذه الآية تمثل صورة من صور الدّعاء، والدّعاء هو العبادة، وهنا ندخل في قضية مهمة وهي آداب الدّعاء وأسباب الاستجابة، فلنتعرف على آداب الدّعاء وأسباب الإجابة:

- 1- النية الخالصة في طاعة الله تعالى.
2. الإخلاص في طاعة الله قولا وعملا.
- 3- الجزم في الدّعاء واليقين بالإجابة.
- 4- الإلحاح في الدّعاء وعدم الاستعجال.
- 5 - الدّعاء في الرخاء والشدة.

274 طه 192 . 132.

275 طه 36.

276 - الأنبياء 89 - 90

6- لا يسأل إلا الله وحده.

7 - الاعتراف بالذنب والاستغفار منه والاعتراف بالنعمة وشكر الله عليها.

8 - التضرع والخشوع والرغبة والرهبة.

9 . التوسل إلى الله بأسمائه الحسنی وصفاته العلی، وعليك بمعرفة أن لكل صفة من صفات الله وأسمائه التي لا تحصى استجابة فادعوه بالصفة التي هي ذات علاقة بالموضوع الذي تدعو إليه.

10 - أن يكون الداعي طعامه ومشربته وملبسه حلال.

11 - أن يكون مصلحا في الأرض.

12 - أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

13 - الابتعاد عن جميع المعاصي 277.

فبعد التعرف على آداب الدعاء وأسباب الاستجابة نعود إلى دعاء زكريا عليه الصلوة والسلام ونحلله وفق ما ذكر من آداب الدعاء وأسباب الإجابة، نجد أن النص القرآني علل سبب الاستجابة بقوله تعالى: {إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ} هنا أثنى الله تعالى عليهم، فقد كانوا يبادرون إلى الخيرات ويفعلونها في أوقاتها ويكملونها على الوجه اللائق الذي ينبغي ولا يتركون فضيلة يقدرون عليها، إلا انتهزوا الفرصة فيها، وكان سؤلهم في الأمور المرغوب فيها من مصالح الدنيا والآخرة، ويرهبون غضب الله تعالى، وكانوا خاضعين متذللين لله تعالى.

أما علاقة الأسماء الحسنى بالدعاء فنلتمس ذلك في دعاء زكريا عليه الصلّاة والسّلام، فقد أختار اسما من أسماء الله الحسنى يتعلق بمضمون دعائه، وهو اسم (الوارث) {وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ} وجملة {وأنت خير الوارثين} ثناء لتمهيد الإجابة، أي أنت الوارث الحقّ فاقض عليّ من صفتك العلية شيئا 278 فزكريا عليه الصلّاة والسّلام فكّر في أمر الدعوة ومن يقوم مقامه في نصح العباد وتوجيههم نحو الله تعالى، فالدعوة تحتاج إلى استمرار، وهذا الاستمرار يتضمن البقاء، فقوله: {وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ} أي: خير الباقيين، فذكر صفة من صفات الله عند سؤاله إعطاء ما هو من جنسها، وهذا الأمر تحقّق أيضا للنبي أيوب عليه الصلّاة والسّلام بعد أن مسه الضر، يقول تعالى: {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَيُّ مَسَّنِي الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرِّهِ وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ} 279. وهذا الأمر لا يقتصر على الأنبياء بل يشمل كل الخلق، يعني أن أسماء الله الحسنى تتردد بين ثنيات دعاء الخلق فيقع الاختيار عليها وفق النقص الحاصل لديهم، فالمحتاج للرفقة والرحمة يكون في دعائه (الرحمن - الرحيم - الفتح - اللطيف - الرؤوف - الودود) والمحتاج للهبّة والعطاء يكون في دعائه (الوهاب - البر - الكريم - الواسع) وكذلك بقية أسماء الله الحسنى.

والخليفة يتسم بطبائع عديدة ومن بين هذه الطبائع السعي المتواصل بتحصيل كثير ممّا يرى فيه تحقيق حاجة في النفس، أو مطلب من مطالب الحياة، من الأمور المادية أو المعنوية، العاجلة أو الأجلّة، بوصفه نفسا إنسانية، إذ يقول تعالى: {الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا} 280 ولما كان تحقيق ما ترجوه

278 - التحرير والتنوير، ج 9، ص 201

279 - الأنبياء 83، 84

280 - الكهف 46

هذه النفس مرتبطين بالواقع بقضاء الله تعالى وقدرته ومرهونا بإرادة الله تعالى وقدرته، ولا يتم إلا بعطائه وهبته، فهنا لابد من التوجه إلى الله تعالى، فهو الرب المتفضل على عباده بالعطاء، وهو الذي يحقق ما يريدون، قال تعالى: {وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَدُوٌّ فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ} 281.

وحظ الخليفة من اسم الله تعالى (الوهاب) أن يتخلق بشيء مما يدل عليه قدر استطاعته، في الحدود والمقاييس البشرية، فيكون وهابا كريما، واسع العطاء مما تفضل الله تعالى عليه من مال أو جاه، وذلك بالبدل السخي في أبواب البر التي حضته على البذل فيها شريعة الله تعالى.

واسم (الوهاب جلّ جلاله) في حق الله تعالى يدل على البذل الشامل، والعطاء الدائم بغير مكلف ولا عرض ولا عوض، وكل من يعطي سواه فإنما يعطي بعوض أو عرض في الدنيا، أو في الدين عاجلا أم آجلا، فإذا لا يصور الهبة ولا يصح الوهاب إلا في الله وحده، لأن الهبات قدر منه سبحانه على عباده في دنياهم وآخرتهم دون انقطاع ولا نفاذ بل في نماء وازدياد، من ذلك قوله تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} 282

281 - غافر 60 ، 61

282 - البقرة 261

نشأة إسماعيل:

نشأ إسماعيل في كنف بيت مبارك الأعراق والأركان، فقد تربى في رعاية إبراهيم النبي الرسول الخليل الأواه الحليم، ومع أم صابرة مطيعة مرحومة مباركة

ففي بيت رحمة الله برحمته تربى إسماعيل، والبيت الذي نعني في الحقيقة بيتان هما:

بيت إبراهيم وهاجر أم إسماعيل.

البيت الحرام فإذا أصبح فتى يسعى في طاعة الله خرج إلى أرض مباركة مقدسة فيها بيت الله الحرام حيث الشعائر المقدسة، وهنا نتوقف مع حقيقة اختيار موضع التنشئة، ونتساءل:

هل كان خيار إبراهيم وإسماعيل للمعيشة؟ أم للطاعة؟

إنّ مسألة اختيار المكان لها دلالات عميقة مع اعتبارنا لكلّ القصص الإخبارية عن كون إبراهيم كان في الشام ثم ارتحل إلى مكة باحثاً عن بيت الله، ومن هذه الدلالات:

إنّ إبراهيم كان يعلم أنّ في مكة بيت الله { رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ دُرِّيِّ بَوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ } 283.

أنّ إسماعيل ترك في مكة لدور محدد (رسالته).

أنّ إحياء سيحصل على يد إسماعيل لبلد وأمة.

دعوة إبراهيم كانت لذريته إسماعيل وأبنائه ومن حولهم.

وقد سبق الإشارة إلى دور إبراهيم ومعرفته بالبيت الحرام، ونحن الآن بصدد الحديث عن دور إسماعيل حيث سيتحوّل هذا لوادي من واد مجذب موحش عديم الثمرات إلى وادٍ تهنو إليه القلوب، يفيض بالخيرات الآتية إليه وذلك بصبرٍ إسماعيل على أداء الرسالة.

والواضح الجليّ أنّ دعوة إبراهيم (فَاجْعَلْ أَفْتِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ) كانت لأبنائه لأنّه يعلم أنّ الله سيتكفل بيته، هذا من، جانب أمّا من، جانب آخر فنشعر في دعوة إبراهيم لإسماعيل وذريته من بعده أنّ فيها معرفة بأهمية الواجب الموكل إليهم وصعوبته لذلك كان الدعاء، وقد كان اختيار لفظة (تهوي) في غاية الإعجاز لما هو مطلوب لأنّها لفظة تعني دلالات عديدة منها ما يسير في سياق دلالة الآية وهو: "تَهْوَى إِلَيْهِمْ وَارْتُفِعْ مِنْ الثَّمَرَاتِ فَيَمْنُ قَرَأَ بِهِ إِتْمَا عَدَّاهُ بِإِلَى لِأَنَّ فِيهِ مَعْنَى تَمِيلُ وَالْقِرَاءَةُ الْمَعْرُوفَةُ تَهْوِي إِلَيْهِمْ أَيْ تَرْتَفِعُ وَالْجَمْعُ أَهْوَاءُ وَقَدْ هَوِيَ هَوَى فَهُوَ هَوٍ وَقَالَ الْفَرَاءُ مَعْنَى الْآيَةِ يَقُولُ أَجْعَلْ أَفْتِدَةً مِنَ النَّاسِ تُرِيدُهُمْ كَمَا تَقُولُ رَأَيْتَ فُلَانًا يَهْوِي نَحْوَكُ مَعْنَاهُ يُرِيدُكَ قَالَ وَقَرَأَ بَعْضُ النَّاسِ تَهْوَى إِلَيْهِمْ بِمَعْنَى تَهْوَاهُمْ كَمَا قَالَ رَدْفَ لَكُمْ وَرَدْفَكُمْ، وَتَهْوَى إِلَيْهِمْ زَعَمُوا أَنَّهُ فِي التَّفْسِيرِ تَهْوَاهُمْ، وَتَهْوَى إِلَيْهِمْ أَيْ تُسْرَعُ"284، وإذا كان علماء اللغة يرجّحون واحدا من هذه المعاني دون تخطئة آخر فهذا يدل على أنّ كلّ الوجوه يمكن أن تكون صحيحة ونحن نعتقد أنّه يمكن أن تكون لفظة (تهوي)، جامعة لكل هذه الدلالات فإبراهيم أرد لإسماعيل وذريته:

- أن تميل الناس إليهم.

- أن يحبّهم الناس.

- أن تريداهم.

284 لسان العرب، ج 15، ص 371.

- أن تسرع إليهم بإجابة دعواهم.

وهذه الدلالات كلها تصلح لمطلوب الدعاء، أمّا عن تمتة الدعاء (وَأَرْزُقُهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ) فهي مطلقة وغير مخصصة بمعنى أنّ طلب الرزق لم يكن لإسماعيل وذريته فقط لأنّ ذلك كان سيبدو حاشا لله نوعا من الأنانية والفردية فكان الدعاء للعموم أي لإسماعيل وذريته ولمن سيهوي إليهم ويعيش من المؤمنين في كلّ زمان ومكان.

فالدعاء على ذلك انطلق من الخاص إلى العام، وهو منهج نبوي علينا أن نتخذه سلوكا فنبدأ الدعاء من الخاص الذي يخصّ الداعي حين يطلب مسألة له ولأهله إلى العام أي عموم المؤمنين بعد ذلك، يقول الحقّ، جلّ وعلا مبينا لنا منهج الدعاء: { رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ } {285}.

مع أنّ إبراهيم عليه الصلّاة والسّلام قد أظهر دعاؤه لربّه، ولكن ذلك الدعاء كان نتاج باطن (إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ)، ولهذا كان إسماعيل هبة ظاهرة من دعاء باطن، أي أنّ باطن إبراهيم صفة له من الباطن عزّ وجلّ.

ولهذا عندما يكون باطن الإنسان على علاقة مباشر بالباطن الأعظم، يصبح باطنه ظاهرا كما ظهر إجابة لإبراهيم بابنه إسماعيل عليهما الصلّاة والسّلام، الذي كان أثرا ظاهرا من باطن الدعاء وباطن الإيمان بالباطن الذي يرانا ولا نحن نراه، إنّه الله الظاهر الباطن جلّ جلاله.

ولذلك فالْبَاطِنُ هو: "الَّذِي لَا يُحْسُ، وَإِنَّمَا يُدْرِكُ بِأَثَارِهِ وَأَفْعَالِهِ" 286.

وهو الذي "احتجب عن أبصار الناظرين لجلاله وحكمته وكمال عزته وعظمته" 287

والحمد لله الذي يعلم البواطن والظواهر، المحتجب عن خلقه فلا تراه العيون ولا تدركه الظنون، المتواري في حجب عزّته، الظاهر في جلال قدرته، فقد بطن حتى تفرّد في وحدانيته، عنت له الوجوه ظاهرا وباطنا، وذلت له الرقاب قاهرا وقادرا، فهو الظاهر بنعمته، الباطن برحمته، والظاهر بقدرته على كل شيء، والباطن العالم بحقيقة كل شيء، وهو الظاهر الذي لا يقهر، والباطن في كونه الأوّل، قد أظهر كل شيء، ورفع السماوات بغير عمد نراها، وبسط الأرض على الماء حيث كان عرشه جلّ جلاله، فسبحان الذي لا تحوم حوله العقول، فهو ظاهر فيما بطن، وباطن فيما نرى من آياته التي هو ظاهر فيها، والتي نستدل منها على أنه سبحانه وتعالى باطن ليس دونه شيء.

الباطن: هو "المحتجب عن أبصار الخلائق وأوهامهم فلا يدركه بصر ولا يحيط به وهم وهو العالم بكل ما بطن" 288.

ولأنه جلّ جلاله واحد أحد فهو الباطن والظاهر، ولكن قد يتساءل البعض: كيف يكون سبحانه جلّ جلاله ظاهرا وباطنا في آنٍ معا.

الباطن في أمره (كن) الذي به تظهر الآيات من مصادر باطنة كقوله للشيء (كن) فيكون، قال تعالى: {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ

286 الأسماء والصفات للبيهقي، ج 1، ص 98.

287 أسماء الله الحسنى، ج 32، ص 43.

288 لسان العرب المحيظ، ج 1، ص 228.

كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ {289}.

إنه الباطن في قلوب المؤمنين معرفة تامة والظاهر خشية في أعمالهم وأقوالهم وسلوكياتهم وأفعالهم وحسناتهم وصلاتهم وزكاتهم وصدقاتهم.

وعليه لا ظاهر إلا من باطن ولا باطن إلا من ظاهر، وعلاقة قوية في دائرة الممكن ترتبط بين الطاقة الكامنة والساكنة وبين القوة الدافعة لخروجها، ولذا ترتبط الحواس بعضها ببعض كما ترتبط الأفكار في تحليلها للمواضيع وتفسيرها للنتائج، والعلاقة قد تكون قوية وقد تكون ضعيفة بين الأفكار كما هو الحال بين الحواس، وذلك كل حسب درجة سلامته، والحواس هي التي تنقل الأفكار وترجمها وتحللها وتفسرها، وتنقل الأفكار والمعلومات من الداخل (الباطن) إلى الخارج (الظاهر) أو من الخارج إلى الداخل، فالظاهر للحواس الخارجية ينتقل إلى الحواس الداخلية (إلى العقل والأحاسيس والمشاعر) وهكذا المتخيل بالعقل ينتقل إلى الحواس الخارجية فيحدث التبادل من أجل استكمال المعلومة أو الفكرة ويرتبط المشاهد والمحسوس بالمجرد كما يرتبط الجوهر بالصورة، ولذلك الموضوع مادة للعقل ومجال للخيال المبدع عندما يثرى بالتفكير الذي يظهر الابداع من الداخل إلى الخارج (من العقل إلى الحواس) لتشاهد أو تمارس كأفعال من خلال العلاقات الاجتماعية والأدوار التي يمكن القيام بها، ولهذا يتم تحليل المحتوى والمضمون بطريقة التبادل في حالتي الانتقال من المشاهد إلى المجرد، أو من المجرد إلى المشاهد، فإذا نظرنا إلى القمر على سبيل المثال بانتباه، وفكرنا في حركته، وجماله، وعلاقته بغيره من الكواكب الأخرى، فإن أفكارنا ستنتقلنا إلى طرح السؤالين الآتيين:

كيف وجد؟ ومن الذي أوجده؟ ولا تتم الإجابة على هذين السؤالين إلا بمعرفة القوّة التي تكمن وراء وجوده، وإذا بحثنا فيما وراء وجوده، فإن تفكيرنا يدفعنا إلى التعرف على الواجد الذي من ورائه، حيث وراء كل موجود واجد بالضرورة.

وعليه، لا ظاهر إلا من ورائه باطن أو علة وسبب، ولا علة وسبب إلا من ورائهما باطن أو ظاهر. فالإيمان على سبيل المثال في بدايته الكمون (البطون) إلى أن يصبح قناعة، وفي نهايته الظهور عندما يصبح سلوكا وفعلا.

وعليه لا أقول علاقة قوية بين الظاهر والباطن بل أقول: ورأي كل ظاهر باطن ووراء كل باطن ظاهر وعلى المستخلفين فيها التبيين قبل إصدارهم للأحكام، فالظاهر ظاهرا في آياته العظام التي لا تكون إن لم يكن هو من ورائها، وباطن في قدرته وقوته وتسييره بالحركة والزمان. لذا

فالظاهر هو الذي لا يحجب قدرته حاجب ولا يواجه قوته قوّة، إنه الظاهر بإحيائه والظاهر بإماتته والظاهر ببعثه والظاهر بحسابه وجزائه وعقابه. وهو الباطن في ذاته التي لا تبصرها الأبصار، أي انه الظاهر من حيث انه يدرك الأبصار، وباطن من حيث أنه لا تدركه الأبصار، مصداقا لقوله تعالى: {ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِيُقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} 290.

فلا يكون الشيء ظاهرا لشيء آخر وباطنا له في الوقت نفسه، فهو إن كان كذلك فإن هذا الشيء أو ذاك لا يخرج عن حالين لا ثالث لهما:

الأول: إما أن يكون ظاهراً أبداً وإن اختفى لعلّة طرأت عليه، وهذه العلة إما أن تكون من جوهره أو من عرضه أو من مؤثرٍ خارجي، فإن كانت العلة المؤثرة عليه من جوهره فهو فاسد بالطبع لأن هذه العلة أدت إلى تغيير ماهيته، فهذا لا يصلح أن يكون إلهاً، وإن كانت العلة المؤثرة فيه من أعراضه فكيف يطغى العرض على الجوهر الذي هو صادر عنه والعرض جزء منه، وهذا لا يصلح أن يكون إلهاً أيضاً، وإن كانت العلة مؤثر خارجي، وهذا المؤثر مخلوق بإرادة الشيء فكيف يؤثر المخلوق في الخالق وهذا لا يستقيم لعقل، وعلى هذا فالظاهر الذي يحتفي لعلّة طارئة هو مخلوق لخالقه بفعل قدرة الخالق لأمر إرادته هو.

الثاني: إما أن يكون باطناً أبداً وإن ظهر فلعلّة طرأت عليه، وإذا طرأت عليه فظهر فإنه ينسحب عليه ما انسحب على الأول من التغيير والتبديل والتحول بفعل الجوهر أو العرض أو المؤثر الخارجي، ولهذا نحكم عليه بما حكمنا على الأول لتبدل جوهره وأعراضه وصفاته وهذا التبدل الذي يطرأ على ماهية الأشياء هو الدليل على أنها خلقت بفعل خالق وبحكمته لأمر إرادته فيجري عليها ما يجري على بقية المخلوقات الخاضعة لنظام الخلق في هذا الكون صغيرها وكبيرها وظاهرها وباطنها وجليلها ودقيقها وعظيمها وصغيرها على حدٍ سواء، فالأشياء جميعها لا تكون ظاهرة من وجه وباطنة من وجه آخر، فهي إما أن تكون ظاهرة حقيقة ذات جواهر وأعراض وأبعاد، وإما أن تكون باطنة حقيقة ذات جواهر وأعراض وأبعاد وهذه هي المخلوقات المعلومة التي وجدت بقول الكينونة {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} 291 لما أراد الله تعالى ذلك، ولكن الله سبحانه ظاهر لنا بالاستدلال، فإذا قام الدليل وظهرت الحجة انقطع الظن والاحتمال، واستدلالات الخلق والآيات قطعت الظن والشك بالبرهان واليقين لوجود

البرهان الدماغ واليقين الثابت في هذا الكون وفي الآفاق وفي أنفسنا ما ظهر منها وما بطن.

ولكن كونه باطنا جل شأنه فإن دليله يختلف عن دليل ظهوره الذي يعلم بالعقل، ودليل كونه باطنا وإنما بعيد كل البعد عن الحواس، وإنما يعلم من إدراكات الحواس لا من الحواس نفسها وهو في جميعها ظاهر وباطن، جامع للظهور بالأدلة والخفاء، فلا يدرك بالحواس، وهو الظاهر العالي على كل شيء الغالب له، والباطن الذي بطن كل شيء، أي علم باطنه فظهر له الباطن وليس ذلك عدولا عن صفة الظاهر وإنما هي من تمام الكمال للذات الإلهية التي لا تنفصل عنها، وهو الباطن غير مدرك، فإن بطونه تعالى عن إدراك العقول كبطونه عن إدراك الحواس لأن حقيقة الذات غير مدركة لا عقلا ولا حسا، وإنما يعلم عن طريق العقل باستدلالات خارجية تؤدي إلى إدراك الباطن، كما يعلم بإدراكات الحواس لا عن طريق الحواس نفسها، لذلك فإن أدلة إثبات الصفات لا تخضع لقوانين المادة المشاهدة لا حسا ولا عقلا، فالله هو الباطن فما اختفى في شيء ولا تغيره الدهور ولا تعجزه الأمور ولا يدركه الزمان ولا يحويه المكان ولا يشغله شأن عن شأن، ذلكم الله الذي لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى والمثل الأعلى والكلمة العليا أنزل الكتب بالحق وأرسل الرسل بالصدق ظاهر على كل شيء باطن في كل شيء، وبطونه يدل على القرب والمصاحبة قال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلِمَ مَا تُوسِّسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ} 292.

فالله سبحانه وتعالى بكونه الباطن العليم فهو لا يخفى عليه شيء من أحوال الإنسان من خفياته حتى وإن استتر عن الأعين سواء أكانت تلك الخفيات من صالح الأعمال أم من غير ذلك، فهو سبحانه باطن بقرته يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور وما يحدث الإنسان به قلبه ونفسه ولا يخفى

عليه مكنونات السرائر أو الضمائر فالله تعالى أقرب إلى الإنسان من نفسه في الباطن وضرب حبل الوريد مثلا "لأن أبعاضه وأجزائه يحجب بعضها بعضاً، ولا يحجب علم الله شيء" 293 وهذا التعبير يحمل على باب العلم بكل صغيرة وكبيرة، قريبة كانت أم بعيدة لأنه محيط بكل شيء ما ظهر وما بطن والعالم بما ظهر وما بطن، وهو ظاهر بحججه الساطعة وبراهينه الواضحة وشواهد الدالة على وحدانيته والباطن الذي احتجب عن أبصار الخلق فلا يدرك ولا تستوي عليه الكيفية وهو يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار، الأول والآخر، إنه الظاهر الحكيم والباطن العليم ، وهو الأول ببه بالعباد إذ عرفهم توحيده والآخر بجوده إذ عرفهم طريق التوبة عما جنت أيديهم والظاهر بتوفيقه إذ وفقهم للسجود له والباطن بستره إذا عصوا يستر عليهم، وهو الأول بشرح القلوب والآخر بغفران الذنوب والظاهر بكشف الكروب والباطن بعلم الغيوب، وهو الباطن الذي احتجب عن الأبصار عزة وجلالة ومهابة، وهو الباطن العليم الذي لا يخفى عليه شيء في السماوات والأرض، قال تعالى: {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرَاكَ وَلَكِنْ نُنْظِرُ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ} 294 عظمة الله الظاهرة لا يمكن أن تدركها الأبصار القاصرة، فالكمال يرى كل شيء ولا يراه شيء، والقصور يراه كل كمال، ولذا فالقاصر لا يصلح حاله فهو في حاجة للكمال الذي يمتلك القوة والقدرة الإصلاحية، سبحانه الله الظاهر في كل حين والباطن في كل شيء صغير أو كبير، فلا تظهر الأشياء إلا به ولا تبطن إلا به سبحانه ما أعظم شأنه.

293 - تفسير البغوي، ج 7، ص 358

294 الأعراف 143.

إنه الباطن بما يستر الخلق حتى أن الكافر ينال هذا الستر للدلالة على أنه باطن يستر خلقه مؤمنهم وكافرهم وطائعهم وعاصيهم إلا من أبي، أي من أبي ورفض أن يستر نفسه كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبِي قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَنْ يَا أَبَى قَالَ مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبِي" 295 فالله باطن ستر خلقه عندما يرتكبون المعاصي ليُفسح لهم المجال في التوبة ويكفر عنهم سيئاتهم، وهو باطن ستر يستر خلقه باللفظ بهم عندما تنزل بهم النوازل ولكنه ينفذ أمرا قضاه بعالم غيبه ويخفف من المصيبة بالستر واللفظ فينجيهم إلا من جرى عليه القلم بالقضاء والقدر، فهو الحكم العدل والقضاء الحق، وما هذا إلا صفة الباطن العليم والعالم الحليم، ومن أخذ من هذه الصفات نصيبه نسبيا إلى المطلق فهو الخليفة لا محالة.

فحقيقة الباطن لا تحوم العقول حول إدراك كنهه، وليس يعرف الله إلا الله وتلك الباطنية سواء في الدنيا أو الآخرة وذلك فإن كونه باطنا بكنهه حقيقة لا ينافي كونه مرثيا في الآخرة من حيث صفاته، وهو الباطن الذي لا يعزب عن علمه شيء من الظاهر أو الخفي كامل العلم بكل شيء جليلة وخفيه وجليله ودقيقه وفي هذا المقام معان أخرى لأن صفات الله تعالى لا ينفصل بعضها عن بعض، وبعضها يفسر بعضها، وعندما نتكلم عن صفة من صفاته جل شأنه لا بد أن نخرج على بعض من الصفات الأخرى لنوضح بها تلك الصفة التي نحن بصدد معرفتها، فإن كان كلام الله يفسر بعضها بعضا، فكذلك صفات الله تفسر بعضها بعضا، وعندما نتكلم عن صفة الباطن إذا هو الأول الذي ابتدأت منه الأسباب بإرادته والآخر الذي تنتهي إليه المسببات بأمره فإذا كانت موجودات الكون المتكونة بعضها من بعض مبدؤها من الله بفعل الكينونة والقوة والقدرة والإرادة، فلا شك أن منتهاها

إلى حيث ابتدأت بالفعل نفسه ومن هنا نستطيع القول أن بعض صفة الباطن تكمن في هذه الصفات، وهذا يعني أن الله تعالت صفاته وتقدست أسماؤه منه ابتدأت الأسباب وإليه تنتهي المسببات هو منزه عن أن تدركه الأبصار وإن صفته الظاهر فهو الغالب على كل شيء والباطن أي العالم بباطن كل شيء و الظاهر من ظهر وغلب والباطن من بطنه إذا علم باطنه، قال تعالى: {لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ أَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَحْلِفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لَتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ مَنْ ذَا الَّذِي يُفْرِضُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ} 296. فقله تعالى: (لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) بناء على هذه الآية الكريمة أتساءل:

من الذي يملك السماوات والأرض.

بطبيعة الحال يملكهما من خلقهما من لا شيء.

ولأن السماوات والأرض ظاهرات للمشاهدة، فهل يمكن أن يكونا لو لم يكن من ورائهما ظاهر أعظم منهما.

ثم جاء في قوله (يحيي ويميت) وهنا ينبغي أن نستوقف قليلا ونتساءل:

هل الحياة والموت ظاهران أم بأطنان، وهل الإحياء والإماتة يشاهدان أم يلحظان.

الحياة والموت ظاهران بالقوة إثباتا، أي أننا نعيشهما ونحن من الشاهدين (مؤمنين أو كفرة) (مهتدين أو ضالين) فالكل يؤمن بذلك إثباتا. ولكن لا الحياة ولا الموت يشاهدان بالرغم من وجودهما وهما في حالة تزايد كل يوم، أي الزيادة في عدد المواليد والزيادة في عدد الأموات. وذلك لأن المشاهدة بالعينين، والعيّن لا يمكن أن تريان الحياة ولا الموت إنهما باطنان، فقط إنهما يريان الحي والميت، ولذا فالفرق كبير بين الحياة التي لا يمكن مشاهدتها والحي الذي يمكن مشاهدته وملامسته حسياً على المستوى الخلقى، وفي ذلك يكون الاستثناء للحي الباقي الذي يرانا ولا نراه فهو الذي لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، مصداقا لقوله تعالى: {ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} 297.

وللإجابة على الجزء الثاني من السؤال: هل الإحياء والإماتة يشاهدان أم يلحظان.

أقول: الإحياء والإماتة لا يشاهدان وذلك لتجردهما من المادة، ولكن لتجسدهما في الشئيين فإن كل منهما يلحظ ولا يشاهد، فالإحياء والإماتة فعلين يحدثان بقوة الفاعل المطلق، الذي يلحظ ولا يشاهد، ولكن بأفعاله يدرك وبآياته يدرك، حتى يتم التبين بالمفعول فيه إحياء أو إماتة.

وعليه مع أنّ الحياة والموت ظاهران إثباتا إلا إنهما لا يشاهدان ولهذا ليس كل ظاهر قابل للمشاهدة ولنا فيما سبق دليل وبرهان بالحجة. قال تعالى: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} 298، فإذا تساءل البعض:

كيف يمكن أن يكون الدين ظاهرا وهو لا يشاهد؟ أقول: أي شيء يشاهد يكون في دائرة البصر بالعينين، ولأنّ الدين لا يُرى بالعينين لأنه دين، والدين عبادة، فالعبادة لا تُرى في دائرة النسبية البشرية، التي فيها يُرى المتعبد ولا تُرى عبادته، ولكن بمشاهدته وهو يتعبد قولاً وسلوكاً تلحظ أفعاله حتى يتم الحكم عليه بأنه مسلم على رسالة موسى أو عيسى عليهما الصلّاة والسلام أو أنّه على الرسالة الخاتمة رسالة محمد عليه الصلّاة والسلام.

وفي حديث أبي هريرة رضى الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أوى إلى فراشه يقول: "اللهم ربّ السموات السبع وربّ العرش العظيم ربّنا وربّ كل شيء منزل التوراة والإنجيل والفرقان فالق الحب والنوى أعوذ بك من شر كل ذي شر أنت آخذ بناصيته أنت الأوّل فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء اقض عني الدين واغنني من الفقر" 299 وفيه دليل على أن الله سبحانه باطن بعلمه قريب من عباده، وهو بهذا الباطن ليس شيء أقرب إلى مخلوقاته منه عزّ وجلّ فليس شيء دونه في القرب والعلم وهو يحول بين المرء وقلبه قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَعَلَّمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} 300 فالذين صدّقوا بالحقّ وأذعنوا له يعلمون أن الله تعالى

298 التوبة 33.

299 - مسند أحمد، ج 18، ص 145

300 - الأنفال 24

قريب منهم رقيب عليهم فهو باطن منهم بعلمه وقربته وقدرته، لذلك جاء الأمر بإجابة الله من القلب لما يأمرهم به، وهذه الإجابة لله سبحانه تكون بالأجساد عبادة، وبالأرواح تعلقا به وبالعقول تأملا في آياته وبالقلوب إذعانا وخضوعا له، ومن هذا نعلم علم اليقين أن الله تعالى قائم على قلوب البشر كونه، يقبلها كيف يشاء فيحول بين الإنسان وقلبه، فإذا أقبل الإنسان على التردّي والهوى، فهو ينقذه من المهالك والفتن، فالله تعالى باطن في آثار قدرته، وباطن فيما يتعلق بحياة البشر وشؤونهم المختلفة، ويعرّف الخلق برّبهم الحقّ الذي عليهم أن يعبدوه، فهو العالم المحيط علمه بكل خلقه، وهو الرزاق الذي لا يترك أحدا من رزقه. وهو الذي يطلعهم على آثار قدرته وحكمته في خلق السماوات والأرض بنظام خاص في أطوار وآماد محكمة تدل على ظهور الله تعالى عليها وأنه باطن بإرادته عليها ماض حكمه الغالب فيها، والباطن العالم ببواطن الأشياء وأنه الغالب الذي يغلب كل شيء ولا يغلب عليه فيتصرف في المكونات على سبيل الغلبة والاستيلاء إذ ليس فوقه أحد يمنعه وليس دونه أحد يفوته، والعالم ببواطن الأشياء فهو الملجأ والمنجى يلتجئ إليه كل ملتجئ لا ملجأ ولا منجى منه دونه، فهو الباطن الذي لا يدرك بالحواس وإنما بالنوايا والاعتقاد والأفكار ممّا لم يعبر عنها بقول أو فعل أو شكل أو صورة أو تشبيه أو تمثيل، ويتبين ذلك من قوله تعالى: {نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ إِنَّا لَمُعْرِمُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكِّرًا وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ فَلَا أُفْسِمُ بِمَوَاقِعِ

النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ} 301 فالله سبحانه يضربّ مثلا بقرّبهِ ولولا قرّبهِ لم يكن باطنا، وكونه باطنا في ابتدائه خلق البشر بعناية إلهية فلا بدّ أن يكون خفيا، وكونه خفيا فهو ظاهر القدرة بإرادة مطلقة، وهذه الإرادة توضح لنا معنى كونه باطنا، فمن الذي يرمى الإنسان مذ كان نطفة ثم يتدرج طوراً بعد طور ثم يكتمل في بطن أمه، فلا بدّ أن يكون هناك راعٍ يرعاه ويتعهده في أطواره هذه حتى يكون في أحسن تقويم إلى أجل مسمى، فالله المحيط بكل شيء هو محيط أيضا بهذه النطفة التي قدر خلقها ورعاها حماية وحنانا وعطفا ورحمة، ومحيط أيضا بمن يحيط بها، ومحيط بالمحيط الذي يحيط بها إلى ما لا نهاية من الإحاطة بكل ما خلق، وهذا الأمر ينسحب على كل شيء من أصغر ما هو مخلوق في هذا الكون من الذرة والنواة والإلكترون والنيوترون، إلى أعظم الكواكب والنجوم والأجرام السماوية، وهذا أوضح دليل فيما نرى من الرأي على أنه باطن في كل شيء و محيط به، ومحفوظ برعايته و مقهور بإرادته وموجود بحكمته جلّ شأنه.

الباطن هو الكامن ما يجعله غير خاضع للملاحظة والمشاهدة والتعرف عليه بشكل مباشر أو غير مباشر. ولذا فالمعلومة الظاهرة تُسهم في تحليل وتفسير ظواهر من بعدها، وهكذا تُحلل المعلومات وفق البيانات المشاهدة، والملاحظة والمحسوسة، سواء كانت سلوكا، أو شكلا، أو كما، أو فعلا؛ والظاهر هو الذي يتم التوقف عنده من اجل التعرف عليه، ومع ذلك ليس كلّ ظاهر واضحا، بل معظم الظواهر تحتاج إلى توضيح، سواء كانت ظواهر طبيعية أو اجتماعية. والتوضيح هو تبيان ذلك الظاهر بما ظهر به عن الباطن، وبما ظهر عنه من أفعال، أو أقوال، أو إنتاج، فالإنسان قيمة كامنة في الإنسان الشكل، وهكذا السلوك تصرف ظاهر من الشكل الذي له كامن.

الباطن يعد مخفياً عن المشاهدة والملاحظة ما يجعله غير بين للمعاملة والتعامل الموضوعي، وهو الذي من وراء ظهوره غاية، ما يجعله قابل للامتداد والحركة ويتجسّد في السلوك والفعل بالنسبة لما يتعلق بالحياة البشرية.

العلاقة بين ما هو باطن وما هو ظاهر كالعلاقة بين النية والفعل، فالنية ساكنة كامنة إلى حين تتوفر معطياتها فتمتد من حيز سكونها إلى الظهور في الفعل والسلوك. ومثل النواة التي فيها تكمن النخلة وعندما تغرس النواة في التربة المناسبة لنموها تظهر النخلة منها للمشاهدة والملاحظة وتنتهي النواة وتصبح هي الأخرى محمولة (كامنة) في النخلة عندما تنمر.

وعليه، فالإنسان كشكل ظاهر يصعب الحكم عليه بأنه خير أو شرير إلا بعد التعرف عليه عن قربّ بالمشاهدة والملاحظة والمشاركة. وكثيراً ما يكون الظاهر نتيجة للكامن، ووسيلة للتعرف عليه. ففي التحليل النفسي يكون الظاهر وسيلة للتعرف على الكامن، ويكون الكامن غاية لإصلاح الظاهر. ولهذا يتم التعرف على الكامن بالظاهر ويتم إصلاح الظاهر بإصلاح الكامن. فالسلوك كظاهر، قد يكون أمام المشاهد سوياً، أو مثلاً أو فيه القدوة، ولكنه في الواقع، قد يكون غير ذلك، فالابن، أو الابنة كثيراً ما يكونا أمام أسرتهما، وخاصة الوالدين، على خلق والتزام وأدب، ولكنهما في حقيقة الأمر قد يكونا غير ذلك من ورائهما، فمن خلفهما قد يقومان بأكبر الانحرافات السلوكية، وعندما يتم إبلاغهما (إبلاغ الأبوين) بأن أحد أبنائهما منحرفاً مع الاتجاهات السلبية، فإنهما قد يفورا رافضين وبغضب هذا الإدعاء، مع أنه الحقيقة، ولذلك الحكم بالظاهر على الظاهر قد لا يؤدي إلى الصواب، والظاهر قد يكون شكلاً وصورة، وقد يكون قولاً أو سلوكاً، ولكل منها خطوات ينبغي أن تراعى في تقصي الحقائق. في العلوم الطبية، والتحليل النفسي، لا يتوقف الطبيب أو الأخصائي النفسي والاجتماعي عند المشاهد والظاهر، إلا باعتباره نقطة الانطلاق لبداية

الدراسة، أو التشخيص، أو العلاج، لأن الحكم على الظاهر بمشاهدته ووصفه، أو تحليله وكأنه غاية في حد ذاته، قد لا يؤدي إلى نتائج علمية، يمكن اعتبارها والاعتماد عليها، والظاهر قد يكون مشاهداً، وقد يكون محسوساً (ملموساً ومدركاً) مثل ارتفاع حرارة المريض، التي بالمس يتم التعرف عليها، وعند قياسها يمكن تحديدها بدقة، ولكن الذي يود أن يعرفه الطبيب، أو الأخصائي النفسي والاجتماعي هو معرفة الأسباب التي تكمن وراءها، وعند مشاهدة الطبيب أو الأخصائي النفسي والاجتماعي إلى مريض مصفر الوجه، هل يتوجهوا هؤلاء الأخصائيون إلى معالجة الاصفار الظاهر. أم إلى البحث عما يكمن وراءه من علل، وأسباب. لذلك يكون الاصفار كظاهر مؤشراً إلى البحث عن كامن، لأن الاصفار مسبب، وبما أنه مسبب، إذن لا بد وأن تكون له أسباب، ومسببين له، ولذلك قد تكون الأسباب هي الأخرى ظاهرة بعد التعرف عليها، كأن يكون سبب الاصفار هو مرض عضوي لا قدر الله في الكبد، أو المرارة وغيرها من المسببات الظاهرة، وقد يكون السبب غير ظاهر، كأن يكون سبب اصفار الوجه هو الخوف من الامتحان، أو من نتائج مترتبة على ارتكاب فعل يعاقب عليه الوالدين والقانون أو المجتمع أو نتيجة مواقف قد تعرضه إلى الهلاك، وهو لم يستطع اتخاذ قراره بحرية حياها، مثل الجندي في جبهة القتال، الذي تصدر له أوامر دخول المعارك، دون أن يكون له رأى، أو حتى وجهة نظر في ذلك.

وعود على بدءٍ للآيات التي وردت، فنحن نحتر ونبذر وهو بذاته يصير زرعاً كلما توفرت له اشتراطات النمو، فنقول نبت الزرع تجوّزاً ونلقني بالفاعلية على الزرع في حد ذاته، وفي الآيات مفارقة عجيبة للمتفكرين والمتأملين كيف أن الله سبحانه ذكر خلق الإنسان وإنبات الزرع ومع هذا فلا نجد أحداً ينسب فعل إنبات الولد إلى المولود نفسه قياساً على إنبات

الزرع، ولو قال قائل إن الله تعالى استعمل هذه الصيغة كثيرا في القرآن الكريم مثل قوله تعالى: {ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ} {302} فأخرج وآزر واستغلظ كل هذه الأفعال فاعلها الزرع، فنقول له هذا من باب إسناد الفعل للمفعول لغير العاقل، وأما مع العاقل فلم ترد هذه الصيغة على الإطلاق، وإنما كانت الصيغة (وهبنا) بإسناد الفعل إلى الفاعل الحقيقي وليس إلى الفاعل مجازا لغير العاقلين، فقد أخبرنا تعالى عن إبراهيم عليه الصلوة والسلام بقوله: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ} {303}، وعن موسى عليه الصلوة والسلام بقوله: {وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا} {304}، وعن زكريا عليه الصلوة والسلام بقوله: {فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ} {305}، وعن داود عليه الصلوة والسلام بقوله: {وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ} {306}، وعن أيوب عليه الصلوة والسلام بقوله: {وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمَثَلُهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ} {307}. فأنت ترى أنه في هذه المواضع جميعها قد أسند الفعل إلى فاعله الحقيقي وهو الباطن جل شأنه واستخدم لفظة فيها من اللطف والوداعة والرقّة والرّحمة والكرم ما لا يخطر على قلب بشر، ومهما اجتهد مجتهد على أن يأتي بلفظة تحل محلها وتؤدي المعنى المقصود لكان من المقصرين، فإنبات الزرع لا بفعلنا ولا بفعل غيرنا ولا بفعل نفسه، ولو قال غير المؤمنين هو ينبت بنفسه (وهو باطل) فما قولهم في سلامته عن الآفات التي تصيبه، فيفسد قبل اشتداد الحب وقبل انعقاده، أو قبل اشتداده وقبل

302 - الفتح 29

303 - الأنعام 84

304 - مريم 53

305 - الأنبياء 90

306 - ص 30

307 - ص 43

ظهور الحب فيه، فهل يحفظونه منها أو يدفعونها عنه، أو هذا الزرع بنفسه يدفع عن نفسه تلك الآفات إن قالوا إنه ينبت لوحده، ولا يشك أحد أن دفع هذه الآفات لا يكون إلا بإذن الله تعالى، وحفظه عنها لا يكون إلا بقدرته. فهو إذا باطن حقيقة ظاهر قدرة، فلا يدرك العقل سر تلك الحقيقة الباطنة إلا من خلال التفكير والتأمل في آيات الخلق وتدبرها، قال تعالى: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} 308 فهي التي تظهر حقيقة وجود باطن تولى شأنها وأكمل خلقها ويدخل في ذلك الزمان والمكان وما بينهما. قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَمُ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} 309 إن البصائر النافذة التي تتأمل فيما أقام الله من الأدلة والبراهين الواضحة على توحيده وكمال قدرته وعلمه وإحاطته بجميع مخلوقاته، تقر دون أدنى شك بما نقول من صفة الباطن عز وجل فقد جاءت هذه الآيات البينات دلائل يتبصر فيها البشر الحجج الكونية والبراهين العقلية، فهي تثبت عقائد الحق اليقينة والباطنية الغيبية التي عليها مدار الدنيا والآخرة، وهذه البراهين والأدلة العقلية واليقينية هي جامعة مانعة تثبت حقيقة كونه باطنا سبحانه لما فيها من الشمول. فهي جامعة من

308 النساء 82.

309 - الأنعام 95 - 99

حيث تحوي الزمان والمكان، وممانعة لعدم وجود غيرهما في الوجود ولا يخرج الخلق عن هذين الحيزين وقد ذكر جميع آياته العظمى في هذا الكون العجيب من أدنى مخلوقاته المتناهية في صغر حجمها مع دقة صنعها، في فلق الحب والنوى وما هو دونه وإخراج الحي من الميت، وإخراج الميت من الحي وهذا ينسحب على الأحياء الدقيقة من البكتريا والجراثيم والميكروبات والفيروسات والخلايا الشعرية وما دون ذلك دقة في الخلق إعجازاً، إلى الشمس والقمر والنجوم والكواكب التي لا يحيط بحجمها عقل، وحتى هذه الأفلاك السيارة إنما تشغل مكاناً هذا الذي نسميه الفضاء فهو حيز مكاني وهذا هو الحيز الأول الذي يشغل المكان، وأما الإصباح والليل وإفراق الشمس والقمر وتخصيصهما بالحسبان فقد شغل الحيز الزماني ولا خلق خارج هذين الحيزين، فهذان الشرطان لوجوب وجود الخلق، وقد تنزه الخالق عن المخلوق، فهو جل شأنه لا مكاناً يحده ولا زماناً يعده.

فهو باطن في آيات خلقه وقدرته، وبطونه بمعنى القرب المجازي ونقصده به الرعاية والعناية الإلهية، ولو لم يكن باطناً كما وصف نفسه تعالى لاختلفت موازن الكون، وهذا معنى أن صفات الله تعالى هي صفات لازمة بالضرورة. إن دلائل القدرة على الخلق والبعث والنشور، متوافرة متنوعة في آيات الله العظام، فهو وحده الذي يشق الحب ويخرج منه النبات، ويشق النوى ويخرج منه الشجر، انه هو الذي يخرج الحي من الميت، كالإنسان من التراب، والميت من الحي، كاللبن من الحيوان، ولقد اقترنت جملة فالفق الحب والنوى بفالفق الإصباح اقترانا يدل على دورة الحياة ووجود الضوء والظلام، حيث أن الضوء مرتبط ارتباطاً وثيقاً بنمو النبات، فالحب والنوى بعد أن يفلق نباتاً إنما يحتاج إلى غذاء وهذا الغذاء يتكون من عناصر الأرض، ومن ضوء الشمس، فجذور النبات تتغذى من الأرض، وأغصانه وأوراقه تتغذى مما يتم امتصاصه من إذا من الأرض ومن حرارة الشمس التي يؤذن بها فلق الإصباح

وهذه تحتاج إلى قدرة، فلا يقدر إلا الحي مطلقاً أن يجهّز الكائن الحي نسبياً بالقدرة على إحالة البذور الميتة إلى خلايا حية، أو تحويل الخلايا الحية مرة أخرى إلى ذرات ميتة وهذا مظهر من مظاهر قدرته ومن مظاهر قربّه ورعايته وعنايته وإحاطته و بطونه جلّ جلاله.

إنّ جميع العلوم لا تستطيع أن تقدم لنا تفسيراً مقنعاً لما يحدث في هذا الوجود من حياة الأحياء دون استثناء، سواء على المستوى الإنساني الذي أقر العلماء بأن جسم الإنسان هو أصغر مختبر من حيث الحجم والتكوين وأعظمها على الإطلاق من حيث الدقة والإنتاج والتنوعية، ذلك أن علم الصيدلة مثلاً يحاول أن يقلد في الصناعات الدوائية ما ينتجه جسم الإنسان من مضادات حيوية تقضي على الجراثيم والبكتريا الضارة دون البكتريا النافعة وهذا ممّا يذهل العقل، وأما بقية الأحياء كالنبات والأحياء الدقيقة والأحياء البحرية، فكلمة وقف العلم على نوع جديد منها يخرج بمصطلح التطور (تطور النبات، وتطور البكتريا، وتطور الجراثيم)، وأما حقيقة الأمر فما هي إلا أنواع اكتشفت مؤخراً أو آخر ما تمّ اكتشافه فيدعونه تطوراً لهذا النوع من الأحياء أو ذلك، وما خطر ببالهم أن الله سبحانه كل يوم هو في شأن، ولو كان ثمة تطور لهذه الأحياء، لكان الإنسان أولى الأحياء بهذا التطور لأنه العاقل الوحيد منها، وإن قال (دارون) بمثل هذا فإن هذه النظرية دُحضت وثبت بطلانها علمياً وتم رفضها إنسانياً كما سبق وأن بينا سابقاً، إذ كيف يقبل إنسان عاقل أن ينتمي إلى فصيلة القروود والخنازير والله خلقه في أحسن تقويم، ولكن الذي نعتقد ونقر به أن تفكير بعض البشر قد ينحط إلى مستوى التفكير القردى والخنزيرى كما هو حال الذين لم يؤمنوا من بني إسرائيل بما جاء به من الأنبياء والمرسلين، الذين جاءوهم بالمعجزات التي طلبوها شريطة لإيمانهم، ثم بعد أن رأوها بأمهات أعينهم كفروا فهؤلاء ومن على شاكلتهم هم قرود وخنازير تشبهاً بأسباب انحطاط تفكيرهم في

أسفل السافلين، قال تعالى: {قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَ مُتُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ} 310 فاختلط الأمر على (دارون) وعلى أتباعه وقالوا كلمة الكفر، وأما القول في هذه المخلوقات الدقيقة الصغيرة المتناهية في الحجم مثل الذرة وأجزائها والتي تتكون منها جميع المواد، فلا نستطيع أن نفسر حركتها بأنها حركة تلقائية ذاتية، فإذا كانت الشمس تجري لمستقر لها وهو تعبير بالجزء عن الكل أي أن الشمس هي واحد من هذه الكواكب السابحة في الفضاء وهي تتكون من كتل عظيمة وكل كتلة تتكون من أجزاء إلى أن تصغر في حجمها إلى الذرة فما دون ذلك ومن ثمَّ حدوث هذه الانفجارات الشمسية بفعل هذه الأجزاء الدقيقة التي لا تكاد تُرى حتى بالمجهر وتمتلك هذه القوَّة الهائلة وهي تتحرك ضمن أفلاك ومدارات لها عملها الدقيق في مكانها المحدد والوقت المعروف الذي يؤذن لها فيه أن تتحول إلى طاقة حفاظا على حرارة الشمس الثابتة وهي ستة آلاف درجة مئوية لا تزيد ولا تنقص منذ أن خلقها الله، فإذا انفجرت هذه الدَّرات وتحوّلت إلى طاقة من الحرارة والضوء فما الذي يحل محلها ومن أين يأتي لاستمرار حياة الشمس إن جاز لنا التعبير، والذي نذهب إليه ونعتقدُه لا بالتجربة ولا بالبرهان، وإنما بالقياس على أنواع الحياة الأخرى للمخلوقات أن هذه الدَّرات تنمو وتتكاثر كما تنمو البكتريا بأعداد مذهلة وبوقت سريع مع تغير الصفات الفيزيائية لتلك الحياة بما يناسب جوهرها، وخواصها الفيزيائية وطبيعة الخلق والتكوين تجعلها تعيش وتنمو وتتكاثر في هذه البيئة الطبيعية بالنسبة لها، لتؤدي العمل الذي وجدت من أجله، وربما يقول قائل: كيف يستقيم هذا لعاقل. فنقول إنما أبواب الحكم في الشريعة أربعة، الكتاب والسنة والإجماع والقياس، ويكفي واحد منها

لإصدار الحكم إذا قام الدليل، فأنواع الحياة للأحياء المختلفة الأنواع المعروفة لنا، واختلافها بالصفات الفيزيائية قائم، وإلى حد ما بالصفات الكيميائية كالإنسان والنبات والأسماك وبعض الزواحف على الأقل في عملية التنفس، فإن قال هذه أحياء فالإجابة تأتي من قوله تعالى: {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} 311 فالذي يسبح لا بد أنه حي ولكن ليس بالضرورة أن تكون حياة كالحياة التي نألفها، ومع أنها تسبح ظاهرا بالنسبة لخالقها، إلا أن تسبيحها بالنسبة للمخلوق باطن حيث لا ظاهر منها مشاهد أو ملاحظ، وقوله تعالى (وإن من شيء) فمن في اللغة تشمل العاقل وغير العقل، وعلى هذا نعتقد صحة ما نقول نظريا بالقياس إلى أن يأتي الوقت الذي تتوفر فيه الوسائل والأدوات المادية لإثبات ذلك بالتجربة العلمية. أما الاعتماد على فكرة المصادفة في هذا المجال فهي لا تكفي لأن تقوم دليلا على سر الحياة، فكيف تتجمع هذه الدقائق الصغيرة لكي تكون الحياة. فمما لا شك فيه أن النظرية التي تدعي أن جميع صور الحياة الراقية قد وصلت إلى حالتها الراهنة من الرقي، بسبب حدوث بعض الطفرات العشوائية والتجمعات أو الصدف، فهي نظرية لا يمكن الأخذ بها، لأنها لا تقوم على أساس من منطق يقنع العقل، ولكن الذي نقول به أن الله سبحانه وتعالى باطن القدرة والإرادة والمشئمة، نتحقق من صفاته بتدبير خلقه وكل مسخر لما خلق له، وهذه المخلوقات تثبت أن الله حق ظاهر، فهو ظاهر بحسب النظر إلى وجود الحق، وهو باطن بحسب النظر إلى وجود الخلق، فظاهر الحق باطن الخلق وباطن الخلق ظاهر الحق، ومهما تضاءلت الأمثلة التي نضربها من المخلوقات الهينة البسيطة التي لا تكاد تقع العين عليها إتما لضعفها أو لصغر حجمها للدلالة على كون الله باطن في هذه

الآيات من الخلق فإننا لا ننظر إلى أنفسها وأشكالها ومناظرها ومحملها ولا إلى أقدارها وقيمها ولا إلى وقعها في نفوس وعقول الناس، وإنما ننظر لما وضع الله عزّ وجلّ فيها من دقة الخلق وقدرة التكوين للدلالة على أنه باطن، وعلى إتقان صنعه، وعلى عجب تدييره، وعلى لطيف حكمته، وفيما استخزنها من عجائب المعارف، وأودعها من غوامض الإحساس، وسخر لها من عظام المنافع والمرافق، ودل بها على أن الذي ألبسها ذلك التدبير، وأودعها تلك الحكم، التي يجب أن نفكر فيها؛ ونعتبر بها إنما هو الباري المصور الذي برءها وصورها وكونها، فإذا نظرنا إلى هذه العجائب التي تتجلى في الخلق علمنا أن الله عزّ وجلّ عندها وفيها ومعها وفوقها ومحيط بها خارج المادة والزمان والمكان، فقد غشي ظاهرها بالبرهان، وعم باطنها بالحكمة، وشوّق للنظر فيها والاعتبار بها؛ ليعلم كل ذي عقل أنه لم يخلق الخلق سدى؛ ولم يترك الصور هملا؛ وليعلموا أن الله عزّ وجلّ لم يدع شيئا غفلا غير موسوم، ونثرا غير منظوم، وسدى غير محفوظ؛ وأنه لا يخطئه من عجب تدييره، ولا يعطله من جمال تدييره، ولا من زينة الحكمة وجلال قدرة البرهان، ثم كان هذا الإعجاز متساويا بين كبيرها وصغيرها وجليلها ودقيقها وعظيمها وهينها من البعوضة فما دونها إلى الكواكب فما فوقها وهو دليل على أنه باطن بقدرته يتجلى في آياته ومخلوقاته التي نعلمها ومخلوقات لا نعلمها فهو سبحانه يخلق ما لا نعلم {يَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} 312. وهنا يتجه الكلام إلى وجوه مختلفة للدلالة على قدرته تعالى بأنه باطن، أحدها أن تكون هناك ضروب من الخلق لا يعلم مكانها كثير من الناس، ولا بد أن يعرف ذلك الخلق معنى نفسه ومعنى وجوده ولماذا خلق، أو يعلمه صفوة جنود الله وملائكته، أو تعرفه الأنبياء، أو يعرفه بعض الناس لتخصصهم في مجال معين، وقد يكون الله عزّ وجلّ إنما عنى بذلك أنه خلق أسبابا، ووهب

عللا، وجعل ذلك رافدا لما يظهر لنا من نظام الخلق العجيب وكل ما نسوق
 من أدلة سواء أكانت من النصوص أم من الاستنتاج أم التحليل فكلها تدلّ
 أن الله باطن في جميع صفاته، ومن حكمته أنه باطن ولولا كونه باطنا
 فكيف نفهم أن الله تعالى واحد لا شريك له و فرد لا مثل له و صمد لا ندّ
 له وأزلي قائم، أبدي دائم، لا أوّل لوجوده، ولا آخر لابدّيته، قيوم لا يفنيه
 الابدّ، ولا يغيره الأمد، بل هو الأوّل والآخر، والظاهر والباطن، منزّه عن
 الجسميّة ليس كمثله شيء، وهو فوق كل شيء، وفوقيته لا تزيده بعدا عن
 عباده، وهو أقرب إلى العبيد من حبل الوريد، وهو على كل شيء شهيد،
 وهو معنا أينما كنا، لا يشابه قرّب الأجسام، كما لا يشابه ذاته ذوات
 الأجرام، منزّه عن أن يحده زمان، مقدس عن أن يحيط به مكان، حي قادر
 جبار قاهر لا يعتريه عجز ولا قصور، ولا تأخذه سنة ولا نوم، له الملكوت
 والعزّة والجبروت خلق الخلق وأعمالهم، وقدر أرزاقهم وآجالهم، لا تحصى
 مقدوراته، ولا تتناهى معلوماته، عالم بكل شيء، لا يعزب عنه مثقال ذرة في
 الأرض ولا في السموات، يعلم السر وأخفى، ويطلع على هواجس الضمائر
 وخفيات السرائر، مرید للكائنات، و مدبر للحوادث، لا يجري في ملكه
 قليل ولا كثير، ولا جليل ولا حقير، من خير أو شر ونفع أو ضرر، إلا
 بقضائه وقدره وحكمه ومشيتته، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فهو
 المبدئ المعيد الفعّال لما يريد، لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه، ولا مهرب
 لعبد عن معصيته إلا بتوفيقه ورحمته، ولا قوّة له على طاعته إلا بمحبته
 وإرادته. لو اجتمع الإنس والجن والملائكة والشياطين على أن يحركوا في العالم
 ذرة أو يسكنوها دون إرادته لعجزوا، ولو اجتمعوا لصنع ذبابة لفشلوا
 مصداقا لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ
 تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ
 شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ
 اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمَنْ النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ

بَصِيرٌ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ} 313 سبحانه إنه هو السميع البصير المتكلم بكلام لا يشبه كلام خلقه، وكل ما سواه سبحانه وتعالى، فهو حادث أوجده بقدرته، وما من حركة ولا سكن إلا وله في ذلك حكمة دالة على صفة من صفاته وقد تضمنتها صفة الباطن حكمة وإرادة ومشئئة وقدرة، قال تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا} 314، وهذا التقدير الذي قدره الله تعالى في هذا الكون الذي هو باطن ظاهر فيه، قدر أيضا للإنسان عقلا يدرك هذا التقدير، والعقل جوهر مضيء في ذات الإنسان خلقه الله عز وجل في الدماغ، وجعل نوره في القلب يدرك به المعلومات بالوسائط والمحسوسات بالمشاهدة. وهذا العقل ينقسم إلى قسمين:

قسم لا يقبل الزيادة والنقصان، وقسم يقبلهما.

فأما الأول: فهو العقل الغريزي المشترك بين العقلاء.

وأما الثاني: فهو العقل التجريبي وهو مكتسب، وبعبارة أخرى هو ما يتمثل بالذكاء الفطري والذكاء المكتسب، فالذكاء الفطري أو العقل الفطري يكاد يكون متساويا لدى جميع العقلاء إلا ما ندر كالأنبياء المكلفين ومن دونهم الذين يمثلون أعلى درجات العبقرية ومن هؤلاء يكون الخليفة الذي يدرك بواطن الأمور وخفاياها ومكامنها التي غابت عن أمثاله من الخلق، وبهذا يكون قد اتصف بصفة الباطن النسبية، وأما الذكاء المكتسب فهو الذي تحصل زيادته بكثرة التجارب والوقائع والخبرة، وباعتبار هذه الحالة فإن الإنسان الطاعن في السن يكون أكمل عقلا وأتم دراية ولهذا نقول أصبح

313 الحج 73 - 76.

314 - الفرقان 1-2

فلان شيخنا، لأن صاحب التجارب أكثر فهما وأرجح معرفة بتجاربه وتعلمه من ميادين الحياة، ولهذا قيل: من بيضت الحوادث سواد لمته، وأبلى التجارب لباس جدته، وأراه الله تعالى بكثرة ممارسته، تصاريف أقداره وأفضيته كان جديرا برزانه العقل ورجاحة الدراية. وقد يخص الله تعالى بألطافه الخفية من يشاء من عباده، فيفيض عليه من خزائن مواهبه رزانه عقل وزيادة معرفة تخرجه عن حد الاكتساب ويصير بها راجحا على ذوي التجارب والآداب، وبهذا يكون بالنسبة لغيره عليم ببواطن الأمور أو توقع ما يمكن أن يحدث في قضية معينة قبل حدوثها، ووفق هذه الصفات الباطنة يختار الله سبحانه وتعالى خليفته في الأرض، فتدركه من الله عناية، ويحفه رعاية، فمن سبقت له سابقة من الله تعالى في قسم السعادة أشرفت على باطنه أنوار ملكوتية وهداية ربانية، فاتصف بالذكاء والفتنة قلبه، وأسفر عن وجه الإصابة ظنه، وإن كان حديث السن قليل التجربة، فما بالك عندما يكون مكتمل العقل والسن والتجربة، ثم يمنحه الله تعالى هذه الصفات فلا شك أنه هو خليفة الله في أرضه، وإليه أوكل إعمار الأرض وإقامة العدل وإحقاق الحق وجميع ما أمر الله به من خير، فالخليفة يدرك ذلك بباطنه ويعلم أنه مكلف مأمور.

إنّ كل ما يجري في العالم من حركة وسكون وخير وشر ونفع وضر وإيمان وكفر وطاعة ومعصية، فكله بقضاء الله وقدره وقربه وإحاطته وظهوره وبطونه، فلا طائر يطير بجناحيه ولا حيوان يدب على بطنه ورجليه، ولا تطن بعوضة ولا تسقط من ورقة إلا وهو يعلمها، وهي بقضائه وقدره وإرادته ومشيتته، كما لا يجري شيء من ذلك إلا وقد سبق علمه به. و أن كل ما قضاه الله تعالى وقدره، فهو كائن لا محالة، كما أن ما في علم الله تعالى يكون فهو كائن قريب، وما قدر الله من خير لأحد فلا يحصل إلا بسبب، وهذا السبب إمّا أن يكون عن طريق الدعاء، وإمّا أن يسخر الله تعالى أحدا

من خلقه يجعله سببا في هذا الخير بما كان في قدر الله وقضائه، وهذا واضح جلي في أنّ الله تعالى قريب من أنبيائه وأوليائه وخلفائه خاصة، ومن عباده عامة فعندما، نقف على قصة مريم ورعايتها لها وإحاطته بها، يدل على أنه باطن، فقد أمرها أن تأخذ بالأسباب فقال تعالى: {فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبِّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا} {315}، لقد ذهبت بحملها إلى مكان بعيد عن الناس لأنه المكان الذي أمرت أن تذهب إليه ويوجد فيه النخل وهو المكان الشرقي البعيد وكان مأهولا من بعض المتعبدين، فأجأها ألم الولادة والطلق إلى جذع النخلة لتستند إليه وتستتر به، وتمنت لو أنها كانت ماتت قبل هذا الوقت الذي لقيت فيه ما لقيت، حياء من الناس وخوفا من لومهم، وكان شيئا منسيا، لان الناس لا يعرفون الحقائق ولا يعذرون فنادها عيسى عليه الصلاة والسلام من تحتها، حيث انطقه الله، لا تحزني بالوحدة وعدم الطعام والشراب ومن الألم، ومما يقوله الناس، فقد جعل ربك تحتك إنسانا شريفا رفيع القدر والشأن وهزي النخلة يتساقط عليك الرطب الطيب، والرطب فيه الغذاء الكافي الذي لا يحتاج الإنسان معه إلى أي مادة غذائية أخرى لاستمرار حياته حيث يحتوي الرطب على جميع العناصر الغذائية التي يتطلبها الجسم من السكريات والنشويات والبروتين والحديد والكلس والفيتامينات وكل مغذي مفيد ونافع، وهذا لا يجتمع في أي ثمرة على الإطلاق لذلك يعيش عليه خلق كثير فكلني من ذلك الرطب، واشري من الماء عندك وطيب نفسي، فان رأيت أحدا من البشر ينكر عليك أمرك، فأفهميه بأنك نذرت لله الصوم عن الكلام وأنت لا تكلمين اليوم أحدا، ومن هذا نتيقن أننا عندما نرى الظاهر فإننا نستدل عليه بالباطن، فهذا البطون في جانب الخير، غير أن الله سبحانه سبب الأسباب وأمر بالأخذ

بها حتى لا يعتمد الخلق إلى التواكل، والتواكل غير التوكل الذي أمرنا به، وأما نقيض الخير الذي يصيب الناس فيما كسبت أيديهم، فما كان من مصيبة تصيب أحدا إلا بعلم الله وقضائه وقدره، فهو باطن في علمه بما قدره على العباد، {أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلُّ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا} 316 ما أصابك من خير ونعمة فمن الله تفضلا منه فان كل ما يفعله الإنسان من الطاعة لا يكافئ نعمة الوجود فكيف يقتضى غيره، وما أصابك من بلية وشيء تكرهه فمن نفسك لأنها السبب فيها لاستجلابها المعاصي وهو لا ينافي قوله تعالى: (كل من عند الله) فان الكل منه إيجادا وإيصالا غير أن الحسنة إحسان وامتنان والسيئة مجازاة وانتقام وما من مسلم يصيبه أذى أو مكروه إلا بذنب اقترفه، فيكون ذلك كفارة عن ذنبه وما يغفر الله أكثر، وأما ما يصدر من الإنسان من عمل فهو مخير فيه إذ لا علاقة للخالق بما تجني يد المخلوقين، وأما الذين يقولون هو قضاء الله وقدره على هذا الإنسان أو ذاك بأن يفعل ويعمل من الخير أو الشر ما كتبه الله له أو عليه، فنقول إن القضاء والقدر هو علم الله المسبق لما سيحدث قبل حدوثه فهو بعلمه الباطن قضاءه وقدره، وهو من عمل الإنسان بإرادته ذلك أن مراتب الأعمال أربع مراتب: مرتبتان منها لله تعالى وليس للعبد فيهما مدخل وهما التقدير والخلق، ومرتبتان منها للعبد هما الكسب والفعل، فان الله تعالى منزه عن الكسب وفعل السيئة فهما يتعلقان بالعبد ولكن العبد وكسبه مخلوق خلقه الله تعالى كما قال: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} 317 أي خلقا وتقديرا لا كسبا وفعلًا، لذلك فإن بين الخليفة

316 - النساء 78-79

317 - الصفات 96

وبين غيره من الناس بون شاسع وفرق كبير في إدراك التمييز بين الفعل والخلق، فالله تعالى هو الذي يخلق الأفعال ولكن الإنسان هو الذي يفعل الفعل، فالخير والشر موجودان مخلوقان، والإنسان بعقله يختار بإرادته ووعيه هذا أو ذاك، غير أن الخليفة كونه مكلفا فبالضرورة أنه أعطي من الله حكمة وفضيلة وعلمًا وبلغ إلى ما لم يبلغه غيره وهذا هو حقّ اليقين الذي يظهر من علامات الخليفة فقد أدرك ذلك بمشاهدة من الباطن التي هي أقوى وأجلى من مشاهدة الأبصار وترقى فيها عن حد التقليد لمجرد السماع، وحاله حال من أخبر فصدق ثم شاهد فحقّق وحال غيره حال من قبل بحسن التصديق والإيمان ولم يحظ بالمشاهدة إلا بعد أن ظهر له البرهان.

فالنسبة للخليفة يكون علم الباطن بمثابة علم المكاشفة وعلم المكاشفة وراء علم المعاملة التي هي سلوك طريق الآخرة وقطع عقبات الصفات. وسلوك طريق محو الصفات المذمومة وراء علم الصفات وعلم طريق المعالجة وكيفية السلوك في ذلك هو سياسة الرعية وسلامة الحكم بالاجتماع والتظاهر والتعاون الذي يتوصل به إلى الملبس والمطعم والمسكن وهو منوط بالخليفة وقانونه في ضبط الناس على منهج العدل والسياسة في ناصية الحق. وهذا بفضل ما أوتي من العلم الباطن والعلم الذي يحمله الخليفة علمان:

1. علم الدنيا: هو من العلوم الظاهرة الشائعة.

2. وعلم الآخرة: هو من العلوم الباطنة لأن الساعي إلى الله تعالى لينال قربه يترفع عما هو عليه بقية الناس، لأنه أوتي علما باطنيا هو من أسرار الله عزّ وجلّ لا يدركه الحس ولطيفة من لطائفه تارة يعبر عنه بالروح وتارة بالنفس المطمئنة، والشرع يعبر عنه بالقلب لأنه المطية الأولى لذلك السر وبواسطته ملك الخليفة تلك اللطيفة، وكشف الغطاء عن ذلك السر من علم المكاشفة وهو مضمون به بل لا رخصة في ذكره، وغاية المأذون فيه أن يقال هو جوهر نفيس ودر عزيز اشرف من هذه الأجرام المرئية وإنما هو أمر إلهي،

ومع أنّ كل المخلوقات منسوبة إلى الله تعالى ولكن نسبته أشرف من نسبة سائر المخلوقات لحمله الأمانة وتأديتها على الوجه الذي أمر به الله تعالى، والخلق والأمر جميعاً من الله، والأمر أعلى من الخلق، وطالما أن تأدية الأمانة أمر من الله فهي أعلى رتبة من الخلق، والذي يحمل هذا الأمر إنما هو جوهرة نفيسة حاملة لأمانة الله تعالى المتقدمة بهذه الرتبة على السموات والأرضين والجبال إذ أبين أن يحملها وأشفقن منها من عالم الأمر، قال تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا} 318 فالخليفة أكثر ما يكون اهتمامه بعلم الباطن ومراقبة القلب ومعرفة طريق الآخرة وسلوكه وصدق الرجاء في انكشاف ذلك من المجاهدة والمراقبة فإن المجاهدة تفضي إلى المشاهدة، ودقائق علوم القلب تنفجر بها ينابيع الحكمة من القلب، وأما الكتب والتعليم فلا تفي بذلك بل الحكمة الخارجة عن الحصر والعد إنما تتفتح بالمجاهدة والمراقبة ومباشرة الأعمال الظاهرة والباطنة والجلوس مع الله عزّ وجلّ في الخلوة مع حضور القلب بصافي الفكرة والانقطاع إلى الله تعالى عما سواه فذلك مفتاح الإلهام ومنبع الكشف، فكم من متعلم طال تعلمه ولم يقدر على مجاوزة ما سمع بكلمة غير أن الخليفة القائم بأمر الله نفسه وعقله وقلبه يفتح الله له من لطائف الحكمة ما تحار فيه عقول ذوي الأبواب، وذلك أن له صدر منشرح وقلب منفتح مدرك ولولا إدراك قلبه للنور الباطن لما حكم على علم الظاهر فكم من معان دقيقة من أسرار القرآن تخطر على قلب المتجردين للذكر والفكر وأن ذلك من تنبيهات القلوب الزكية والطف الله تعالى بالهمم العالية المتوجهة إليه، فقد أدركوا كون الله باطنا في كل شيء من خلال آيات الخلق التي تدل عليها هذه الصفات، فالله تعالى دل بوجود آثاره على وجود أسمائه وبوجود أسمائه

على ثبوت أوصافه وبوجود أوصافه على وجود ذاته إذ محال أن يقوم الوصف بنفسه، فوجود الأثر يدل على وجود الباطن والظاهر والقادر والمريد والعليم والحق، فالقادر يدل على قيام القدرة والمريد يدل على مشيئة القدرة وإرادتها والعليم يدل على معرفة منتهى القدرة والمشئمة، والحق يدل على عدالة هذه الصفات والظاهر يدل على ظهورها والباطن يدل وجوده وإحاطته بما بحيث لا تفارقه إذ محال أن يقوم الوصف بنفسه فلزم من وجود الأثر وجود المؤثر وثبت من وجود الأثر وجود الأسماء والصفات والذين أدركوا حقيقة صفات الله وتمثلوها من الأنبياء والأولياء والخلفاء فقد فتح الله عين بصيرتهم وأطلعهم على مكنون سره فأفردوا الحق بالوجود وتجلى أمام بصيرتهم كل موجود برؤية الله من خلال صفاته وأثر تلك الصفات في مخلوقاته، إذ محال أن تفارق الصفة موصوفها أو تقوم بنفسها فلزم من وجود الصفات وجود الذات وهذا هو سر الخصوصية الذي خص الله بها أنبياءه وأوليائه وخلفاءه ولم يشاركهم في ذلك غيرهم.

قال تعالى: {وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} 319. الفاحشة هي نتاج ارتكاب الأعمال المحرمة والمنهي عنها، والظاهر منها هو الظاهر من القول والفعل والباطن منها ما تكنه الصدور حيا لها وهو باطن في غير محله، ولذا كل ظاهر وكل باطن في غير محله هو محرم أو منهي عنه ولهذا قال ولا تقربوا: {وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} 320.

وأما الباطن فهو المدرك للأمر قبل وقوعه فمن حقيقة هذه الصفة كامنة في كل حركة وسكون إي أنها القوة التي تحرك الممتد والقوة الموقفة له، ولذا

319 الأنعام 151.

320 الأعراف 33.

فهو جلّ جلاله هو الظاهر في السلوك والعمل وهو الباطن من وراء كل سلوك وكل عمل، ولأنه الباطن فهو يعلم ما في أنفسنا وما تكنه الصدور.

ومّا تقدم نستطيع القول أن معنى الباطن أيضا هو علم السرائر والخفايا وهو المحتجب عن أبصار الخلائق وأوهامهم، فلا يدركه البصر ولا يحيط به وهم فهو العالم بكل ما بطن، واختفى بعد ظهوره في كل شيء من آيات خلقه، فهو مبدأ الأشياء وإليه تنهي فهو باطن القدرة فيها، فنحن نقف على وجود مخلوقات دائمة الحركة من قوّة الرياح وسيورها وشدة سرعتها أو بطئها وحركة الأمواج في البحار والمحيطات وهذه الكواكب السيارة وجميع هذه المخلوقات ذات قوّة باطنة ندرك من خلالها صفة الباطن، أو المحرك الأول إذا استخدمنا المصطلح الفلسفي، ولكننا نقول بالمحرك الخالق الذي هو باطن بهذه القدرة، وهو باطن علما بكل شيء، وظاهر بصفة القدرة على كل شيء، إذا فهو باطن ظاهر، باطن العلم ببواطن الأشياء، وظاهر عليها قدرة ومشية، فله تلتجئ وإليه تنتهي بما خلق وقدر.

فإن قال قائل كيف يكون ظاهرا وباطنا في آنٍ معا، فأول حجة نسوقها من الأدلة على أنه ظاهر باطن هو وجود الروح التي لا ينكرها أحد ولا يدرك وجودها أحد قال تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} 321 فالروح أعظم من تدركها العقول مع الإقرار بوجودها وهو دليل على أن الذات الإلهية أعظم من تدرك بالحواس، وإلا هل هناك من يرى الروح بأَم عينيه حتى يقول نقول إنها ظاهرة وقابلة للمشاهدة. وأعلم إن الكل (مسلم وكافر ومن هو بدون هوية) جميعهم يعلمون بالروح ولكنهم لا يعلمون أمرها، وذلك لأن أمرها باطن. فإن كان آية من آيات خلق الله تعالى لا تدرك بالحواس، فإن جميع صفات الذات الإلهية أعظم وأجل من أن تدرك بهذه الحواس، وإنما تدرك بآثار تلك

الصفات، وهذا يعني أنه تعالى ظاهر بأدلة الخفاء الباطنة التي تدرك بذات الحواس، وهذه الأدلة هي آياته في مخلوقاته، فإن قال لماذا. فنقول لأن كنهه وحقيقة الخالق لا تتساوى مع مادة وجوهر المخلوقين، فكيف يستويان مثلا لعقل، فهو باطن بدلائل قدرته في إيجاد الدليل (الخلق).

ومن صفة العلم أنه باطن يؤتبه الله لمن اصطفاهم من الأنبياء والأولياء والخلفاء وهو سر من أسرار الله تعالى يقذفه في قلوب من ألقى عليهم محبته ولم يطلع عليه ملكا ولا بشرا، ولأن العلم في معظمه باطن قال تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} 322 إي لم يكن منه إلا قليل ظاهر، ولكن هذا القليل دائما في حالة ازدياد وفقا لقدرات الإنسان العقلية المحدودة، ومع أنه في حالة ازدياد إلا انه دائما سيكون قليلا إذا ما قورنا بالعلم الكامل الذي لا يعلمه إلا العليم الحكيم. وهكذا أمر الروح باطن أي لم يكن ظاهرا وذلك لانعدام خروجه عن أمر الله عز وجل، (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي) ولأنها بأمر ربّي فهي باطنة في علمه لا يظهرها إلا هو ولا يعلم أمرها إلا هو سبحانه إنه على كل شيء قدير.

ولهذا ليس بالضرورة أن من ملك ملكا من الدنيا أن يكون له علم من الباطن، ذلك أن علم الباطن هو هبة من الله تعالى وإلهاما منه للخليفة وافرقت كبير بين الملك وبين الخليفة حيث نقف على ذلك في قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ هُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَيكُمْ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُنْتُ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ

بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتِ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} 323 أراد هؤلاء القوم من بني إسرائيل أن يكون لهم حاكما يجمع شملهم بعد تفرق ويقودهم تحت لوائه إعلاء لكمة الله واسترداد لعزتهم، ولما كان داوود عليه الصلوة والسلام في شك من صدق ادعائهم بما أوتي من علم الباطن سألهم ليستوثق من جدتهم في الأمر ألن تجبنوا عن القتال إذا فرض عليكم، فأذكروا أن يقع ذلك منهم قائلين كيف لا نقاتل لاسترداد حقوقنا وقد طردنا العدو من أوطاننا، فلما أجاب الله رغبتهم وفرض عليهم القتال أحجموا إلا جماعة قليلة منهم، وكان إحجامهم ظلما لأنفسهم ولنبيهم ولدينهم، والله يعلم ذلك منهم، فقال لهم عليه الصلوة والسلام: إن الله استجاب لكم فاختر طالوت حاكما عليكم. فاعترض كبارؤهم على اختيار الله قائلين كيف يكون ملكا علينا ونحن أولى منه، لأنه ليس بذي نسب ولا مال، فرد عليهم نبيهم، إن الله اختاره حاكما عليكم لتوافر صفات القيادة فيه، وهي سعة الخبرة بشؤون الحرب، وسياسة الحكم مع قوة الجسم، والسلطان بيد الله يعطيه من يشاء من عباده ولا يعتمد على وراثة أو مال، فبعلم الله الباطن الشامل، اختار ما فيه مصالحكم، وهذا هو الإلهام والعلم الباطن الذي انكشف له في قلبه بهذا النوع من العلم، لا من جهة المحسوسات الخارجية، وإنما هو العلم الباطن الرباني الذي يأتي إلهاما للمتقين، وقد صرح القرآن بأن التقوى مفتاح الهداية والكشف وذلك علم من غير تعلم، وخص الله به خلق دون خلق فقال تعالى: {هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ} 324 فليس العالم الذي يحفظ من كتاب فإذا نسي ما

323 - البقرة 246-248

324 - آل عمران 138

حفظه صار جاهلا، إنما العالم الذي يأخذ علمه من ربه أي وقت شاء بلا حفظ ولا درس، وهذا هو العلم الرباني وإليه أشار بقوله تعالى: {فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا} {325}، ومع أن كل علم من لدنه ولكن بعضها بوسائط تعليم الخلق فلا يسمى ذلك علما لدنيا بل العلم اللدني أو علم الباطن هو الذي يفتح في سر القلب من غير سبب مألوف، غير أن قلب هؤلاء ممن ذكرنا والذين هم أهل للخلافة مثال مرآة منصوبة تجتاز عليها أصناف الصور المختلفة فتتراءى فيها صورة بعد صورة ولا تحيد عنها، أو مثال حوض تنصب فيه مياه مختلفة من أنهار مفتوحة إليه بما أوتوا من العلم الموقوف عليهم وحدهم دون غيرهم، وبهذا امتازوا عن باقي الخلق بذكاء القلب وسرعة البديهة ورجاحة العقل وإصابة الرأي والحزم في الأمور، وأما غير هؤلاء ممن لا تتوافر فيه صفات الخليفة فإنما مداخل هذه الآثار المتجددة في قلوبهم فمختلفة تماما، إما من الظاهر حيث الحواس الخمس، وإما من الباطن فالخيال والشهوة والغضب والأخلاق المركبة من المزاج الإنساني؛ فإنه إذا أدرك بالحواس شيئا حصل منه أثر في القلب، وكذلك إذا هاجت الشهوة مثلا بسبب كثرة الأكل وبسبب قوة في المزاج حصل منها في القلب أثر وإن كف عن الإحساس فالخيالات الحاصلة في النفس تبقى وينتقل الخيال من شيء إلى شيء، وبحسب انتقال الخيال ينتقل القلب من حال إلى حال آخر. والمقصود أن القلب في التغير والتأثر دائما خاضع لهذه الأسباب، وأخص الآثار الحاصلة في القلب هي الخواطر؛ ونعني بالخواطر ما يحصل فيه من الأفكار، والأذكار وما ينتج عنها من إدراكات علوم إما على سبيل التجدد وإما على سبيل التذكر فإنها تسمى خواطر من حيث أنها تخطر بعد أن كان القلب غافلا عنها، والخواطر هي المحركات للإرادات فإنّ النية والعزم والإرادة إنما تكون بعد أن خطر بنية الفعل بالبال

لا محالة، فمبدأ الأفعال الخواطر، ثم الخاطر يحرك الرغبة، والرغبة تحرك العزم، والعزم يحرك النية، والنية تحرك الأعضاء. والخواطر المحركة للرغبة تنقسم إلى ما يدعو إلى الشر أي ما يضر في العاقبة، وإلى ما يدعو إلى ما ينفع في الدار الآخرة، فهما خاطران مختلفان فافترقا إلى اسمين مختلفين، فالخاطر المحمود يسمى إلهاما، والخواطر المذموم الداعي إلى الشر يسمى وسواسا، ثم إننا نعلم أن هذه الخواطر حادثة، ثم إن كل حادث فلا بد له من محدث، ومهما اختلفت الحوادث دل ذلك على اختلاف الأسباب، وهذا ما عرف من سنة الله تعالى في ترتيب المسببات على الأسباب.

وكذلك لأنوار القلب وظلمته سببان مختلفان: فسبب الخاطر الداعي إلى الخير يسمى ملكا، وسبب الخاطر الداعي إلى الشر يسمى شيطانا واللطيف الذي يتهياً به القلب لقبول إلهام الخير يسمى توفيقا والذي به يتهياً لقبول وسواس الشيطان يسمى إغواء وخذلانا، فإن المعاني المختلفة تفتقر إلى أسامي مختلفة، فالخليفة هو خلق خلقه الله تعالى وأسدى عليه من النعم والخير الظاهر والباطن ما لم يؤته لغيره من الخلق، لذلك فهو مكلف بإفاضة الخير وإفادة العلم وكشف الحق والوعد بالخير والأمر بالمعروف، وقد خلقه وسخره لذلك، وأما الشيطان عبارة عن خلق شأنه ضد ذلك وهو الوعد بالشر والأمر بالفحشاء؛ والتخويف عند الهمم بالخير بالفقر، فالوسوسة في مقابلة الإلهام، والشيطان في مقابلة الملك، والتوفيق في مقابلة الخذلان أشار تعالى بقوله: {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} 326. إن الموجودات كلها متقابلة مزدوجة إلا الله تعالى فإنه واحد احد لا مقابل له بل هو الواحد الحق الخالق للأزواج كلها، وهذا ليس مقصورا على الذكر والأنثى وإنما كل شيء وضده أو نقيضه أو ما يقابله، فالإيمان والكفر والتقوى والمعصية والخير والشر والإصلاح والإفساد وما إلى ذلك من الأزواج

التي خلقها الله تعالى من كل شيء خلق صنفين مزدوجين ونوعين مختلفين كالذكر والأنثى والسماء والأرض والليل والنهار والشمس والقمر والصيف والشتاء والبر والبحر والسهل والجبل والإنس والجن والنور والظلمة والأبيض والأسود والدنيا والآخرة والإيمان والكفر والسعادة والشقاء والحقّ والباطل والحلو والمر والموت والحياة والرطب واليابس والجامد والنامي والناطق والصامت والحلم والقهر والجود والبخل والعزّة والذلة والقدرة والعجز والقوّة والضعف والعلم والجهل والصحة والسقم والغنى والفقر والضحك والبكاء والفرج والغم والفوق والتحت واليمين والشمال والأمام والخلف والحرارة والبرودة، فيقال لكل واحد من القرينين من الذكر والأنثى في الحيوان المتزاوج زوج ولكل قرينين فيها وفي غيرها زوج، ولكل ما يقترن بالآخر ممّاثلا له أو مضادا زوج، وهو تنبيه على أن الأشياء كلها مركبة من جوهر وعرض ومادة وصورة وان لا شيء يتعرى منها إذ الأشياء كلها مركبة من تركيب يقتضى كونه مصنوعا وانه لا بدّ له من صانع تنبيهها على انه تعالى هو الفرد الصمد لكل شيء والظاهر الباطن في كل شيء، فبين أن كل ما في العالم هو زوج من حيث أن له ضدا ما أو مثلا ما أو تركيبا يخضع لقانون المادة من جوهر وأعراض وصورة وأبعاد، والإنسان هو خلق مثله كبقية المخلوقات من حيث هذا الذي ذكرناه في صفات ومواصفات الخلق، إلا أنّه يمتاز عنها من ناحيتين هما الخلق والخلق فالأول هو الظاهر والثاني هو الباطن والإنسان هو خلق مثله كبقية المخلوقات من حيث هذا الذي ذكرناه في صفات ومواصفات الخلق، إلا أنّه يمتاز عنها من ناحيتين هما الخلق والخلق فالأول هو الظاهر والثاني هو الباطن فقولنا فلان حسن الخلق والخلق - أي حسن الظاهر و الباطن - فيراد بالخلق الصورة الظاهرة، ويراد بالخلق الصورة الباطنة، وذلك لأنّ الإنسان مركب من جسد مدرك بالبصر ومن روح ونفس مدرك بالبصيرة، ولكل واحد منهما هيئة وصورة إما قبيحة وإما جميلة. فالنفس المدركة بالبصيرة أعظم قدرا من الجسد المدرك بالبصر،

ولذلك عظم الله أمره بإضافته إليه إذ قال تعالى: {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ} 327 فنبه على أن الجسد منسوب إلى الطين والروح إلى رب العالمين، والمراد بالروح والنفس في هذا المقام واحد؛ فالخلق عبارة عن هيئة في النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا سميت تلك الهيئة خلقا حسنا وهذه صفة الخليفة الذي أضفى عليه الله تبارك وتعالى من العلم الباطن والحكمة ما يمكنه من إعمار الأرض وسياسة الناس، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقا سيئا وإن صدر عنها بعض الحسنات، لأن من يصدر عنه بذل المال اليسير في النذر القليل لحاجة عارضة لا يقال خلقه السخاء والكرم ما لم يثبت ذلك في نفسه ثبوت رسوخ، وإنما الشرط أن تصدر منه الأفعال بسهولة من غير روية لأن من تكلف بذل المال أو السكوت عند الغضب بجهد وروية لا يقال خلقه السخاء والحلم، وليس الخلق عبارة عن الفعل، فرب شخص خلقه السخاء ولا يبذل إما لفقد المال أو لمانع، وربما يكون خلقه البخل وهو يبذل إما لباعث أو لرياء وليس هو عبارة عن القوة، لأن نسبة القوة إلى الإمساك والإعطاء في الضدين واحد، وكل إنسان خلق بالفطرة قادر على الإعطاء والإمساك، وذلك لا يوجب خلق البخل ولا خلق السخاء وليس هو عبارة عن المعرفة، فإن المعرفة تتعلق بالجميل والقبيح جميعا على وجه واحد، وهو الهيئة التي بها تستعد النفس لأن يصدر منها الإمساك أو البذل، فالخلق إذن عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة، وكما أن حسن الصورة الظاهرة مطلقا لا يتم بحسن العينين دون الأنف والفم والخد بل لابد من حسن الجميع ليتم حسن الظاهر، فكذلك في الباطن

هناك أركان لا بدّ من الحسن في جميعها حتى يتم حسن الخلق، فإذا استوت الأركان والشروط واعتدلت وتناسبت حصل حسن الخلق وهو: قوّة العلم، وقوّة الغضب وقوّة الشهوة، وقوّة العدل.

أمّا قوّة العلم فحسنها وصلاحتها في أن تصير بحيث يسهل بها درك الفرق بين الصدق والكذب في الأقوال، وبين الحقّ والباطل في الاعتقادات، وبين الجميل والقبيح في الأفعال فإذا صلحت هذه القوّة حصل منها ثمره الحكمة والحكمة رأس الأخلاق الحميدة التي يؤتيها الله تعالى من يشاء، قال تعالى: {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَدَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ} {328} وأما قوّة الغضب، فحسنها في أن يصير انقباضها وانبساطها على حد ما تقتضيه الحكمة، وكذلك الشهوة حسنها وصلاحتها في أن تكون تحت إشارة الحكمة، بمعنى إشارة العقل والشرع فيما أحل الله، فالعقل هو الناصح المشير، وقوّة العدل هي القدرة على الاختيار بين الحقّ والباطل، فهي الأداة المنفذ لإشارة العقل، والغضب هو الذي تنفذ فيه الإشارة، فهو كالطفل الذي يحتاج إلى أن يؤدب حتى تسهل تربيته ويوجه بحسب الإشارة لا بحسب الرغبة وشهوة النفس، والشهوة كالخيل فإنها تارة تكون مروضة وتارة تكون جموحة فتحتاج إلى تقييدها بالحكمة، فمن استوت فيه هذه الخصال واعتدلت فهو حسن الخلق مطلقا واتصف بصفات الخليفة أو هو الخليفة نفسه، ومن اعتدل فيه بعضها دون البعض فهو حسن الخلق فقط، بالإضافة إلى ذلك المعنى خاصة كالذي يحسن بعض أجزاء وجهه دون بعض. وحسن ضبط قوّة الغضب واعتدالها يعبر عنها بالشجاعة، وحسن ضبط قوّة الشهوة واعتدالها يعبر عنها بالعفة، فإن مالت قوّة الغضب عن الاعتدال إلى طرف الزيادة تسمى تمورا، وإن مالت إلى الضعف والنقصان تسمى جبنا وخورا، وإن مالت قوّة الشهوة إلى طرف

الزيادة تسمى شرها، وإن مالت إلى النقصان تسمى جمودا، وهذا لا ينطبق على الخليفة الذي ترفع عن شهوات النفس وجموح العقل بامتلاكه الحكمة التي هي أعلى درجات حسن الخلق وأرفعها على الإطلاق وأكرمها خصالا بما أوتي من العلم الباطن.

إن مظاهر الباطن جل شأنه تتجلى في كل ما خلق من حيث أنه أبطن باطن قدرته في ظاهر خلقه، قال تعالى: {أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا وَأَعْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ} 329 فجميع ما ذكر في هذه الآيات هو من الحوادث التي لها محدث وجوبا، فالتأمل لهذه المحدثات لابد أن يدرك أن وراء حدوثها قوّة وقدرة ومشئنة وإرادة وهي التي تجعلنا ندرك أنه باطن في هذه الآيات الكونية، وإذا استغرقتنا في هذا التأمل نقف مذهولين عندما نتيقن من القدرة الخفية الباطنة فيها، وسياق هذه الآيات ليس في مجال التحدي بين الخالق والمخلوق، ولا في مجال المقارنة بين الشدة والرخاوة والقوّة والضعف والصلابة واللين، وإنما هو في مجال إظهار القدرة الباطنة للمنكرين، فهل البعث والنشور أعظم من إيجاد هذه المخلوقات، فالسمااء خلقها وضم أجزاءها المتفرقة بعضها إلى بعض، ورفع أجزائها فوقكم، فجعلها مستوية لا تفاوت فيها ولا خلل، وزينها بالمصاييح التي ترونها والشموس والأقمار فأظلم ليلها وأظهر نهارها لتعلموا عدد السنين والحساب ومنافع أخرى والأرض بعد ذلك بسطها ومهدا لسكنى أهلها وأخرج منها ماءها بتفجير عيونها، وإجراء أنهارها ونباتها ليقتات به الناس والدواب وثبت الجبال أوتادا تمنع الأرض من أن تميد بكم، فهل هذا يكون من الصدف أم من عجائب الخلق الذي أظهره الباطن لأمر يريد نفاذه، وهو على ما نعتقد إظهار قدرة الباطن في ظواهره،

فشدة بناء السماء مثلا بمعنى الصعوبة لا بمعنى الصلابة قياسا للخلق وليس قياسا للقدرة الباطنة لدى الخالق، لأنّ السياق في الآيات لا يلائم مقام التفاضل إذ ليس في القدرة الباطنة مجال مقارنة بين السهولة والصعوبة فالأميرين بالنسبة إلى قدرة الله واحدة فقد خلق السماء بلا مادة على عظمها وقوة تأليفها وانطوائها على البدائع التي تحار فيها العقول، وذلك آية من آياته لأمر أراده، ألا وهو التفكير وصولا إلى الإيمان الباطن الذي يكشف قدرة الباطن فالإيمان بالله إيمان ظاهر وقع به الستر الظاهر وإيمان باطن وقعت به الخشية الباطنة، والإيمان الظاهر إقرار اللسان بالتوحيد وموافقة جوارح الابدان فرائض التوحيد، هذا هو الإيمان الظاهر الذي يقع الستر الظاهر به، وأما الإيمان الباطن الذي وقعت به الخشية الباطنة فهو إيمان القلب وهو على ثلاثة:

فالأول منها التصديق لله فيما وقع به وعده ووعيده.

والثاني حسن الظن بالله تعالى من غير المعرفة والكيفية.

والثالث هو الوثوق من عقد الله وعهده مطلق الثقة.

وعليه التصديق إذا صح في القلوب وتمكن من عقائدها انفتق من هذا نور فيه دلالة النفس على مكوّناتها، فإذا صح العلم فيها بأنّها مكونة لا من شيء كوّنّت، دلها وجود ما علمته من خلقها على الشيء المغيّب عنها أنّها أعجب ممّا قد شاهدته بنظر، فها هنا سكن القلب إلى تصديق الباطن عزّ وجلّ بالباطن من العلم فيما وقعت به المعرفة، وينصرف الهم إلى تجريد العناية إلى ما وقع به أمر الباطن ونهيه جل شأنه، ومن علم المعرفة بالله أنّ الله عزّ وجلّ أحسن إليه في خلقه تفضلا منه عليه لا باستحقاق عمل متقدم كان منه إليه فيكون مبتدؤه به من نعمة الخلقة أنّها تفضل من الله عليه أقام النظر

من العقل الباطن في الأشياء فينظر إلى كل ما قعد به الجهل، عن معرفته من العلم الذي يحتاج إلى تقوية معرفته وإلى طلب الازدياد في تصديق الباطن وحسن ظنه بما يجري به تدبيره فيه، علم أنّ وهن تصديقه وضعف حسن ظنه من جهله به، وفي هذه المرحلة من الإيمان الباطن تنهتك أستار الجهل وتقع البصيرة في النظر الذي كشف عن ضرر الجهل، والإيمان الباطن الذي لا يرقى إليه إلا من اختاره الله تعالى ليكون خليفة، فهو يعلم تحقيق القلوب بالتيقن من إثبات الباطن بكمال أسمائه وصفاته ووجوب توحيده بأحدثه السرمدية أبداً وأزلاً، والإيمان تصديق القلوب بما أعلمه الحقّ من الغيوب، ومواهب الإيمان بوادي أنواره والملبس لأسراره، وظاهر الإيمان النطق بألوهيته على تعظيم أحدثه، وأفعال الإيمان التزام عبوديته والانقياد لقوله، والإنابة التزام الخدمة وبذل المهجة، والرجاء ارتياح القلوب لرؤية كرم الموجد، وحقيقة الرجاء الاستبشار لوجود فضله وصدق وعده ووعيده، والزهد سلو القلب عن الأسباب ونفض الأيدي عن الأملاك إلا المملك الواجب الذي أمر به الله تعالى من الخلافة، وحقيقة الزهد التبرم بالدنيا ووجود الراحة في الخروج منها، والقناعة و الاكتفاء بما يكفي، لأن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى، وحقيقة القناعة ترك التشوق إلى المفقود والاستغناء بما هو موجود، وأن يعلم أن المذكور واحد والذكر مختلف، ومحل قلوب الذاكرين متفاوتة، وأصل الذكر إجابة الحقّ من حيث اللوازم فمن أطاع الله فقد ذكر الله وإن قلت صلواته وصيامه وتلاوته، ثم ينقسم الذكر قسمين ظاهر وباطن، فأما الظاهر فالتهليل والتحميد والتمجيد وتلاوة القرآن، وأمّا الباطن فتنبية القلوب على شرائط التيقظ على معرفة الله وأسمائه وصفاته، وعلى أفعاله ونشر إحسانه وإمضاء تدبيره ونفاذ تقديره على جميع خلقه، ثم يقع ترتيب الأذكار على مقدار الذاكرين، فيكون ذكر الخائفين على مقدار قوارع الوعيد، وذكر الراجين على ما استبان لهم من وعده ووعيده، وذكر الخليفة على قدر ما انكشف له من كفاية الكافي له، فذكر الله منفرد وهو ذكر المذكور بانفراد

أحدثته على كل مذکور سواه، وإفراد النطق بألوهيته لأن أفضل الذكر لا إله إلا الله.

فعلم الباطن هو سر من أسرار الله تعالى يقذفه في قلوب أصفیائه لم يطلع عليه ملكا ولا بشرا، وطلب علم الباطن فريضة على أهله الذين يختارهم الله لحمل أمانة وتأدية وديعة أودعها الله في يقين هؤلاء الذين هم أهل لهذا العلم، وهم الذين اختارهم الله بعلمه الباطن ليكونوا قوامين بما أوتوا من العلم الباطن، وهو مخصوص لأصحاب اليقين الثابت ممن صفت نيته ونقيت سريره واستنار قلبه واتقد ذهنه فانكشف له من العلم الباطن ما لم ينكشف لغيره وهؤلاء هم صفوة الصفوة من الخلق بعد الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، ومن هؤلاء يكون الخليفة بما فضله الله تعالى على غيره وبما أوتي من علم الباطن وهو العلم اليقيني فكان أرفع درجة وأعلى منزلة وأعظم قدرا وأكثر مهابة واشد طاعة واخلص نية وأنفذ بصيرة وأفضل حزما وأمضى عزمًا وأصوب رأيا بما خصه الله من علم حيث قال تعالى: {يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} 330 فالله تعالى يرفع العلماء درجات خاصة بسبب العلم للدلالة على علو شأنهم وسمو مكانهم حتى كأنهم جنس آخر وهم طبقات عالية ومراتب مرتفعة بسبب ما جمعوا من العلم والعمل لعلو درجة علمهم فعلت منزلتهم بعلو علمهم لذلك يقتضى جزاء العمل المقرون بهذا العلم مزيد رفعة لا يدرك شأنها ومكانتها من كان عمله بالعلم الظاهر العادي وإن كان في غاية الصلاح، ولذا كان من الواجب الاقتداء بعلم هؤلاء وأفعالهم وأعمالهم ولا يقتدى بغيرهم، وذلك بسبب أنهم أصحاب العلم الباطن اليقيني الواجب إتباعه، لأنهم أوتوا علم اليقين، وعلم اليقين لا يوجد إلا عند الموقنين وهو من أعمال الموقنين بعلم الباطن المخصوص في قلوب أهل المعرفة، وهو علم باطن

في القلب، وهو العلم النافع الذي رفع الله به هؤلاء لترفعهم عن العلم الظاهر المباح، وهو العلم الذي ينال منه القاصي والداني، أما علم الباطن فهو خاص بالصفوة من الخلق، لذلك فإن علم الظاهر من علوم الملك وعلم الباطن من علوم الملكوت، ونعني به أن ذلك من علم الدنيا لأننا نحتاج إليه في أمور الدنيا وعلم الباطن من علوم الدنيا والآخرة، وكونه من علوم الدنيا، لأن الخليفة يصلح به البلاد والعباد، وهو من علوم الآخرة لأنه من زادها وهو المفتاح إلى باب الرضوان، وعلم الظاهر يظهر في اللسان، وعلم الباطن يكمن في القلب ويرسخ في الجنان، ولأن اللسان ظاهر فهو من الملك وهو خزانة العلم الظاهر، والقلب خزانة الملكوت وهو باب العلم الباطن فقد صار فضل العلم الباطن على الظاهر كفضل الملكوت على الملك وهو الملكوت الباطن الخفي، وكفضل القلب على اللسان وهو الظاهر الجلي، وبفضل ما أوتي هؤلاء من العلم الباطن فقد جعل الله تعالى لهم نورين: أحدهما ظاهر، والآخر باطن، فظاهره آلة لباطنه، وباطنه عدّة لآخرفته ومعاده، فمن نور العلم الظاهر طلب المعاش وإصلاح الشأن، واستصلاح الأمور، ودفع المضارّ عمّن هم في ولايته ورعايته، والتحقّظ من الموارد المهلكة في العاجلة، ومن نور العلم الباطن طهارة القلب، وإخلاص النية لله، واستحضار ما وعد الله على طاعته من ثوابه والخوف ممّا أوعد من العقاب، واختيار العفو في الانتقام، والأناة على الإقدام، ونفي الأحقاد، وإطفاء نار الحسد، وإيثار الصّدق الذي هو منجاة الدارين، والوفاء لأصحاب العقود وأهل الثقة، والحياء لأن الله حييّ يحب الحياء، وخلع طاعة الشّهوات لأنّها من المهلكات، وقمع شهوة النفس لأن النفس أمّارة بالسوء، واستشعار القناعة لأن القناعة تبعد عن الدنيا وتقرب من الآخرة، وإجلال العلماء فهم ورثة الأنبياء، وتفضيل العلم، وأخذ النفس بوظائف الترويض على طاعة الله، وهذا هو النور الرّوحانيّ الذي يشعه العلم الباطن في النفس وتتجلى به الروح، فتجعل صاحبه يتمسّك بسلامة العقيدة وعمق الإيمان وإقامة الدين

وحسن السيرة ونقاء السريرة ومحاسن الخصال وكرم الأخلاق، وكلما استحکم العلم من الإنسان، دقت رويته، وصفى ذهنه وانشرح صدره وأنور قلبه فتضيء له الدنيا لترتبه طريق الآخرة وهذا جُلّ مراده ومنتهى مبتغاه وأقصى ما يرجوه من الذي منحه هذا العلم الذي بزّ به أقرانه فحقّ له أن يكون خليفة. وهنا يكون جُلّ سعيه فيما يجرز من إعمار الأرض وإصلاح الناس والدعوة إلى الحقّ الذي لا نهاية له، لأنه ماضٍ إلى يوم القيامة، ليلبغ ما يقيم به العدل ما استطاع إلى ذلك سبيلا، فهذا همه وشغله ومبتغاه ولذلك وجب عليه وعلى أمثاله من أولي الألباب والمعرفة رفض الدنيا، والأخذ منها بالنصيب الطيب، والانشغال بما هو مكلف به في إحراز حظّه الذي يستريح بالوصول إليه من ألم الدنيا إلى نعيم الآخرة، ووجب عليه كذلك الصبر على مكابدة التّوائب النازلة، والفواجع الواردة، إذ علم بعلمه الباطن أنّ لها انقطاعا لا محالة، وأنّ دوائر الأيام تسلبها، والليالي تزيلها وتغيّبها، فإذا صحّح هذا عنده باليقين استخفّ بالمكارة، واستحقّر عظيم المصائب، ولم يطمع من الدنيا إلّا بما يوصله للآخرة، وبهذا يكون قد أعطى هذا العلم حقّه، وأخذ منه نصيبه الذي نذر نفسه لأجله، فيصل إلى مطلبه وينال مبتغاه من رضوان الله تعالى في حقّ هذا العلم، الذي هو أصلا أذى حقّه بنشره وإقامته، لأنه يعلم بما أوتي من العلم أن زكاة العلم نشره.

إن صفة الباطن عزّ وجلّ كما ذكرنا شاملة محيطية، فهي شاملة لكل شيء من حيث العدد والإحصاء، ومحيطية بكل شيء من حيث الحجم والزمان والمكان غير داخلية بأيّ منها احتززا، إذ لا يغيب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أكبر من ذلك ولا أصغر إلّا في كتاب مبين، فمن حيث العدد والإحصاء المتضمن علم الله الباطن جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ

عدا وكلهم آتية يوم القيامة فردًا {331} إن كل ما في السموات والأرض من مخلوقات هم عبيد الله عددهم وأحصاهم وهو أهون عليه، فإذا قال المنكرون كيف يكون ذلك فنقول: بما أن الصانع يعلم أعداد صناعته فمن باب أولى وأقرب لفطرة العقل السليم أن الخالق عز وجل أعلم بعدد خلقه هذا من جهة، ومن جهة أخرى طالما أنه هو خالقهم فبالضرورة طوعا أو كرها أن ينقادوا لحكمته، ويخضعوا لإرادته، فقد أحاط بهم جميعا وبأعمالهم، وعدّ أشخاصهم وأنفاسهم وأفعالهم، فلا يخفى عليه أحد منهم ولا يخفى عليه شيء من أعمالهم وهم جميعا يجيئون إليه يوم القيامة مجتمعين و منفردين، فاجتماعهم دلالة على البعث والنشور، وانفراد كل واحد منهم على حدة دلالة على الحساب، فكل من في السموات والأرض خاضع لألوهيته منصاع لإرادته، فالخلائق كلهم عبيده، عدّ عليهم أنفاسهم وأحصى أيامهم وعلم آثارهم فلا يخفى عليه شيء من أمورهم وكلهم تحت تديره وقهره وقدرته مجتمعين، وهذا هو النوع الأوّل من الإحصاء، وهو الإحصاء الجماعي للخلق وبالتالي فهو الاستحضار الجماعي الذي يدل على عظمة الباطن، ثم بعد ذلك يأتي كل واحد عبدا ذليلا خاضعا، ليس معه من أحوال الدنيا شيء وهذا هو الإحصاء الفردي الذي يدل على علم الباطن، فقد علم تفصيلا بما عندهم، فعلم عدد الموجودات كلها، لا يغيب عنه شيء منها ولا من أعمالها فهو إحصاء لا يغيب منه شيء، وإحاطة لا يفرط بأحد منهم في شيء. والأصل في أنه أحصى عدد كل شيء على ما نرى، قال تعالى: {إِنَّ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا} {332} أن فائدته في بيان أن علم الله تعالى بالأشياء ليس المقصود منه في هذا المقام علم كلي إجمالي، بل المقصود هنا العلم الجزئي التفصيلي لأن الإحصاء يراد به العدد الكلي

331 - مريم 93 - 95

332 مريم 93 - 95.

مجتمعا وإحاطة الإجمالية التامة، ولتوضيح المسألة نأخذ مثلا بسيطا وهو الدائرة المعروفة في علم الهندسة، وهي عبارة عن خطٍ منحنٍ يلتقي طرفاه بأبعاد متساوية عن مركز هذه الدائرة، وهذا الخط المنحني الذي يحصر المساحة التي تتوزع من مركز الدائرة بأبعاد متساوية إلى أن تتداخل مع ذلك الخط المنحني الذي نسميه محيط الدائرة، بمعنى أنه ليس هناك نقطة واحدة من مساحة الدائرة إلا وقد أحاط بها ذلك الخط، لذلك يسمى هذا الخط محيطا، فإذا كانت هذه المساحة مجموعة من النقاط-وهو كذلك- ونبدأ نعدُّ هذه النقاط وكلما اجتمعت لدينا مجموعة منها وضعناها على حدة، فهذا هو الحساب، فإذا جمعنا عدد المجموعات نكون قد أحصيناها، فإذا وضعناها ضمن هذا الخط المنحني نكون قد أحطنا بها، أي لم يبقَ شيء خارج هذا المحيط من هذه النقاط إلا وأحصيناها إحاطة، فإذا غادرنا هذه الدائرة ومحيطها إلى العالم الخارجي وما فيه من مخلوقات يصل حجم بعضها إلى أصغر من الذرة، وحجم البعض الآخر إلى أكبر من الشمس نستطيع أن نقف على علم الله الباطن الذي قد أحاط بكل شيء علما حيث قال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا} 333 فهو الذي أوجدها فأحصاها عددا وأحصى كل ما خلق، وعرف عدد ما خلق وأفعال من خلق كبيرها وصغيرها وجليلها ودقيقها ولم يفته علم شيء لا من ظاهرها ولا من باطنها إلا في كتاب مبين أحصاه الله ونسوه، فما فرط سبحانه وتعالى في شيء. فبالإضافة إلى ما تشير إليه الآية الكريمة من علم الله الباطن وإحاطته بكل شيء، فإنها تأمر بتعلم العلم من أجل الوصول إلى بعض العلم الباطن لبعض الخلق من البشر وهو أمر من الله تعالى بقوله: لتعلموا، حيث نستدل من السياق على أن هناك أشخاص

مأمورون ومكلفون بتعلم هذا العلم واستنباطه، وهؤلاء نعرفهم من أوصافهم
وسماهم وأعمالهم، ومن هؤلاء يكون الخليفة لما تتوفر به من سمات هذا العلم
الموهوب هبة وليس كسبا، فعلمهم الباطن يكون لله خشية وطلبه عبادة
ومدارسته تسبيح والبحث عنه جهاد وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة وبذله
لأهله قرابة من الله وهو الأنيس في الوحدة والصاحب في الخلوة ودليلهم على
السراء ومنجاتهم من الضراء والحسن عند الإخلاء والأعداء، والقريب عند
الغرباء ومنار سبيل الجنة يرفعهم الله تعالى به فيجعلهم في الخير قادة وهداة
يقتدى بهم وأدلة في الخير تقتص آثارهم وترمق أعمالهم، وتكون أفعالهم منارا
لغيرهم، وينتهي كل رأي إلى رأيهم وترغب الملائكة في مجالستهم وتحفهم
بأجنتها حتى كل رطب ويابس يستغفر لهم وحتى حيتان البحر وهوامه وما
يدب على البر غير الثقلين، والسماء ونجومها، كل ذلك لما يحمل من العلم
الباطن، لأن هذا العلم حياة القلوب من العمى ونور الأبصار من الظلم وقوة
الابدان من الضعف يبلغ به العبد منازل الأبرار والدرجات العلى، فبه يطاع
الله تعالى وبه يعبد وبه يوحد وبه يتورع، فهذا هو العلم الباطن الذي يناله
صفوة خلق الله الذين منهم الخلفاء، إذ أن الخليفة أوتي من العلم على قدر
ما هو مكلف به، ولما كان الخليفة هو القائم بأمر الله تعالى في أرضه إصلاح
وإعمار كان حقيقا على الله أن يكرمه بهذه الدرجة من علمه الباطن ليعلم
ما لا يعلمه غيره من الخلق، إذ أن هذا العلم هو نوع مخصوص لأناس
مخصوصين بما أوتوا من الحكمة والصبر، فهم أهل الذكر لله تعالى وأهل
التوحيد والعقل والحكمة والطاعة والتقوى بما أوتوا من الله جلّ جلاله، فلم
يكونوا يتلقون هذا العلم دراسة لا من الكتب ولا يتلقاه بعضهم من بعض
بالأسنة إنما كانوا أهل عمل وحسن معاملات فكان أحدهم إذا انقطع إلى
الله تعالى واشتغل به واستعمله المولى بخدمته بأعمال القلوب، وكانوا عنده في
الخلوة بين يديه لا يذكرن سواه ولا يشتغلون بغيره فإذا ظهروا للناس
فسألوهم ألهمهم الله تعالى رشدهم ووفقهم لسديد قولهم وآتاهم الحكمة ميراثا

لأعمالهم الباطنة عن قلوبهم الصافية وعقولهم الزاكية وهمهم العالية فأثرهم بحسن توفيقه أن أهمهم حقيقة العلم وأطلعهم على مكنون السر حين آثروه بالخدمة وانقطعوا إليه بحسن المعاملة ومدارة الخلق وسياستهم، فكانوا يجيبون عما يُسألون عنه بحسن أثره الله تعالى لهم وبجميل أثره عندهم، فتكلموا بعلم القدرة وأظهروا وصف الحكمة ونطقوا بعلم الإيمان وكشفوا بواطن الخفايا، وهذا هو العلم النافع بين العبد وبين الله تعالى وهذا العبد هو الخليفة الذي يلقيه الله تعالى به ويسأله عنه ويثيبه عليه وهو ميزان جميع الأعمال، ولهذا لا تخلو الأرض من خليفة قائم لله تعالى بحجة، إما ظاهرة مكشوفة وإما باطنة مكتومة لئلا تبطل حجج الله تعالى وبيّناته، ولذلك يكون من الأقلين عددا والأعظمين قدرا أعوانه قليلون يظهره الله بهم و يحفظ الله تعالى به حججه حتى يودعها نظراءه وأمثاله من أهل الثقة حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا، مصدقا لقوله تعالى: { إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاحْتِلَافْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ اتَّقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقَيْتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } 334. ولهذا أوقفه العلم على حقيقة الأمر فباشر روح اليقين فاستلان الصعب وأنس بما استوحش منه الغافلون عن حقيقة الأمر، فصحب الدنيا بروح معلقة بالملا الأعلى لأنه من أولياء الله ومن خلقه وعماله في أرضه والداعي إلى دينه، فهذه كلها أوصاف علماء الآخرة وأوصاف الخليفة الذي يحمل علم الباطن وهو علم القلوب لا علم الألسنة.

ومن مظاهر صفة الباطن أن الله سبحانه وتعالى بيدي باطن النعم من ظاهر النقم، ولا يدرك هذا الأمر إلا ذو حظ عظيم ممن أوتوا العلم الباطن حيث يدركون أن الله تعالى اختارهم على علم ليقينهم وهم يعلمون أن الأجر على قدر المصيبة وهو الابتلاء الذي لا يدرك حقيقته والغرض منه إلا الراسخون في العلم، فنحن بني البشر إذا أراد أحدنا أن يكلف شخصا ما بأمر عظيم أو مهمة خطيرة فيحاول بداية أن يختبره بعمل بسيط، فإن نجح في ذلك زاد له من صعوبة المهمة حتى يعلم أنه أصبح أهلا لما يريد أن يكلفه به من جسام الأمور وعظائم المهمات، والذين لم يصلوا إلى العلم الباطن ينظرون إلى الأمر على أنه مصيبة تخلف مصيبة، وما علموا أن هذا الابتلاء هو إعداد للشخصية والنفسية من أجل التهيئة للتعامل مع ما سوف يواجهه مستقبلا بالمهمة التي يكلف بها، هذا على مستوى الإنسان العادي من البشر، أما إذا كان المكلف من الذين اختارهم الله لأمر يريد نفاذه فإنّ الابتلاء يكون أعظم وطأة وأشد ثقلا، فهذا نبي الله أيوب عليه الصلاة والسلام أرسل الله عليه من جنوده الباطنة ما لا يحتمله غيره، فأهلك ماله وولده وجسده، ولم يبق من جسده سليما غير الهيكل الفارغ من اللحم وبقي القلب واللسان والأذان والعينان على طاعة الله التامة مع ذلك الهيكل الذي من نعيم ابتلائه شفي وتعافى فضل من الله ورضوانه، ولهذا لما قصد المرض قلبه الذي هو منبع المعرفة ومعدن النبوة والخلافة ولسانه هو مصدر الذكر والتوحيد خاف أن ينقطع عن طاعة الله وتسيححه بالكلية فإنه كان من ضعف الحال بحيث لا يستطيع القيام للصلاة فلما انتهى وقت الابتلاء وحصل الفناء التام في مقام الابتلاء ألهمه الله الدعاء ليوصله إلى أعلى مرتبة فيتجلى له في الباطن لصبره على ما كان أصابه من البلاء، في ماله وولده وجسده، وذلك أنه كان له من الدواب والأنعام والحراث شيء كثير، وأولاد كثيرة، ومنازل فارهة، فابتلي في ذلك كله، وذهب عن آخره، ثم ابتلي في جسده ولم يبق منه سليم سوى قلبه ولسانه، يذكر بهما الله عزّ وجلّ، حتى

عافه الجليس، وأُفردَ في ناحية من البلد، ولم يبق من النَّاس أحدٌ يحنو عليه سوى زوجته التي كانت تقوم بأمره، وإن أشدَّ النَّاس بلاء الأنبياء، ثم الذين يلونهم من الخلفاء والصالحين، أي الأمثل فالأمثل بيتلى الرجل على قدر دينه وعلى قدر علمه وعلى قدر صبره، ومع ذلك ليس لنا بدا إلا أن ندعوه ونحن نقول: لا يكلف الله نفس إلا وسعها ثم ندعوه بعدم المؤاخذة إن نسينا أو أخطأنا وأن لا يحمل علينا إصرا كما حمله على الذين من قبلنا وأن لا يحملنا مالا طاقة لنا به ويعفوا عنا ويغفر لنا ويرحما إنه مولانا فنعم المولى ونعم الوكيل، قال تعالى: { أَمَرَ الرَّسُولَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِيصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ } 335 ونحن نرى أيوب عليه الصلوة والسلام لما أوتي من العلم الباطن ومعرفته بأن ظاهر النقم يكمن فيها باطن النعم لم يشك وكان يستبشر بكل ما أصابه، حتى أنه عندما دعا الله كان في دعوته حياء شديد من الله حيث كانت دعوته بصيغة النداء وليست بصيغة الدعاء تأدبا مع الله تعالى: { وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرِّهِ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ } 336 فقد كان عليه الصلوة والسلام، غاية في الصبر، وبه يضرب المثل في ذلك، فعلى الرغم مما أصابه لم يزد أن قال: أحمدك رب الأرباب، الذي أحسنت إلي، أعطيتني المال والولد، فلم يبق من قلبي شعبة إلا قد دخله ذلك، فأخذت ذلك كله

335 البقرة 285، 286.

336 - الأنبياء 83 - 84

مني، وفرغت قلبي، ليس يحول بيني وبينك شيء، فقد أدرك بما يحمل من العلم الباطن أن هذه النقم تحمل باطن النعم.

ومن هذا الباب أيضا قصة يونس عليه الصلاة والسلام التي تظهر أن عظم المصيبة من باب قرب الفرج، أي أن النعمة تحمل بين طياتها وفي باطنها جزيل النعم حيث قال تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَجَنَيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾ {337} لقد بُعث عليه الصلاة والسلام لقوم أشداء فتمادوا في إصرارهم مع طول دعوته إياهم، وبذهابه عنهم دون إذن من الله تعالى، فقد ألقاه في الظلمات وهي بطن الحوت والبحر والليل فنادى في تلك الظلمات بأنه (لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين)، وهنا تظهر صفة الباطن لا على وجه الحصر والتخصيص للصفوة الذين يختارهم الله، وإنما هي عامة للبشر بواسطة هؤلاء الصفوة، لذلك كانت دعوة يونس عليه الصلاة والسلام من خصوص العموم، وليست من عموم الخصوص، بمعنى أنها لا تعم الخاصة وإنما تخص العامة، لذلك كانت هذه الدعوة، دعوة أي مسلم أصابه الكرب، فإن دعا بها جلا الله بها كربته، وهذا يعني أنه تعالى تفضل على جميع خلقه بأن أطلعهم على شيء من الباطن ليس لأنهم أهل لذلك، ولكن رحمة فيهم وتفضلا عليهم. وتتجلى هذه الصفة في الإشارات التي تصل إلى الأنبياء والأولياء والخلفاء بنوع من الرحمة والعناية والحفظ لتدل على أنه باطن قريب، كما تتجلى هذه الاختبارات بأنها خير على ما تحمل من الضر، غير أنّ أهل الباطن يعرفون كيف يجتازون الابتلاء والحن بما أوتوا من هذا العلم، وكذلك تتجلى صفة الله الباطن في وحدة المبدأ والعقيدة والطريق قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ

بَعْدَ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ
 الْحِسَابِ {338} فهؤلاء الصفوة من الأنبياء والأولياء والخلفاء تكون صفة
 الباطن قريبة منهم ملازمة لهم على مدار الأيام حتى لكأنهم أمة واحدة على
 تباعد الزمان والمكان، وهذه إحدى دلائل وحدانية صفة الباطن، ووحدانية
 الإرادة المدبرة، ووحدانية الناموس الذي يربط سنن الله في الكون، ويؤلف
 بينها، ويوجهها جميعا وجهة واحدة، إلى معبود واحد: {إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً
 وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ} {339} فيها هو ذا يكشف لنا أننا على السنة
 المطردة التي سنها الله تعالى، فالباطن جل شأنه بما يسدي من نعمة العلم
 الباطن يجلو ظلمات القلب والعقيدة، وظلمات الضلال والباطل، وهي
 ظلمات يتوه فيها العقل ويضل فيها الضمير، وإن القلب البشري ليظل
 مظلما حتى تشرق فيه شعلة الإيمان، فتتير جوانبه، وتكشف له منهجه،
 ويستقيم له اتجاهه، ولا تختلط عليه القيم والمعاني والتقديرَات فيعلم أنه ينتفع
 بالضياء، ويسير على هداه.

إنَّ المنهج العلمي الحديث القائم ومن اشتغل به في العلوم الطبيعية على
 اختلاف أنواعها من الطب والصيدلة والتشريح وعلم النبات والفلك وعلوم
 البحار وما إلى ذلك، يقرون بشكل غير مباشر بأن الله تعالى باطن في كل
 ما وقفوا عليه من نتائج بحوثهم، حيث تتوافق هذه النتائج حدَّ الانطباق مع
 الفطرة التي فطر الله تعالى بها الخلق في أن الله باطن في جميع مخلوقاته لا مادة
 ولا جوهرًا ولا عرضًا، إنه الله الذي خلق كل شيء وأحسن خلقه وهو
 الباطن في كل سبب وعلة وهو الباطن في كل ظاهر ومشاهد قال تعالى:
 {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ
 كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ} {340}

338 - آل عمران 19

339 - الأنبياء 92

340 الغاشية 17 . 21.

فالعلم في بحثه يتجه أولاً إلى المشاهدة ووضع الفرضيات، ثم ينتقل إلى ملاحظة التجربة العملية التي تظهر النتائج، ثم يضع نظرية من تلك النتائج تكون أساساً للعاملين في هذا المجال أو ذلك، لأنّ هذه النظرية فسرت تلك الفرضيات من حيث انطباقها على الواقع الذي أيد صحة الفرضيات، الأمر الذي يجعلها حقيقة يقينية تصل حدّ البديهية، ومن ثم تكون قانوناً عاماً مؤيداً للفطرة، بمعنى كشف سنن الله الكونية في خلقه، هذا إذا تماثلت التجربة مع الواقع فتكون قد انطبقت على القانون الطبيعي لمنطق الأشياء في قضايا الخلق التي يسلم بها العقلاء من الناس، أما إذا تنافرت مع الواقع فلا تكون حقيقة ثابتة، إذ أننا لا يمكن أن نغير الواقع لينطبق على خطأ الفرضية التي نضعها، وإنما يجب إعادة التجربة وفق فرضيات أخرى، ففي قوله تعالى: {مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ} 341 فمرج البحرين هو اضطرابهما وهيجهما وتلاطمهما ومع ذلك فلا يبغي أحدهما على الآخر ولكن كيف يكون ذلك علماً أن الماء هو أكثر السوائل سيالاً وأشدّها امتزاجاً، ولذلك يجب أن يكون أكثرها اختلاطاً، والأمر ليس كذلك.

إنّ وجود هذا البرزخ أو الحاجز بين المائتين يمنع اختلاط أحدهما بالآخر، سواء المالح بالمالح أم العذب بالعذب أم المالح بالعذب، فالخلق وما فيه لا يقوم على الفوضوية، وإنما هو خاضع لقانون الباطن الذي لا يعلمه كثير من الناس، قال تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا} 342، وقال تعالى: {اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ عَالِمٌ

341 - الرحمن 19-20

342 الفرقان 1، 2.

الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ
وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ
خَلْفَهُ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُعَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُعَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ
وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ
الْبَرْقَ حَوَافًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ
مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ
شَدِيدُ الْمِحَالِ {343} فهو القانون الإلهي الذي جعل كل شيء بحسبان،
فهذا البرزخ الذي يكون بين أي مائتين إنَّما هو مختبر ومعمل كيميائي لمعادلة
النسب بين هذه المياه من الكثافة والوزن النوعي والمعادن والأملاح، فهذا
الماء القادم لا يمكن أن يدخل في ماء آخر قبل أن يأخذ المواصفات
والخواص التي تؤهله للعيش في المكان الجديد أو الاندماج فيه، والذي يثبت
صحة ما نقول أن الأحياء المائية من حيوان ونبات تختلف من بحر إلى بحر
ومن بحر إلى نهر لاختلاف خواص الماء الكيميائية في كل منها، وهكذا لكل
بيئة معطياتها ومعطيات العيش أو الاندماج فيها، ولكل نقيض ما يخالفه
بالرفض والاستقلالية أو الحيادية، وكذلك هذا البرزخ أو المختبر فأحياؤه
أيضا مختلفة عما يجاوره من أنواع المياه كونه حاجزا منيعا لا يسمح بأن
يطغى أحدهما على الآخر، وفي هذا الأمر سر باطن لا يعلمه يقينا إلا
الباطن جلّ جلاله، وهذا يفسر لنا وجود الينابيع العذبة في وسط المحيطات
وأعماق البحار، ومن هذا ندرك أن الله تعالى يتجلى باطنا في كل شيء
قدرة وإرادة ومشیئة.

إنّ وجود الباطن يتجلى من خلال التفكير والتأمل والتدبر لآيات الله
وخلقه، فيتبين الحقّ وتنكشف الظلمة بظهور الدلائل التي تحمل في طياتها
صفة الباطن، ومع ذلك فإننا لا نسلم بأن كل شيء خاضع للتجربة العلمية

الواقعية في مجال القياس بين النتائج التي هي أحكام ذهنية. فالتى يجري عليها القياس هي موجودات مادية مشخصة، فمن هنا غالبا ما يكون التباين بالمقارنة بين المادة ونقيضها، لذلك يكون التطابق بين الأحكام الذهنية والموجودات المادية غير يقيني، لأنّ المادة تحول دونه إلا ما دل عليه دليل يشهد به الحس، وذلك فالبراهين المنطقية في علم الإلهيات لا تكفي أن تقوم نصوصا قطعية الدلالة.

فصفة الباطن جلّ شأنه لا يمكن أن تدرك لا بوجود خارجي في الواقع، ولا بتصور داخلي في الذهن، وإنما هو تسليم في القلب ووقور في الجنان وتصديق في اللسان، والوقوف على ذلك باليقين من خلال آيات الله في خلقه وتدبير شؤون هذا الخلق الذي قدره تقديرا.

الظاهر قابل للمشاهدة والملاحظة والكامن من ورائه ساكنا:

كل خاضع للمشاهدة أو الملاحظة هو ظاهر، قولاً كان أم فعلاً أم سلوكاً أم أثراً. وكل ما خُفي عن ذلك في حيز الوجود هو كامن. فعندما تكون الفرحة ظاهرة على السطح، يكون الحزن فينا كامنا، وعندما تتوفر اشتراطاته أو معطياته يفور من حينه ليعلن أنه قوّة قادرة على مداهمة واختراق كل الحواجز التي سترته قبل الظهور.

الحواس هي الممكّنة من الإدراك العقلي لكل ما هو ظاهر وما هو باطن، وحيث ما يكون الظاهر في الصدارة متحركا يكون الباطن من ورائه ساكنا، وقد يتماثل الظاهر مع الباطن وقد لا يتماثل، فعندما يكون القول كاذبا بطبيعة الحال يكون مخالفا للحقيقة. وعندما يكون صادقا يصبح ممّثلا لها، وهكذا في كلّ أمر. وعليه، عندما تُترجم الأقوال الظاهر في سلوكيات وأفعال تمر شخصية الإنسان حسب مواقفها من الحقيقة بخمسة مستويات قيمية هي:

1 . الاتزان الانفعالي لا سالب ولا موجب (ذاتية حيث التمرکز على قيم المجتمع).

2 . الميل لأخذ المواقف السالبة (الميل إلى ما لا يُرضي الآخرين، حيث الانسحاب من بعض القيم الاجتماعية).

3 . بلوغ قمة المواقف السالبة (الشخصانية حيث ظهور السلوك الأناني والتفكير في الأنا فقط).

4 . الميل لأخذ المواقف الموجبة (التطلع لكل مرضي حيث المنطق والحجة).

5 . بلوغ قمة المواقف الموجبة (الموضوعية حيث العقل سيد الميدان مع الرقي في حُسن التصرف).

وبناء على ما سبق فإنّ القاعدة هي:

1 . الظاهر يُشاهد.

2 . الظاهر يُلاحظ.

3 . الكامن ساكن.

4 . وراء كل ظاهر كامنا.

والاستثناء هو:

1 . انعدام مشاهدة الظاهر.

2 . انعدام ملاحظة الظاهر.

3 . انعدام سكون الكامن.

4 . أن لا يكون وراء الظاهر كامنا.

الظاهر مُثبت بالقول والفعل والسلوك والأثر:

بما أن الظاهر قابل للمشاهدة والملاحظ، ومثبت بالفعل والسلوك ويترك أثراً.

إذن فهو قابل للنفي والإثبات.

ولذا فالقاعدة هي:

1. الظاهر مُثبت بالقول.

2. الظاهر مُثبت بالفعل.

3. الظاهر مُثبت بالسلوك.

4. الظاهر مُثبت بالأثر.

والاستثناء هو:

1. الظاهر لا يُثبت بالقول.

2. الظاهر لا يُثبت بالفعل.

3. الظاهر لا يُثبت بالسلوك.

4. الظاهر لا يُثبت بالأثر.

ولذا، فالقواعد تُثبت وجود قضايا، والاستثناءات تُنفي وجودها. ومع ذلك تخضع أدلة الإثبات إلى التقويم في دائرة الممكن (المتوقع وغير المتوقع).

ولهذا ليس كل فعل أو سلوك يُحْت أو يُجْرَض عليه. فهناك البعض السلوكي يُنهي عن ارتكابه، حيث لا يُجْرَض عاقل على فعل مُشين.

وبما أنه لا يتم التحريض من قبل عاقل على كل فعل أو سلوك.

إذن الانتباه إلى القواعد هو الأساس في التمييز بين ما يجب وما لا يجب. فالقاعدة تتمركز على التبيين. والاستثناء يتمركز على الغموض.

وعليه:

- تبيّن قبل أن تقدّم.

- تبيّن قبل أن تنسحب.

- تبيّن قبل أن تفعل.

- تبيّن قبل أن تسلك.

- تبيّن قبل أن تحكّم.

- تبيّن قبل أن تقدّم.

- تبيّن لتقف على اليقين.

الأفعال ظاهرة والغموض يحفها:

بما أن الأفعال الظاهرة بيّنة، إذا كيف نُحَف بالغموض.

بطبيعة الحال ليس كل ما يُقال حقيقة، فبعض ما يقال يحفه الخطأ أو يتعرض له، والبعض يحفه الصواب أو يتوحد معه، ففي الوقت الذي يميل فيه البعض عن قول الحقّ، في الوقت ذاته يميل البعض إلى التمسك به، ولهذا دائما بعض القضايا صادقة وبعضها دائما كاذبة.

ولهذا فالقول بعد الاستماع إليه تترتب عليه استجابة، قد تكون مُعلنة، وقد تكون غير مُعلنة. في كلتا الحالتين، تقع الاستجابة في دائرة الممكن (المتوقع وغير المتوقع) ما يجعلها في أربعة احتمالات:

1. أن تكون متوقعة صادقة.

- 2 . أن تكون متوقعة كاذبة.
- 3 . أن تكون غير متوقعة صادقة.
- 4 . أن تكون غير متوقعة كاذبة.
- وفي مقابل ذلك يمكن أن تكون:

. ظاهرة صادقة.

. ظاهرة كاذبة.

. باطنه صادقة.

. باطنه كاذبة.

وعليه

. لا تسلم بكل ما يقال.

. لا تسلم بكل ما يفعل.

. تبيّن الظاهر من الكامن.

. لا تستعجل بغرس الثقة.

. أظهر حسن النية.

. أعمل على تأكيد حسن النية.

– تقبل العباد كما هم.

. أعمل على نقلهم إلى ما يجب.

لذا يُعدّ التبيّن ضرورة لأجل التأكد من سلامة ما يُقال. ولأنّ ما يُقال في كثير من الأحيان يرتبط بالأفعال والسلوكيات، ولأن كل ما يُقال في بعض الأحيان ليس بحقيقة، إذا قد لا ينطبق الفعل مع القول. فإذا حدث ذلك تصبح الأفعال مُحقّقة بالغموض (أصبح القوا أو الفعل الظاهر لا علاقة له بما هو باطن).

ولذا، الفاقد للمصادق والحقيقة، يعكس أفعالا فاقدة هي الأخرى للمصادق والحقيقة.

ولهذا تُحف الأفعال الظاهرة بالغموض. ما يجعل دور الخليفة وتقصيه، في اتجاه إزالة اللبس والغموض.

ولهذا القاعدة هي:

تماثل الظاهر مع الكامن.

والاستثناء هو:

عدم تماثل الظاهر مع الكامن.

الكامن، غير متيسر للمشاهدة مع أنّه يشغل حيّزا وقابل للظهور:

مع أنّ الباطن غير متيسر للمشاهدة برغم أنه يشغل حيّزا، إلا أنه السابق على القول والفعل. فلو لم يكن الباطن ما كان الظاهر، ولهذا القاعدة الفكرة أولا وإظهارها والعمل بها ثانيا. وبذلك يعد الكمون هو الأصل، حيث تكمن النخلة في النواة، مثلما يكمن الزيت في ثمرة الزيتون.

لذا: الظاهر هو النواة، والكامن هو النخلة. مثلما الزيت هو الكامن وثمره الزيتون هي الظاهرة.

وعليه كل كامن قابل للظهور كلما توفرت اشتراطاته. وقابل للاستقراء والاستنباط كلما لوحظت ردود أفعاله، وقابل للإثبات والمقارنة كلما تلمسنا الأثر وشاهدناه، وهكذا تكمن الحقائق في العلل والسباب التي من خلفها مصداقا لقوله تعالى: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ} 344.

ولهذا فالقاعدة هي:

1. الباطن غير متيسر للمشاهدة.

2. الباطن يشغل حيزا.

3. الباطن قابل للظهور كلما توفرت معطياته.

والاستثناء هو:

1. تيسر الباطن للمشاهدة.

2. أن لا يشغل الباطن حيزا.

3. انعدام قابلية الباطن للظهور.

وعليه:

1- ييسر الأمر تُيسر لك الأمور.

2- ييسر يتم تقبلك.

3- ييسر تُغرس الثقة فيك.

4- يَسَّر يتم الاعتراف بك.

ولهذا فالتيسير يُمكن من الآتي:

. التيسير يُمكن من نيل الاعتراف.

. التيسير يُمكن من غرس الثقة.

. التيسير يُمكن من إنجاز الأهداف.

. التيسير يُمكن من المشاركة والتفاعل.

. التيسير يُمكن من التقبل المتبادل.

. التيسير يُمكن من بلوغ الأغراض والغايات.

. التيسير يُمكن من أحداث النقلة.

اعرف الباطن تعرف الحقيقة:

وبما أنه لا يمكن أن تعرف الحقيقة إذا لم يُعرف الباطن من أمرها.

وبما أن الفعل والسلوك ظاهرين والحقيقة موضوع احتمال (في حالة شك) إذن قد تُرتكب الأفعال والسلوكيات وهي لا تحمل أو تُجسّد حقائق (بلا مصادق) ولهذا فلا يغرّك الظاهر إن لم يكن هو الحقّ.

أذن الظاهر قد يُغرر بمن يضع الثقة فيه إن لم يكن الظاهر هو الحقّ.

وعليه:

. تأكد قبل أن تقدّم.

. تبين قبل أن تتخذ قرارا.

. خطط قبل أن تعمل.

- . فكر حتى تعرف.
 - . لا تتسرع فالتسرع مصيدة.
 - . تأني فكل شيء ممكن.
 - . تحقق بمقارنة.
 - . دقق بملاحظة.
 - . استنبط بفطنة.
 - . حلل بمنهج.
 - . اجث بطريقة ووسيلة وأسلوب.
 - . شك حتى ترى الحقيقة بين يديك.
- ولأجل أن يُسهم الخليفة في غرس الثقة، ويُسهم في إحداث النقلة، وفي صناعة المستقبل المفيد والنافع، عليه بمراعاة الآتي:
- . التقصي والتتبع الدقيقين.
 - . الوقوف عند كل ردة فعل.
 - . تقييم السالب وتقويمه.
 - . اعتماد الموجب وعرضه.
 - . تحديد الأهداف بكل وضوح.
 - . الإصرار وإن واجهته الصعاب.
 - . تنفيذ الأهم قبل المهم.

. تجنب المنهي عنه.

. رفض المحرم.

. ممارسة الحقوق.

. أداء الواجبات.

. حمل المسؤوليات.

بناءً على ما سبق لا ظاهر إلا والباطن من ورائه ولا علاقة سالبة أو موجبة إلا وهي نتاج قيم الترابط بين الباطن والظاهر في دائرة الممكن (المتوقع وغير المتوقع).

يتداخل الظاهر مع الكامن في علائق قيمية وترابط متين مثلما يتداخل المتوقع وغير المتوقع في دائرة الممكن. وعليه يكون الإيمان سابقاً على السلوك والفعل المترتب عليه، كما تسبق الخيانة أو الردة السلوك أو الفعل الذي يرتكبه الخائن أو المرتد.

ولأنّ علاقة قوية تربط دائرة الظاهر والباطن، بدائرة المتوقع وغير المتوقع، لذا فبالضرورة أن يكون في دائرتيهما ما هو محتمل بالسالب وما هو محتمل بالموجب.

وعليه:

- في حالة التماثل العلائقي، يتماثل الفعل الموجب مع الكامن الموجب.

- في حالة عدم التماثل العلائقي، يختلف الفعل السالب مع الكامن الموجب.

- في حالة عدم التماثل العلائقي، يختلف الفعل الموجب مع الكامن السالب.

الثقة في حالة اهتزاز بين باطن وظاهر:

الثقة قيمة أخلاقية تُغرس فيمن يستطيع حملها، وتُنزع ممن لا يستطيع. ومع أنّها لا تُغرس بقرار، إلا أنّها قد تنزع به. غرسها يحتاج إلى زمن ومعطيات مرضية وقبول إرادي، أمّا نزعها فمترتب على فعل أو سلوك سالب أو مجموعة أفعال سلبية، مرتكبة عن وعي وقصد.

ولهذا يتضح اهتزاز الثقة وثباتها في الآتي:

قول موجب + فعل سالب. لا يؤدي إلى غرس الثقة.

قول سالب + فعل موجب. لا يؤدي إلى غرس الثقة.

نية صادقة + قول صادق + فعل صادق = حقيقة نافعة. تؤدي إلى غرس الثقة.

نية كاذبة + قول صادق (ظاهرياً) لا يساوي حقيقة.

بلا شك هناك علاقة موجبه أو سالبة تربط الظاهر بالباطن.

في حالة التماثل العلائقي يتماثل الفعل الموجب مع الكامن الموجب.

في حالة عدم التماثل العلائقي لا يتماثل الفعل السالب مع الكامن الموجب.

في حالة عدم التماثل العلائقي يختلف الفعل الموجب مع الكامن السالب.

وعليه أينما يكمن السالب يكمن الضعف فيه.

وأينما يكمن الموجب أو يظهر تكمن القوة فيه.

يستقرأ الباطن من الفعل الظاهر:

اللسان ينطق يتكلم وقد يقسم لك بما يعتقد أنه مُمكن لك من تصديقه،
ومع ذلك قد لا يكون صادقا.

المزور أو الخائف قد يُظهر لك الوثوق وعدم الخوف في نفسه، ومع
ذلك بالملاحظة ينكشف سره أو أمره.

وعليه لحن القول علامة تستوجب أخذ الحيطه من الذي يُلحن في قوله.

عدم الثبات أثناء الحديث الموضوعي يستوجب وضع علامة الشك على
صاحبه.

جفاف الحلق، واصفرار الوجه، وتصيب العرق، وعدم السيطرة على
حركة اليدين (ارتعاشهما) أثناء المواجهة التقييمية أو الاختبارية لما هو كائن،
هي علامات دالة على الخوف والارتباك في اتخاذ المواقف والتردد عنها. ولذا
فهي تتأرجح بين المتوقع حيناً وبين غير المتوقع حيناً آخر.

الباطن ما ليس بظاهر، والبطون هو استتار الشيء عن الحس. ولذا فإن
الكمون هو بطون كل حقيقة، وعلاقته بالظاهر كعلاقة السكون بالحركة،
فهو الموجود في الذهن أو العقل ويشغل حيزاً لا تراه العينين ولكن يدركه كل
عقل ناضج سليم. وهكذا تبطن الأسرار أو تكمن في الصدور حتى يباح بها
فتنتشر في ميادين المعرفة.

معرفة الظاهر لا تتحقق إلا بالتعرف على جوهره، على أسراره وخفاياه،
فالإنسان يبطن في جوهره كما يبطن أو يكمن في بصماته. ولذلك فإن
تحليل البصمات لم يكن الغاية منه التعرف على البصمة، بل الغاية معرفة
صاحبها أولاً، ثم معرفة علاقته بالفعل المرتكب أو السلوك ثانياً، وثالثاً معرفة

العلل والأسباب التي دفعت الإنسان إلى ارتكابه، وعندما يختفي الشيء عن الحس ولم يتم التعرف عليه بالمشاهد والملاحظ، يكون كامنا في الشيء ذاته. وليس معنى ذلك أن الكامن هو الذي لا يشاهد، فكثيرا من الأشياء الكامنة يمكن مشاهدتها، ولا يمكن التعرف عليها إلا بعد معرفة مكنها، فالسارق قد يقوم بفعل السرقة، ولم يتم القبض عليه، وقد يكون بيننا عند بحثنا عن السارق وأثاره لكي يبعد عنه الجريمة أو التهمة، وكأنه لم يكن سارقا، وبعد إجراء عملية المقارنة البصماتية، تم القبض عليه فكان هو السارق.

وبناء على ذلك قد يكون الكامن مشاهدا، وقد لا يكون كذلك. وقد يتوحد الكامن في الظاهر كما تتوحد الأسرة في أفرادها، والمجتمع في حشوده. ولذا فإنّ الزواج والطلاق والأسرة والمجتمع، لا يمكن أن تشاهد، ولكنها تُلاحظ، وإلا هل هناك من يستطيع أن يراء (يشاهد) الزواج. لا يمكن أن يخضع الزواج للمشاهدة، بل الذي يخضع لذلك هو التقاء الزوجين (فردين) على موضوع متفق عليه بعقد شرعي ويعلن عنه ويُدعى الناس إليه. إذن الذي تتم مشاهدته، هو الزوجين الذكر والأنثى، والعقد المكتوب بينهما على ورق، والناس الذين حضروا لأجل ذلك، وهذا كله لم يكن الزواج، بل هذه مراسم الزواج. الزواج توادد، وتقاربٌ وجداني يسمو بالزوجين إلى التباس بعضهما، حبا واشتياقا وفق اتفاق على مستقبل مشترك، يجعل الآخرين شاهدين على ذلك بأنه الحقّ، ومحرضين عليه. إذن الزواج كموضوع يكمن في العلاقة بين أسرة وأسرة، وذكر وأنثى، وهذه تُلاحظ، ولا تشاهد بالعينين. والطلاق كموضوع هو الآخر يُلاحظ، ولا يشاهد، وهكذا تكمن الأسرة والمجتمع في عناصرهما المكونة لكل منهما، ولا يخضعان للمشاهدة، لان الذي يشاهد هم الأفراد، كبار وصغار، ذكور وإناث، وحشود من البشر، وهؤلاء لم يكونوا هم الأسرة، ولا المجتمع، مع أنّهم عناصر تكوينهما، فبدون

علاقات مشتركة ذات معنى لا يمكن للعناصر المشاهدة أن تعطي معنى للأسرة، أو المجتمع، ولهذا تتكون معارفنا من ظاهر وباطن وتوحد بينهما. فنحن نعرف الأبوة، والأمومة، والأخوة، ونعرف الخال والجد، ونعرف أيضا أن هذه المفاهيم جميعها لا تشاهد، لأنها كامنة ومرتبة على علاقات يمكن ملاحظتها.

وعليه ليس كل ما يشاهد يعد معرفة كافية، بل قد يكون الكامن هو المعرفة الوافية. ولكن من أجل المعرفة العلمية ولكي تكون متكاملة ينبغي أثناء تحليل البيانات والمعلومات، ألا يغفل الخليفة عن أهمية ربط المشاهد والملاحظ بالكامن حتى لا تكون المعرفة قاصرة.

وللمزيد من التوضيح هل العبادات كدلائل كامنة، هي بالتمام العبادات كسلوك مشاهد. فالحج على سبيل المثال، هل هو ما نشاهده من سلوك، أم أنه أكثر من ذلك. أن المشاهد أثناء أداء فريضة الحج هو حشود من البشر، ترتدي زي موحد (الإحرام) وتقوم بحركات واحدة في مواقيت معينة، ويلحظ عليها التعاون، والانضباط، والمساواة في أداء الفرائض، وأنه لا رئيس لهذه الحشود من البشر (الحجيج) ولا فوارق بينهم. فهل هذا السلوك المشاهد، والملاحظ هو الحج. في اعتقادنا السلوك الظاهر، هو السلوك العملي لأداء فريضة الحج، ولم يكن الحج في ذاته. فالحج عقيدة وإيمان بوحداية الله، واعتراف بقدسية ذلك المكان، الذي تهدمت فيه الأصنام والأوثان، ويقين بأن ما قام به محمد (ص) من سلوك، هو الحق الذي يستوجب الإتيان. ولهذا لو لم يكن هناك مدلول باطنا لفريضة الحج، ما كان هناك ظاهر سلوكيا له.

قال تعالى: {ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نُعَاسًا يَعْشَى طَائِفَةٌ مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا

يُبْدُونَ لَكَ يَتَوَلَّوْنَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي
بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي
صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ {345} فقولته
تعالى: (يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ) إثبات أنه الباطن، وإلا كيف
علم ما يخفون لو لم يكن باطن، أنه يعلم السر وأخفى، {لَهُ مَا فِي
السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ
يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} {346}. ولهذا يخفون
في أنفسهم ما لا يبديون لك، تثبت حقيقة إن الباطن غير الظاهر، فظاهر
القول شيء وباطنه شيء آخر، والباطن وحده يعلم ما يخفون وما يسرون.

قال تعالى: {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ} {347}، خائنة
الأعين تدل على أن حاسة البصر ومحيطها الحسي يظهر علامات الصدق
والكذب وعلامات الخوف والفرحة أو الحزن، فمن يكون متفرّسا في
مشاهدته وملاحظته يستطيع استقراء المكتوب على الجبين بأفعال الحواس
وردود أفعالها ذات العلاقة بما هو مخفي، وإذا كان الحال هكذا على المستوى
البشري فما بالك بمكن يعلم ما تخفي الصدور إنه الباطن جلّ جلاله.

قال تعالى: {هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّوهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ
وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْعَيْظِ قُلْ مُؤْتُوا
بِعَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ إِنَّ تَمَسَّسَكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤُهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ
سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ
مُحِيطٌ} {348}. يلحظ توضيحا بينا بأن المنافقين هم دائما يظهرون ما لا

345 آل عمران 154.

346 طه، 6-8.

347 غافر 19.

348 آل عمران 119، 120.

يظنون، فهم في الظاهر يقولون بألسنتهم أنهم مؤمنون، وإذا خلوا، إذا انفردوا بحالهم يظهرون ما كانوا يظنون وهو الكره والحقد على من آمن، ولأنه جلّ جلاله باطن فهو يعلم كل علم الباطن سواء كان في خائنة الأعين أو في الصدور ومهما كانت الأسرار فهو يعلمها وهي باطنة، ولهذا قال للمنافقين عزّ وجلّ وهو يبنه رسول الكريم عليه الصلاة والسلام بباطنهم بقوله: (قُلْ مُؤْتُوا بِعَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ إِنَّ تَمَسَّنْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا).

قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} 349، ولأن الخليفة لا يعلم إلا ما وقع في الماضي وما يقع في الحاضر ويتوقع ما سيحدث في المستقبل استقراء واستنباطا، فهو يعلم أيضا أن علم كامل في دائرة المطلق وهو لا يعلمه، أي انه يعلم أن الساعة آتية وهو يعلم أن أمرها علم غيب، أي لم يكن ممكنا معرفته في دائرة الزمان والمكان على مستوى العقل البشري.

واقتبس من روايتنا التي نشرت 2001م بعنوان (البستان الخُلم) ما يفيد التبين بين علم الغيب وعلم المستقبل "قصة لطيفة يا جدي، والحوار فيها ليس غريبا عن تفكير بعض من يتماثل تفكيره مع تفكير كتكوت، فأنا بعد أن تيقنت بأن اليوم الآخر أوسع وأعظم من يومنا هذا تيقنت أننا بني البشر في وسط هذا العالم مثل الكتكوت في وسط البيضة.

ها أنت يا بني قد عرفت الشيء بالشيء ذاته، وما عليك الآن إلا أن تتعرف على فلسفة هذه العلوم لكي تتمكن من معرفة الفرق بين علم الغيب وعلم المستقبل.

أعرف جيدا أنه لا فرق بين علم الغيب وعلم المستقبل.

لا يا ولدي، الفرق كبير، علم الغيب لا يعلمه إلا الله تعالى، أمّا علم المستقبل فكلنا نعلمه وفقا لافتراضاتنا وخططنا.

استغفر الله يا جدي ما علم المستقبل إلا من علم الغيب وهذا لا يعلمه إلا الخالق سبحانه وتعالى.

يا بني لو سألتك: من أجل ماذا تأكل وتشرب وتنفس. ألا تُجيبني من أجل المستقبل.

نعم لو لم أتنفس واشرب واكل الطعام لا مستقبل لي على الإطلاق.
وإذا سألك غيري يا ولدي بقوله: لو تحكّم أحد في مشربك ومأكلك وحاول أن يمنعك من استنشاق الأكسجين فماذا تفعل.

أقتله يا جدي قبل أن يقتلني.

لماذا.

لكي أعيش المستقبل.

ولماذا أنت راغب في حياة المستقبل.

أولا: أنا نفس بريئة وقتل النفس البريئة مُحَرَّم.

ثانيا: أريد أن أفعل خيرا في هذه الحياة الدنيا لعله يفيدني في تلك الحياة الآخرة.

وثالثا: أريد أن أتعلم وأعمل وأبني مسكنا وأتزوج ليكون لي أبناء أعلمهم وأزوجهم من بعدي، وأنا اهديهم إلى الطريق المستقيم في مرضاة الله الباطن والظاهر.

من أجل ماذا يا بني تريد أن تعمل كل هذا.

من أجل المستقبل.

إذن لديك خطة تستهدف بها كل ما ذكرت وأكثر.

نعم وهذا ما أمل أن أحققه في المستقبل.

ولكن هل يمكنك أن تضع خطة علمية وأنت لا علم لك بمبرراتها أو أنك لا تعلم الأهداف التي من ورائها.

بالطبع لا.

إذن لا أهداف إلا في المستقبل، وإلا فمن أجل ماذا تصلي وتصوم وتزكى وتؤمن على ممتلكاتك.

كل ذلك من أجل المستقبل.

إذن لو لم تعلم بأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وفي الزكاة طهارة للنفس وما تملك وفي الصوم سلامة للروح والبدن ما نويت القيام بها قبل أن تفعلها، وعندما تؤديها لا جزاء لك عليها إلا في المستقبل.

يبدو أن كل حياتنا هي من أجل المستقبل، ولهذا يمكننا التعرف على علم المستقبل من أوسع ميادينه إذا سعينا، وهو مثل الفرض الذي يستنبط من الموضوع ليربط العلاقة بين متغيراته، ويمكن إثباته أو بطلانه بالنتائج المتوقعة له، فالبحوث العلمية تنطلق من فرضيات في الزمن الآن وتسعى إلى تحقيقها في الزمن المستقبل.

هذا صحيح ولذا نؤمن بأنّ اليوم الآخر يقع في المستقبل بما فيه من عقاب وثواب وجنة ونار ونؤمن أنّ علم الغيب وقع ويقع وسيقع إن شاء الله.

والله هذا صحيح، وبما أنّ الأمر هكذا إذن ما هو علم الغيب.

علم الغيب إنه في الباطن فلا يعلمه إلا الله، فنحن نعلم بأن الساعة آتية في المستقبل لا محالة، ولكن متى وكيف هذا علم غيب، وعندما يكون اليوم الجمعة نعلم أن غدا سيأتي السبت بالقوة مادامت الحركة الفلكية مستمرة، ومع ذلك قد لا يأتي غد السبت بالإرادة، فأنت يا بني عندما تفكر في المستقبل تعلمه وعندما تفكر في الغيب لا تعلمه مع أنك تعلم بوجوده، وعندما ترسم خطة لمستقبلك القريب أو البعيد فإنك ستوفر لها الإمكانيات التي تمكنك من تحقيقها وفقا لعلم المستقبل ولكنك قد لا تحققها وفقا لعلم الغيب.

جزاك الله خيرا يا جدي الآن فهمت الفرق بين العلمين، فأنا على سبيل المثال سأكتب كتابا في المستقبل بعنوان (تواصل الحضارات) والآن أكتب كتاب عن (الخليفة في أسماء الله اللطيفة)، ولكن قد لا أتمكن من تأليفهما أو إتمام ما أنا أكتب وفقا لعلم الغيب، وهكذا حال الطبيب الذي قرر إجراء عملية إشعاعية بعد غد لمريض لإنقاذ حياته من الموت فقد لا يتمكن هو كذلك بسبب موت المريض قبل الموعد المحدد لإجراء العملية أو بموت الطبيب المخطط لذلك.

ها نحن على اتفاق مع علماء الأرصاد بأن غدا سيكون الطقس معتدلا وعلى اتفاق بأن غدا قد لا تشرق فيه الشمس علينا من جديد.

جدي، بما أنّ للشمس خالقا عظيما فلا بدّ أن تشرق من جديد.

معك حقّ، بما أنّها موجودة قد تشرق على غيرنا ولا تشرق علينا، وبالضرورة لن تشرق عندما لا يُراد لها أن تشرق.

إذا انتهت الشمس من الوجود فلا بدّ وأن تنتهي القمر الجميلة هي الأخرى من الوجود والتي لا أظن أن هناك أجمل منها.

خالقها أجمل.

نحن في عصرنا نحكم على ما يشاهد ولا نحكم على ما لا يشاهد. هذا غير صحيح. هل شاهدت علم الغيب وعلم المستقبل عندما استطعت أن تقارن بينهما وتؤمن بهما.

بالطبع لا.

إذن بماذا حكمت عليها.

بالعقل.

إذن لا تنس أنّ العقل الذي تحكم به بين الأشياء أو عليها لا يشاهد، وعليك أن تعرف القاعدة العلمية التي تنص على أن (المخلوق دائما لا يرى خالقه والخالق دائما يرى ما خلق)"350

وعليه فالباطن هو الله والظاهر هو الله، ومنه جلّ جلاله ظهرت الأشياء والمخلوقات وبطنت في الأسرار التي من ورائها، كما كمن سرّ إسماعيل في دعاء إبراهيم عليهما الصلّاة والسّلام، وكما ظهر إسماعيل نبيا بعد سرّ لا يعلمه إلا الباطن جلّ جلاله.

ولهذا سيظل اختيار مكة مستقرّا لإسماعيل وذريته علم باطن لا يعلمه إلا الباطن الظاهر جلّ في علاه، وهكذا بدأت أولى الرّسالات السماوية في مكة وانتهت بها سرّا وعلنا.

350 عقيل حسين عقيل، البستان الحلم، فاليتا، 2001م، ص 177 - 181.

من

صفات النبي إسماعيل

تميّز إسماعيل صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكثير من صفات الخير وبالفضائل التي وصفه الله عزَّ وجلَّ بها:

1- حلِيم: {فَبَشِّرْهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ} 351.

والحلِيم في اللغة صفة للموصوف بالحلم، فعله حَلِمَ ويعني "الأناة والتثبُّت في الأمور وذلك من شِعَار العقلاء" 352، فصفة الحلم تعني الأناة ومعالجة الأمور بصبرٍ وعلم وحكمة، وفي مقابلها العجلة المفسدة لأمر الدين والدنيا. والحلِيم هو الذي يرغب في العفو ولا يسارع بالعقوبة، قال الله تعالى في وصف نبيه إسماعيل صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (فَبَشِّرْهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ).

والحلم لا يكون حلما مع الضعف والعجز عن المعاقبة، والجهل بالفعل الذي يكون الحلم فيه، ولذلك فلا بدَّ أن يستوجب الحلم عدة أشياء ضرورية لاعتباره حلما، منها:

1- القوَّة:

فالحلم يعتبر ضعفا إذا لم يكن الحلِيم قويا فيكون بذلك مثلبة لا مكرومة.

وقد قال النابغة في ذلك:

ولا خير في حلم إذا لم يكن له... موارد تحمي صفوه أن يكدر

هنا نتساءل:

351 الصفات 101.

352 لسان العرب، ج 12، ص 145.

هل كان إسماعيل قويًا؟

الأصل في الأنبياء والرسل أن يكونوا أقوياء كجزء من مواصفات من يقوم بمهمة الرسالة إذا لم نقل أساسا من أهم أسسها مصدقا لقوله تعالى: { يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ } 353، والمسألة هنا لا ترتبط بنبي دون آخر فمهام الرسالة لا بد لها من قوة تسهم في الأداء والتبليغ المكلف به النبي والرسل، والقوة المقصودة لا تقتصر على القوة الجسدية، بل هي مزيج من قوة، جسدية وروحية معا، وعلى النحو الآتي:

أ- القوة الجسدية

تظهر في أفعاله التي وصفها لنا رب العزة فقال: { وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } 354؛ فرفع القواعد مع أبيه عليهما الصلاة والسلام يتطلب ولا شك قوة، جسدية تؤهله لهذا الفعل.

الإيحاء الآخر بقوته يتمثل في فعل الخير، ومعلوم أن فعل الخير أنواع منه ما يطلب قوة، جسدية تعين الفاعل على فعل الخير كالسعي في الصدقات وإعانة الفقراء وزيارة المريض وغير ذلك ونعتقد أن إسماعيل كان يقوم بمثل ذلك وأكثر لأن الله سبحانه وتعالى وصفه بأنه من الأخيار فقال مخبرا عنه وعن غيره من المصطفين، { وَادْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ } 355.

ب- القوة الروحية (قوة العقيدة).

353 مريم 12.

354 البقرة 127.

355 - ص 48.

وتبدو واضحة دالة على قوّة عقيدة إسماعيل وهو يواجه بقوّة أمرا تضطربّ عنده النفس وينفلت الجسد هو أمر الذبح؛ إنّ القوّة تظهر في ردة فعل إسماعيل حيث كان الخطاب الموجه من الأب لابنه بالذبح أمرا إلهيا {فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ} 356، المواجهة كانت شديدة بين حبّ الحياة وحبّ الآخرة تصدى لها إسماعيل بقوّة ورباطة جأش، قل أو ندر أن تظهر في غيره إلا ما شاء الله فقال لأبيه دون تردد أو نقاش أو أخذ ورد مع أنّ الأب لم يفرض، بل عرض على ابنه أن ينظر في الأمر لكنّ إسماعيل اختار أن يظهر قوّة إيمانه ليكون أسوة للمؤتسي كما يخبرنا العليم الخبير عمّا جرى بين أب وابنه لا ثالث معهما إلا الله: {قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ} 357.

وعليه:

الحلم صفةٌ عامّة يتبعها عدّة صفات داخلية فيها، أو هي من توابعها، وكل هذه الصفات هي صفات حميدة، يمدح من يتصف بها وتهفو إليها كل النفوس السليمة والقلوب المؤمنة، ومنها:

1- الكرم

فالحلم يعتبر كرمًا من الحليم على المحلوم عنه بتجاوزه عن إساءته وعدم إجراء العقاب في حقه مع استحقاق المسيء لذلك العقاب قصاصا عادلا، ولكن تكرمًا من الحليم لم يعاقبه على إساءته مع قدرته عليه بل تسامح تاركًا باب الإصلاح مفتوحًا.

356 الصفات 102.

357 - الصفات 102.

وقد ورد هذا المعنى في تفسير قول الله تعالى: {اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ} 358. أي المتجاوز الحليم عن جهل العباد 359، "وهو الأكرم الذي له الكمال في زيادة كرمه على كل كرم، يُنعم على عباده النعم التي لا تحصى، ويحلم عنهم، فلا يعاجلهم بالعقوبة مع كفرهم وجحودهم لنعمه، وركوبهم المناهي وإطراحهم الأوامر، ويقبل توبتهم ويتجاوز عنهم بعد اقرارهم العظائم. فما لكرمه غاية ولا أمد، وكأنه ليس وراء التكرم بإفادة الفوائد العلمية تكرم" 360. وفي هذا الأمر الحق الله تعالى بيّن في الآية السابقة بقوله: {الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} 361، أن القلم رحمة والعلم رحمة والكتابة بالقلم حلم من الحليم بحال المستخلفين في الأرض سبحانه جلّ جلاله.

وعليه، الحليم هو الذي يعلم الصّعب، ويعلم بالأحوال، ويذل الصّعب استجابة للأحوال، فبحلمه خلق القلم، وأنزل العلم، وربط العلاقات بين القلم، والعلم، والعليم، والمتعلم، فكان الحق قولاً وعملاً، وكان العدل والميزان حلماً بأحوال العباد حتى لا يظلم أحدٌ أحداً وهذه رحمة من رحمته الواسعة التي بها جعل العباد مستخلفين فيها ليصلحوا ولا يفسدوا، قال تعالى: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ إِنَّ تُفْرَضُوا اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} 362.

2- الرّحمة:

358 - العلق، 3.

359 - تنوير المقباس، ج 2 ص 148.

360 - تفسير الكشاف، ج 7 ص 155.

361 - العلق، 5، 4.

362 التباين 16 . 18.

يعتبر الحلم رحمةً من الحليم القوي الذي يعلم من نفسه القدرة على معاقبة من أساء في حقّه لو أراد ذلك بالمسيء المحلوم عنه، لا لعجزٍ ولا خوفٍ، ولكن رحمةً به وإتاحةً للفرصة له للتوبة والندم حتى يكون ممن ينالون الثواب بدل العقاب. قال تعالى: {وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ لَدُنَّ عِلْمٌ لَعَلَّهُمْ يَحْتَفَتُونَ} 363.

ويتضح هذا المعنى في قوله تعالى: {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ} 364. فتأخير العقوبة على الظالمين من بني آدم هو نتاج حلم الحليم المطلق جلّ جلاله وهو رحمةٌ من الله بالمدنّب نفسه، بإعطائه فرصة للتوبة لسببين:

السبب الأوّل: لغاية استخلافية حيث أنّ أصل خلقه في أحسن تقويم.

والثانية لتكون له الجنّة عاقبة مع المتقين الذين كانوا هم المستخلفين في الأرض.

فعن ابن مسعود قال: "كاد الجعل يهلك بذنّب ابن آدم"، وقيل لو أهلك الآباء بكفرهم لم تكن الأبناء 365.

وقد فسّر ابن عاشور في تفسيره قول الله تعالى: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ} 366 بأنها استئناف الثناء على سيدنا إبراهيم صلّى الله عليه وسلّم،

363 الأنعام 54 . 56.

364 - النحل، 61.

365 - تفسر الكشاف، ج 3 ص 367.

و(أواة) فُسِرَ بمعانٍ ترجع إلى الشفقة، إما على النفس فتفيد الضراعة إلى الله والاستغفار، وإما على الناس فتفيد الرحمة بهم والدعاء لهم لأجل الهداية إلى الحق 367.

3- الرفق:

والحلم كذلك يُعْتَبَرُ رفقا من الخليم بالمحلوم عنه، فالخليم ترك المعاقبة للمسيء ترفقا به؛ لعلمه أنه لن يطيق ما يمكن أن يقع عليه من العقاب وأملا في أن يندم على إساءته ويرجع عنها حتى لا يتعرض للعقاب، إن لم يتب ويستغفر. وفي حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم: "إنّ الله رفيقٌ يحبّ الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي ما سواه" 368.

وعنها أيضا قالت: قال رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم: "إنّ الرفق لا يكون في شيءٍ إلا زانه، ولا يُنزع من شيءٍ إلا شانه" 369، وقد جعل النبي صَلَّى الله عليه وسلّم من لا يتصف بالرفق محروما من الخير كما جاء في حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم: "من يُحرم من الرفق يُحرم الخير كله" 370.

فعلى عباد الله الذين يحسنون عبادتهم، ويطيعون خالقهم، ويدركون معنى أن يكون العبد خليفةً لخالقه، ومعنى أن يستخلفه خالقه في شيءٍ ما، أن يحرصوا كل الحرص على الاتصاف بصفات الله عامّة، ويتخلّق بخلقه؛ وذلك بأن يكون حليما في حياته مع من سواه من العباد: حليما مع والديه،

366 - التوبة، 114.

367 - التحرير والتنوير، ج 6 ص 393.

368 - صحيح مسلم، ج 12 ص 486.

369 - صحيح مسلم، ج 12، ص 487.

370 - صحيح مسلم، ج 12 ص 485.

وأبنائه، وزوجه، وجيرانه، وأصدقائه، وزملائه، وعلى كل من يتولى أمرهم أو يؤتمن عليهم، فيكون بذلك قد اكتسب كل الصفات التي يتضمنها الحليم من رفيقٍ ورحمةٍ وكرمٍ، وغيرها من الصفات التي تعد من فضائل الأخلاق، فينال بذلك احترام وتقدير العباد له كجزاء دنيوي من الله سبحانه وتعالى وينال رضا الله عنه في الآخرة، ويكون بذلك فيمن يستحقون أن يتشرفوا بخلافة الله، وأن يكونوا خلفاء للمولى في الأرض، فينالون بذلك فضل الدنيا والآخرة.

وخلاصة القول في ذلك أنّ الحلم هو: تجرّع الغيظ، ودعامة العقل وعلامة علو الهمة والثقة بالنفس، فلا يحركها الغضب بسرعة.

وأنّ الحليم هو من أوسع الناس صدرا، وألينهم عريكةً، وأشدّهم ثباتا وأفواهم جنانا، فلا تستفزه بدايات الأمور، وينظر إلى عواقبها ومآلاتها ولذلك من يفتقد هذه الخلة قد يُفسد أكثر ممّا يُصلح.

والحلم من الصفات التي يجبها الله في عباده، فعلى العبد أن يدرك أنّ توحيد الله في اسمه الحليم مقتضاه أن يكون الموحد حليما صبورا يتأني في رأيه وحكمه وقوله وفعله، ويتخير ما هو أنفع له وللآخرين، ويبادر بالتوبة إلى الله الحليم، روى مسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنه أنّ النبي صلّى الله عليه وسلّم قال لأشج بن عبد القيس: "إِنَّ فِيكَ حَصَلَتَيْنِ يُجِبُّهُمَا اللَّهُ الْحِلْمَ وَالْأَنَاةَ"³⁷¹. وفي رواية أخرى عند أبي داود وحسنها الألباني: "إِنَّ فِيكَ حَلَّتَيْنِ يُجِبُّهُمَا اللَّهُ الْحِلْمَ وَالْأَنَاةَ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَا أَتَخَلَّقُ بِهِمَا أَمْ اللَّهُ جَبَلَنِي عَلَيْهِمَا؟ قَالَ: بَلِ اللَّهُ جَبَلَكَ عَلَيْهِمَا، قَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَبَلَنِي عَلَى حَلَّتَيْنِ يُجِبُّهُمَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ"³⁷².

371 - صحيح مسلم، ج 1، ص 107.

372 - سنن أبو داود، ج 1، ص 457.

وعلينا أن نعرف الحلم والإمهال: إنَّ كل حلم إمهال وليس كل إمهال حلما لأنَّ الله تعالى لو أمهل من أخذه لم يكن هذا الإمهال حلما لأنَّ الحلم صفة مدح والإمهال على هذا الوجه مذموم وإذا كان الأخذ والإمهال سواء في الإصلاح فالإمهال تفضل والانتقام عدل وعلى هذا يجب أن يكون ضد الحلم السفه إذا كان الحلم واجبا لأنَّ ضده استفساد فلو فعله لم يكن ظلما إلاَّ أنه لم يكن حكمة ألا ترى أنه قد يكون الشيء سفها وإن لم يكن ضده حلما وهذا نحو صرف الثواب عن المستحقِّ إلى غيره لأنَّ ذلك يكون ظلما من حيث حرمان من استحقَّه ويكون سفها من حيث وضعه في غير موضعه ولو أعطي مثل ثواب المطيعين من لم يطع لم يكن ذلك ظلما لأحد ولكن كان سفها لأنَّه وضع الشيء في غير موضعه، وقولنا الله حلِيم من صفات الفعل، ويكون من صفات الذات بمعنى أهل لأنَّ يحلم إذا عصي، ويفرق بين الحلم والإمهال من وجه آخر وهو أن الحلم لا يكون إلا عن المستحقِّ للانتقام وليس كذلك الإمهال ألا ترى أنك تمهل غريمك إلى مدة ولا يكون ذلك منك حلما، ولذا فالحلم لين، والحليم عطوف رؤوف بحال من هم في حاجة، فيتجاوز عنهم حتى يعلموا أنه رؤوف رحمن رحيم.

قال الله تعالى: {وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمْ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدْرَهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرَهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ} {373} إذا الحليم هو الذي يعلم ما في أنفسنا، وهو الذي لا تخفى عنه خافية، فهو يعلم الظاهر والباطن وهو على كل شيء قدير، ولأنَّه كذلك لو شاء لعاقبنا على ما في أنفسنا من شكوك أو ظنون أو نوايا حيث لا كمال في العباد. وفي ذلك جاء في شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة "الحليم هو الذي يَدْرُ على خلقه النعم

الظاهرة والباطنة، مع معاصيهم وكثرة زلاتهم، فيحلم عن مقابلة العاصين بعصيانهم"374.

وحلمه أنّ العبد يجاهره بالمعاصي مع فقره الشديد إليه، حتى أنّه لا يمكنه أن يعصي إلا أن يتقوى عليها بنعم ربّه، والرّب مع كمال غناه عن الخلق كلهم من كرمه يستحي من هتكه وفضيحتة وإحلال العقوبة به، فيستره بما يقيض له من أسباب الستر، ويعفو عنه ويغفر له، فهو يتحجب إلى عباده بالنعم وبعضهم يتبعّضون إليه بالمعاصي.

ويستحي تعالى ممن شاب في الإسلام أن يعذبه وممن يمدّ يديه إليه أن يردّها صفراً، ويدعو عباده إلى دعائه ويعدّهم بالإجابة وهو الحيّ السّير يحب أهل الحياء والستر، ومن ستر مسلماً ستر الله عليه في الدنيا والآخرة، ولهذا يكره من عبده إذا فعل معصية أن يذيعها، بل يتوب إليه فيما بينه وبينه ولا يظهرها للناس، وإنّ من أمقت الناس إليه من بات عاصياً والله يستره، فيصبح يكشف ستر الله عليه، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُجِبُونَ أَنْ تَشِيْعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رءُوفٌ رَحِيمٌ}375.

الحليم جلّ جلاله هو الذي يشاهد معصية العصاة ويرى مخالفة الأمر ثم لا يستفزه غضب ولا يعتريه غيظ ولا يحمل على المسارعة إلى الانتقام مع غاية الاقتدار عجلة وطيش كما قال تعالى: {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَانَهُمْ فَهُوَ وَيُيْهِمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ

374 شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة، ص 55.

375 النور 19، 20.

أَلَيْمٌ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً
لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ {376}.

الحليم هو الذي لا يعاجل بالعقوبة فكل من لا يعاجل بالعقوبة سمي
فيما بيننا حليما وليس قول من قال إنّ الحليم هو من لا يعاقب بصواب،
وفي ذلك قال الشاعر:

حليما إذا ما نال عاقب مجملا... أشد العقاب أو عفا لم يثرب

ولذا فالحليم هو من يصفح مع امتلاكه للقوة والقدرة وهو الذي بيده
الأمر ولا يعجل بالعقوبة وهو الذي لا يجبس إنعامه وأفضاله عن عباده
لأجل ذنوبهم، ولكنّه يزرُق العصي كما يزرُق المطيع، ويبقيه وهو منهمك
في معاصيه، والحليم سبحانه صبور يتمهل ولا يتعجل، فهو يمهل عباده
الطائعين ليزدادوا من الطاعة والثواب، ويمهل العاصين لعلمهم يرجعون للطاعة
والصواب، ولو أنه عجل بالجزاء أحدا ما نجا أحد من عقاب، ولكن الله
سبحانه هو الحليم ذو الصّفح والأناة، استخلف الإنسان في أرضه واسترعاه،
واستبقاه في هذه الحياة إلى يوم موعود وأجل محدود.

قال تعالى: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَلِيمٌ آوَاهُ مُنِيْبٌ} وهذا مدح عظيم من الله
تعالى للخليفة إبراهيم عليه الصلّاة والسّلام، ولذا فالحليم هو الذي لا
يتعجل بمكافأة غيره، بل يتأنّى فيه فيؤخر ويعفو. ومن يفعل ذلك يكون من
المستخلفين في الأرض بالحقّ يصلح فيها ولا يفسد ولا يسفك دما بغير
حقّ، ويتقي الله ربّه في القول والفعل والعمل.

وحلم الحليم لا شكّ فيه إمهال وهو جزء من حلمه سبحانه، لأنّ كل
حلم إمهال وليس كل إمهال حلما لأنّ الله تعالى لو أمهل من أخذه لم يكن
هذا الإمهال حلما لأنّ الحلم صفة مدح، والإمهال على هذا الوجه مذموم

وإذا كان الأخذ والإمهال سواء في الإصلاح فالإمهال تفضل والانتقام عدل، ويفرق بين الحلم والإمهال من وجه آخر وهو أن الحلم لا يكون إلا عن المستحق للانتقام وليس كذلك الإمهال ألا ترى أنك تمهل غريمك إلى مدة ولا يكون ذلك منك حلما، وقال بعضهم لا يجوز أن يمهل أحد غيره في وقت إلا ليأخذه في وقت آخر 377.

وعلى ذلك يمكن أن نحدد بعض ملامح إمهال الحليم؛ وهو على نوعين:

أولا: الإمهال المطلق: وهو الإمهال الذي عم به الحليم خلقه بالعموم، ولم يخص به أحدا من خلقه وهو راجع إلى إرادته عز وجل، وله غايات منها:

. العودة عن المعصية: إن الحليم هو المرید لإسقاط العقوبة في الأصل عن المعصية 378، ولهذا كان الإمهال وهدفه المراجعة والتفكير في أمر المعصية التي يقوم بها العبد من خلال الآيات، { وَقَوْمٌ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرَّسُولَ أَغْرَقْنَا هُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا } 379، { وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } 380، فهذه الآيات وغيرها من آيات الحليم سبحانه وتعالى هي للتفكير والتدبر ومراجعة العمل وأخذ الدروس والعبر، ومثلها الأمثال، يقول الحليم سبحانه ضاربا الأمثال: { وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ } 381، فعلينا التدبر، ويقول عز من قائل: { وَتِلْكَ الْأَمْثَالَ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا

377 الفروق اللغوية ج 1، ص 198.

378 الأسماء والصفات للبيهقي ص 349.

379 الفرقان 37.

380 العنكبوت 35.

381 إبراهيم 45.

إِلَّا الْعَالِمُونَ} 382، وفي تفسير الرازي "وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ يعني حقيقتها، وكون الأمر كذلك لا يعلمه إلا من حصل له العلم ببطلان ما سوى الله وفساد عبادة ما عداه، وفيه معنى حكيمي وهو أن العلم الحدسي يعلمه العاقل والعلم الفكري الدقيق يعقله العالم، وذلك لأن العاقل إذا عرض عليه أمر ظاهر أدركه كما هو بكنهه لكون المدرك ظاهرا وكون المدرك عاقلا، ولا يحتاج إلى كونه عالما بأشياء قبله، وأما الدقيق فيحتاج إلى علم سابق فلا بد من عالم، ثم إنه قد يكون دقيقا في غاية الدقة فيدركه ولا يدركه بتمامه ويعقله إذا كان عالما. إذا علم هذا فقلوه: (وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ) يعني هو ضرب للناس أمثالا وحقيقتها وما فيها من الفوائد بأسرها فلا يدركها إلا العلماء" 383.

وهذه الأمثال تُضرب لإثارة العقل الإنساني ودعوته للتفكير في الدواعي والأسباب الموجبة لضرب هذا المثل ثم استخلاص العبر من أجل حصول الفائدة، وفي ذلك كله مهلة زمنية تتاح للعبد لكي ينجلي عنده ظلام الضلال وينبجس صبح الهداية وهذا المراد من ضرب الأمثال من الحليم.

ثم يأتي أهل الذكر من المتبحرين في كتاب الله وسنة نبيه وهؤلاء من علامات الهدى التي أمر الحليم عباده بالعودة إليهم لاستبيان الحق فقال عز من قائل: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} 384، هذه كلها من دوافع التذكر والعودة، فإذا استنفذ العبد كل ذلك ولم يرجع عن معصيته إلى طاعة الخلق عز وجلّ يحل عليه غضب الله، ويكون قد دخل في ساعة العقاب على ما يشاء الله سبحانه، فإن شاء عاقب، وإن شاء مد المهلة والله واسع عليم رحيم كريم.

382 العنكبوت 43.

383 تفسير الرازي ج 12، ص 172.

384 النحل 43.

ومد المهلة أكثر قربًا من حظ العبد لأنّ الحليم وهو الذي يؤخر العقوبة على مستحقّيها ثم قد يعفو عنهم³⁸⁵، وهو الذي وسع حلمه أهل الكفر والفسوق والعصيان، ومنع عقوبته أن تحل بأهل الظلم عاجلاً، فهو يمهّلهم ليتوبوا، ولا يهملهم إذا أصروا واستمروا في طغيانهم ولم ينيبوا³⁸⁶.

. الزيادة في الطاعة، ويكون من غايات مهلة الحليم أن يزداد العباد علواً في درجات الطاعة أملاً في زيادة الأجر والثواب وارتقاء الدرجات العلى في اليوم الآخر، وقد دعاهم الحليم إلى ذلك ورغبهم فيه فقال جلّ جلاله: {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ خِتَامُهُ مِسْكٌَ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ} ³⁸⁷، وفي ذلك فليرغب الراغبون بالمبادرة إلى طاعة الله.

وقد وصفهم الحليم بأنهم من ذوي الألباب الذين يعرفون حقّ الله فيزيدون في طاعته ويكثرّون من ذكره طمعا في زيادة أجره وهم يعلمون أنه الكريم، {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ} ³⁸⁸.

385 الاعتقاد للبيهقي ج 1، ص 58.

386 شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة ص 95.

387 المطففين 22-26.

388 آل عمران، 190-194.

وهذا من لطف الحليم المتصف بالحلم، والحلم صفة كريمة تقوم على الحكمة والعلم والصبر، والحليم سبحانه صبور يتمهل ولا يتعجل، فهو سبحانه يمهل عباده الطائعين ليزدادوا من الطاعة والثواب 389.

والموصوفون هنا بالعلم (ذوي الألباب) يدركون رحمة الحليم بهم في مسألة الإمهال لزيادة الثواب، فهم يسعون للوصول إلى درجة المقربين، {فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ} 390، أو أن يكونوا من أصحاب الدرجات العلى، {وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى} 391، أو أن يكونوا من المفلحين أصحاب الفوز العظيم، {لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} 392، وهم في كل ذلك يهزهم الشوق إلى مزيد الحليم المخفي الذي وعدهم فشوقهم وجعلهم يتنافسون في الطاعات ويرغبون في المزيد، {وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْعَلِيمَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ} 393، انظر عظمة العطاء! الجنة بكل ما فيها وبكل عظمتها تتحرك باتجاههم وليس هم من يركض إليها، اللهم يا حليم اجعلنا منهم وأمة حبيبك محمد صلوات الله وسلامه عليه.

389 أسماء الله الحسنى، ص 30.

390 الواقعة 88-89.

391 طه 75-76.

392 التوبة 88-89.

393 ق 31-35.

. الزيادة في الإثم، ومن غايات المهلة ما حُص به الكافرون لعلة الكفر والإصرار عليه وذلك لزيادة الإثم، يقول الحليم سبحانه وتعالى: {وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَهُمْ وَعَدَابُ اللَّهِ مُهِينٌ} 394، فالمهلة هنا مهلة زمنية ومادية، حيث أن الإمداد المادي يحتاج بكل تأكيد إلى مساحة زمنية والغاية زيادة ارتكاب الإثم، وهذا ما تؤكدُه الآية الكريمة التي يقول الحليم سبحانه وتعالى فيها: {وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ فَتَقَطُّوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ فَذَرَهُمْ فِي عَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ أَيْحَسِبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ} 395.

وتبقى رحمة الحليم أوسع من سخطه، فلو حدث أن انتبه أحد من الذين كفروا وعاد إلى الله مخلصاً فإنه سيجد الله تواباً بجلمه وكرمه، {وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا} 396، وسيجد من الله رحمة في الدنيا وسعة فإذا عاد عاد الله عليه بالنقمة والعذاب، {فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَىٰ اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} 397.

هذا الحديث كان عن المهلة المطلقة، وهي مطلقة من حيث النوع وليس من حيث الزمن، فالمطلق هنا البشر من عبيد الله، وليس الزمن، فلا زمن مطلق لأي شيء سوى الخلود الأخروي إما في الجنة جعلنا الله من الخالدين فيها، {قُلْ أُوْتِبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ دَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ

394 آل عمران 178.

395 المؤمنون 52-56.

396 النساء 110.

397 البقرة 275.

بِالْعِبَادِ {398، وَإِنَّمَا فِي النَّارِ أَجَارْنَا اللَّهُ مِنْ عَذَابِهَا، {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ} 399.

ثانيا: الإمهال المحدد، وهو ما كتب الله له الانتهاء بعد فعل أو زمن، فالحليم عليم بعباده وبتغييرات وتقلبات نفوسهم لذا فقد شملهم بالمهلة وكتب عليهم ثوابت من عنده فإذا أخلوا بها انتهت المهلة التي حددها الحليم لهم، فربما يكون الانتهاء بعد فعل مشروط، أي أن يفعل العبد فعلا منع منه ونبه إلى عاقبته كما فعل بنو إسرائيل، {وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوقًا كَبِيرًا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا} 400. فقد اقترن الانتهاء المهلة بفعل الإحسان فإذا انتهى الإحسان انتهت المهلة، وكذلك فإن كل انتهاء لمهلة الحليم يرتبط بكل تأكيد بفعل العباد، فمتى ما غيروا انتهت مهلة الرحمة وبدأ العذاب، {إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَاِل {401.

398 آل عمران 15.

399 البقرة 161-162.

400 الإسراء 4-8.

401 الرعد 11.

وقد يكون الانتهاء بعد زمن قدره الحليم سبحانه وتعالى، فهو لا يُعجل العقاب للعصاة قبل وقته المقدر 402، وهي مهلة محددة جعلها الحليم سبحانه كنوع من التحدي للأقوام التي وعدّها بالعذاب، حيث حددها في الغالب بزمن مخصوص فهل يستطيع هؤلاء رد العذاب وعندهم مهلة للتفكير وتدبير أمر إن شاءوا؟ وقد أعطى قوم ثمود مهلة محدودة وتحداهم أن يقدرُوا على رد العذاب فقال تعالى: {وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ مَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذْتُهُمُ الصَّاعِقَةَ وَهُمْ يَنْظُرُونَ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ} 403. وأمهل قوم لوط مهلة الليلة فقال إن موعد العذاب الصبح، {قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرَبَ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ} 404.

وإذا سأل سائل: لماذا الإمهال؟ نقول لأنه الحليم، {أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ حَلِيمٌ} 405.

فإذا قال: لماذا هو حليم؟ نقول لأنه العليم، ولماذا هو عليم؟ لأنه الخالق، {إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ} 406.

فالله هو الخالق والعليم بخلقه الحليم بهم، فقد خلق الخلق وهو يعلم ما به من النقص الحاصل أمام كماله جلّ شأنه، فكان حليماً به، هذا النقص نتج عنه ضعف في العبد يتمثل في الآتي:

402 المواقف الإيجي، ج 3، ص 319.

403 الذاريات 43-45.

404 هود 81.

405 البقرة 235.

406 الحجر 86.

1 . أنه هلوع، أي لا يصبر على خيرٍ ولا شرٍّ حتى يفعل في كلِّ واحدٍ مِنْهُمَا عَيْرَ الحقِّ 407، قال تعالى: { إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا } 408، هذا الهلع يوقع العبد في الذنب أحياناً، فلو لم يجد المهلة من الحليم سبحانه للتراجع والاستغفار لهلك، فسبحان الحليم العليم.

وعلى الخليفة أن يفهم هذه الخصلة في نفسه وفي غيره، فيعامل العباد معاملة العارف بهلوعهم من حيث حلمه عليهم وإدراكه لما يصيبهم من علل تؤدِّي بهم إلى الوقوع في الخطأ.

2 . عجول: قال تعالى: { وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالْشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا } 409، والعجالة شكل من أشكال الضعف، إما أمام رغبة يتعجل في تحقيقها، أو في قول يسبق إلى النطق به وهذا محاسب عليه كما الفعل لأن سبحانه يقول: { مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ } 410، وهذه العجالة يصاحبها في الغالب عمل يتعدى به حدود الله أو ينتج عنه معصية، ولو لم يكن الحلم منه عزّ وجلّ لحلّ بالعباد غضب الله ونزلت بهم عقوبته، وعلى الخليفة أن يتأني في النظر إلى الأمور وأن يتأني في الحكم على الأشياء حتى لا يسمح للعجلة بأن توقعه بما لا يريد الحليم له أن يكون من فعل أو قول.

3 . جزوع، وهو قلة الصبر: { إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا } 411، وهو من أمراض النفس المؤقتة التي تدفع بالإنسان إلى ارتكاب عمل خارج عن الطاعة، وما أن ينتهي الجزع حتى يعود الإنسان إلى رشده، ولو لم يكن

407 تاج العروس 1، 53.

408 المعارج 19.

409 الإسراء 11.

410 ق، 18.

411 المعارج 20.

الإمهال من الحليم الرحيم بحيث يرجع العبد إلى استقراره النفسي ثم يستغفر ويتوب لوقع في غضب الله سبحانه وتعالى.

4. منوع: أي مانع للخير: {وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا} 412، وإذا كثرت ماله، ونال الغنى تراه يبخل على المحتاج، فلا ينفق في سبيل الله، ولا يقرض محتاجا مع توصية الحليم له بذلك، بل أكثر من ذلك فقد نسب الاقتراض بمجمله إليه بقوله: {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ} 413، فلو لم تكن من مهلة لكي يتراجع العبد بعد أن يرى الآيات ويتدبر الأمثال ويستمتع لأهل الذكر، لوقع عليه سخط الله ما أن منع، فالمهلة هنا رحمة من الحليم الرحيم بعباده.

5. ضعيف: قال تعالى: {يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا} 414، وضعف الإنسان أمر بدأ مع خلق آدم، فقد ضعف آدم أمام الشيطان فاستجاب لدعوته بمخالفة الخالق: {وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ} فوسوس لهما الشيطان ليؤدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين وقاسمتهما إني لكم لمن الناصحين فدلأهما بغيرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكم إن الشيطان لكم عدو مبين} 415، ثم ضعف ابن آدم أمام رغبته الدنيوية، {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَمَ يُتَقَبَّلُ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ

412 المعارج 21.

413 الحديد 11.

414 النساء 28.

415 الأعراف 19-22.

اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ لَعْنٌ بَسَطَتْ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِلَيَّ أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الخَاسِرِينَ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُؤَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ {416}، والآيات التي توضح صورة الضعف الإنساني كثيرة وكلها تشير إلى أن الإنسان غير قادر على أن يكون قويا بالمطلق لأنه ليس القوي المطلق، فالقوي المطلق هو الله فكان لا بد أن يظهر الضعف فيمن سواه، هذا الضعف يحتاج إلى مهلة يستعين بها العبد فيتقوى بالطاعة والعودة والإنابة إلى الله الحليم.

هذه مفسرات دواعي المهلة وغيرها يعلمها الحليم الحكيم جلّ جلاله.

أما الطّرف الثاني من ثنائية الحلم فهي القدرة، وهي قدرة الأخذ، وقدرة الترك معا، فهو سبحانه حليم لا تهزه معصية العاصي لأنّها لا تضره ولا تنفعه سبحانه وتعالى، فهو الغني القادر، "وهو الذي يشاهد معصية العصاة ويرى مخالفة الأمر ثم لا يستفزه غضب ولا يعتربه غيظ ولا يحمله على المسارعة إلى الانتقام مع غاية الاقتدار عجلة وطيش" 417، كما قال تعالى: {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ} 418.

فقدرة الحليم حاصلة بالدليل، فكل الأقسام المهلكة أدلة على قدرته سبحانه وتعالى ويكفي أن نذكر عاد وثمود لنقول سبحانه القادر، {كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالقَارِعَةِ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاعِنَةِ وَأَمَّا عَادُ فَأُهْلِكُوا بِرِيحِ صَرْصَرٍ

416 المائة 27-31.

417 المقصد د الأسنى، الغزالي، ج 1، 103.

418 النحل 61.

عَاتِيَةً سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى
كَأَنَّهُمْ أَعْجَازٌ نُحْلٍ حَاوِيَةٍ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ {419}.

وهو حلِيم في عطائه، فهو "الَّذِي لَا يَحْسِبُ إِنْعَامَهُ وَأَفْضَالَهُ عَنِّ عِبَادِهِ
لَأَجَلٍ ذُنُوبِهِمْ، وَلَكِنَّهُ يُرْزِقُ الْعَاصِيَّ كَمَا يُرْزِقُ الْمُطِيعَ، وَيُبْقِيهِ وَهُوَ مِنْهُمْ كُنْ
فِي مَعْاصِيهِ كَمَا يُبْقِي الْبِرَّ التَّقِيَّ، وَقَدْ يَبْقِيهِ الْآفَاتِ وَالْبَلَايَا وَهُوَ غَافِلٌ لَا
يَذْكُرُهُ فَضْلًا عَنِّ أَنْ يَدْعُوهُ كَمَا يَبْقِيهَا النَّاسِكُ الَّذِي يَسْأَلُهُ، وَرَبَّمَا شَعَلَتْهُ
الْعِبَادَةُ عَنِّ الْمَسْأَلَةَ" 420.

فالرزق شامل للجميع بحلم الحلِيم سبحانه، {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا
عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} 421، فهو
الذي يَدِرُّ عَلَى خَلْقِهِ النِّعَمَ الظَّاهِرَةَ وَالْبَاطِنَةَ، مَعَ مَعْاصِيهِمْ وَكَثْرَةَ زَلَاتِهِمْ،
فِيحْلَمُ عَنِّ مَقَابِلَةَ الْعَاصِينَ بَعْضِيَانَهُمْ 422.

وحلمه سبحانه وتعالى فيه مودة واضحة الملامح للقاصي والدايني لأنَّه
الودود، فالعبد يجاهره بالمعاصي مع فقره الشديد إلى الله، حتى أنه لا يمكنه
أن يعصي إلا أن يتقوى عليها بنعم ربِّه، والرَّبُّ مَعَ كَمَالِ غِنَاهُ عَنِ الْخَلْقِ
كُلِّهِمْ مِنْ كَرَمِهِ يَسْتَحِي مِنْ هَتَكَه وَفُضِيحَتِهِ وَإِحْلَالَ الْعُقُوبَةِ بِهِ، فَيَسْتَرِهِ بِمَا
يَقِيضُ لَهُ مِنْ أَسْبَابِ السِّتْرِ، وَيَعْفُو عَنْهُ وَيَغْفِرُ لَهُ، فَهُوَ يَتَّجِبُّ إِلَى عِبَادِهِ
بِالنِّعَمِ وَهُمْ يَتَّبِعُونَ إِلَيْهِ بِالْمَعْاصِي، خَيْرُهُ إِلَيْهِمْ بَعْدَ اللَّحْظَاتِ وَشَرُّهُمْ إِلَيْهِ
صَاعِدًا، وَلَا يَزَالُ الْمَلِكُ الْكَرِيمُ يَصْعَدُ إِلَيْهِ مِنْهُمْ بِالْمَعْاصِي وَكُلُّ قَبِيحٍ 423.

419 الحاقه 4-6.

420 الأسماء والصفات 1، 142.

421 هود 6.

422 شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة، ج 1، ص 55.

423 المرجع السابق، ج 1، ص 95.

وحلم الخليفة يكون كحلم إبراهيم الذي حمده الربّ الحليم سبحانه وتعالى فقال عنه: { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ } 424، وهذا مدح عظيم من الله تعالى لإبراهيم، فالحليم هو الذي لا يتعجل بمكافأة غيره، بل يتأني فيه فيؤخر ويعفو ومن هذا حاله (الله) فإنه يحب من غيره هذه الطريقة (العبد الخليفة)، وهذا كالدلالة على أن جداله كان في أمر متعلق بالحلم وتأخير العقاب، ثم ضم إلى ذلك ماله تعلق بالحلم وهو قوله: (أَوَّاهٌ مُنِيبٌ) لأن من يستعمل الحلم في غيره فإنه يتأوه إذا شاهد وصول الشدائد إلى الغير فلما رأى مجيء الملائكة لأجل إهلاك قوم لوط عظم حزنه بسبب ذلك وأخذ يتأوه عليه فلذلك وصفه الله تعالى بهذه الصفة، ووصفه أيضا بأنه منيب، لأن من ظهرت فيه هذه الشفقة العظيمة على الغير فإنه ينيب ويتوب ويرجع إلى الله في إزالة ذلك العذاب عنهم، أو يقال: إن من كان لا يرضى بوقوع غيره في الشدائد فإن لا يرضى بوقوع نفسه فيها كان أولى، ولا طريق إلى صون النفس عن الوقوع في عذاب الله إلا بالتوبة والإنابة فوجب فيمن هذا شأنه يكون منيبا 425.

وعلى خليفة الله أن يكون حليما مع نفسه لكي يتمكن من أن يكون كذلك مع غيره، ولكن كيف يكون الإنسان حليما مع نفسه؟

أولا: أن يكون حليما في تدريب النفس على مقاومة الشهوات:

إنّ الإنسان مخلوق ضعيف، والدنيا مليئة بالشهوات والمغريات الكثيرة التي إن قاوم الإنسان إحداها صعب عليه مقاومة غيرها، قال تعالى: { يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا } 426، وهذا الضعف الذي تتفاوت نسبته من إنسان لآخر حسب الجانب الديني والأخلاقي وحسب

424 هود 75.

425 تفسير الرازي، ج 8، ص 444.

426 النساء 28.

البيئة والمجتمع ودرجة العلم وغيرها من العوامل التي يتأثر بها الإنسان وتؤثر على سلوكه، لذلك فقد يضعف هذا الإنسان أمام شهوة ما فيزل ويُخطئ، وبعد صحوة الإنسان من ذلك واتضح الرؤية لديه بعد تضليلها يبدأ في الاستغفار والعودة لطريق الحق، ولكننا نجد أنه في الأغلب يتكرر وقوع نفس الإنسان في ذنوب وأخطاء، ويأتي هنا كيفية علاج هذا الإنسان لهذه المعضلة، ويختلف البشر في ذلك فهناك من لا يصبر على تدريبها وتعويدها على العودة للحق والاستغفار وطلب التوبة من الله سبحانه وتعالى، في حين نجد القلة من يتصف بالحلم في معالجة نفسه وإرجاعها لحب خالقها وطلب رضاه، فلا يمل من محاورة الذات ومخاطبتها باللين، ويصبر على معالجتها من أي مرض قد يصيبها أو ضعف قد يعتريها، فلا ييأس ولا يتعب من تلك المحاولات لإعادة النفس إلى طريق الحق والهداية والتوبة.

ومن أخطر الأمور على الإنسان أن لا يكون حليما مع نفسه، فتراه ضجرا متأففا فاقدا للقدرة على معالجتها، فيصل إلى اليأس من إصلاحها ليجد نفسه إما غارقا في الذنوب والخطايا، بحجة أن الله لن يغفر له كثرة ذنوبه فما الفائدة من الاستغفار طالما الذنب يتكرر أو تجده مريضا نفسيا من الشعور بالخوف المرضي من العقاب.

ولأن خليفة الله لا بد أن يتصف بصفات خالقه عز وجل، فوجب عليه أن يكون حليما مع ذاته معطيا لها الفرص المتكررة للهداية والعودة للصواب والرشاد، فإذا كان الخالق حليما بنا لطيفا صبورا علينا فكيف لا نكون نحن كذلك من أنفسنا التي أوصانا الله تعالى بها وأودعها أمانة في رقابنا؟

وإذا وصل الإنسان إلى أن يكون حليما في تعويد نفسه على التوبة والصبر على التفاهم وفتح باب الحوار معها، فسوف ينعكس هذا الشعور بالرضا عن الذات على طريقة التعامل مع من حوله، فنراه هادئا راضيا حليما صبورا معهم، لا يتهور ولا يتعجل في أي أمر يجمع بينه وبينهم،

فيخلق بذلك هذا الخليفة جوا من الهدوء النفسي والراحة له ولمن حوله، فلا يتعجل بالعقاب لمن أساء إليه ولا يتهور في رد الإساءة والمبالغة فيها، إذ كان لابد من الرد فبحلمه لن يتجاوز حقه في الرد.

وعلى خليفة الله أن يكون يقرن حلمه بالقدرة، إذ أنه لا يستقيم وجود الحلم في الإنسان بوجود الضعف والتخاذل داخله، فالحلم يرتكز ويقوم على أساس من ثقة الإنسان بقدرته وقوته النابعة من حبه للاتصاف بصفات الله تعالى، فلا يوجه قدراته في نوبات الغضب والتهور، فلا يبالغ إذا امتلك القدرة في العقاب ولا يتجاوز الحد في أخذ حقه، قال تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ وَجِزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ هُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ {427، فمن الآية الكريمة السابقة نستطيع أن ندرك التالي:

إن الإنسان يستطيع أن ينتصر على ظلمه بالصبر والحلم، وهذه قدرة لا تتوفر لدى البشر جميعا، بل إننا نجد الأقلية النادرة هم من يتمتعون بهذه القدرة على الصبر والحلم.

أوضح وأقر المولى عز وجل أنه لا يجوز للعبد المبالغة والتعدي في استرداد الحق، حتى وإن كان قادرا على ذلك، فلا يجوز استخدام القدرة التي وهبها الخالق عز وجل للإنسان في وجوه الباطل الذي من شأنه ضياع الحقوق وعدم الشعور بالأمان والحماية في المجتمع المسلم.

أردف الله تعالى أمره بالعدل في استرداد الحق بالأفضل من ذلك ألا وهو العفو والحلم عمن أساء وظلم، لأن في ذلك خيرا للإنسان وللمجتمع

الإسلامي عامةً، فمن شأن العفو والحلم أن يشيع المحبة والود بين المسلمين، فلا يتردد مسلم عن العفو والحلم عند المقدرة.

الظلم هزيمة بعكس العفو فهو انتصار وقوة، تكون ثماره عائدة على الإنسان وعلى من حوله، والصبرّ والجلد عند وقوع الظلم هذا بحد ذاته قوة وثبات، وخير دليل على ذلك أنّ جميع الرّسل والأنبياء والصالحين قد كانوا أفقر النّاس على فعل ما يريدون وذلك بسبب القدرات التي حباهم الخالق بها مثل ما وهب الله تعالى لسليمان عليه السلام من معجزات كتسخير الرياح وغيرها ممّا يمنحه القوّة الفائقة لفعل ما لا يستطيعه باقي البشر وبالرغم من ذلك فقد جعل عليه السلام منها مصدرا للخير والصلاح، وكذلك سيدنا داوود عليه السلام، قال تعالى: {وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ} 428 قال تعالى: {وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ} 429.

وخليفة الله هو من عفا عند امتلاكه المقدرة على العقاب، وحلم عمّن لم يحلم عليه قبلا، فيرد عليه بحلمه وعفوه، فمن نتائج ذلك ما يلي:

1- إظهار سماحة ديننا الإسلامي للعالم:

فالدين الإسلامي عمل على ترسيخ أروع وأنبّل الأخلاق بين البشر، فتسمو الآدمية فوق كل شيء، ومن بين هذه الأخلاق الدعوة للحلم والعفو عند المقدرة، ليشيع بذلك التسامح والأخوة بين المسلمين.

2- نشر المحبّة والرّحمة بين العباد، فيتضاءل الظلم والطغيان في المجتمع، وبذلك ينمو الشعور بالأمان والود في نفوس المسلمين.

428 الأنبياء من 79.

429 الأنبياء 81.

3- الأجر العظيم الذي وعد الله تعالى به عباده الصابرين والذين يتميزون بالعفو عند المقدرة، قال تعالى: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} 430.

2- العلم بالأشياء:

لا شك أنّ الحليم يمتلك مفاتيح العلم بالأشياء ليتسنى له التمييز بين ما يستحقّ أن يحلم معه من الأفعال وما لا يستحقّ، لأنّه ليس كل الأفعال توجب الحلم فالباطل لا حلم معه، وهذه كانت صفة إسماعيل حليم عليم، والدليل على علم إسماعيل يتحصل لنا من النظر في مجموعة صفاته، فعبد عابد صابّر حليم من الأخير نبي رسول صفات كلها تفضي لأنّ يكون إسماعيل صلّى الله عليه وسلّم عليهما قادرا على أن يأخذ كفة الترجيح ليحكم بها فيميز بين الحقّ والباطل، فيكون حلمه بعد ذلك نابع من هذا العلم.

وبعد ذلك نقول: إنّ إسماعيل استمد صفة الحلم من اسم الله الحليم وعرف معانيها من علم النبوة والرسالة لذلك فإن كل ما في اسم الحليم من معان يقدر إسماعيل على فهمها واستيعابها والعمل بها ستكون منهجه في السلوك والتبشير والتبليغ.

3- قادر مقتدر:

إذا كان الحليم قادرا على مجازاة المسيء الذي حلّم عليه وعفا عن إساءته، برّد الإساءة بمثلها أو بإنزال عقاب آخر قد يكون أكبرّ منها أو مساوٍ لها، فإنّ عفوه وصفحه عن الإساءة مع هذه القدرة يكون حلما أمّا إذا لم تكن لديه القدرة على المعاقبة، فلا يكون عفوه حلما بل يكون ضعفا وعجزا.

ومن هنا؛ فإسماعيل امتلك القدرة بوصفه حليماً صفة وصفه الله بها وهي حقيقة فيه لذلك نعتقد، جازمين أنّ إسماعيل صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان قادراً على أن يحلم أو أن يترك الحلم، وهو بقدرته يختار الحلم في مواضع تستحق أن يتخذ الحلم سلوكاً، وتركه في مواضع كان سيبدو الحلم معها ضعفاً وعجزاً. وهو قادراً على حمل المسؤولية التي أناطه بها أبيه رؤية، {فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ} 431.

وعليه:

لا قدرة إلا من قادر، ولا قادر بالمطلق إلا القادر تعالى، ولا قدرة لقادر إلا إذا كانت صفته وقد استمدّها من القادر عزّ وجلّ، ولا مقدرة لأحدٍ على شيء ما لم يكن قد أولى أمره الله وتوكل عليه وقبل بدفع الثمن ولو كان حياته، وهذا ما حدث بالتمام مع إسماعيل عليه الصّلاة والسّلام الذي قبل الموت فكتبت له الحياة.

والمقتدر من أسماء الله تعالى، يوحي بالتمكن والهيمنة والتنظيم والتخطيط، فهو مالك هذا الكون ومدبّره وكل شيء يجري وفق إرادته وحكمته، وتتردد مع لفظة المقتدر كل من القادر والقدير، إلا أنّ لفظة المقتدر هي أبلغ، وذلك أنّ الأصل في لغة العرب أنّ زيادة اللفظ تزيد المعنى قوّة. وقد وردت أربع مرات في القرآن الكريم، وبالرغم من هذا التردد القليل تمثل عظمة الله تبارك وتعالى في تسيير أمور كونه كما يشاء، فهو يتعلق بأمور عدّه تكوّن بمجملها الدعائم الأساسية لهذا الكون الواسع، فالحياة على الأرض تمثل جانباً من جوانب اقتدار المولى تبارك وتعالى {وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ

هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرٌ { 432 فضلا عن ذلك وردت هذه اللفظة في موضع الانتقام من المشركين، قال تعالى: {فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ} { 433 وفي قوله تعالى: {كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُفَّهَا فَاخَذْنَاَهُمْ أَخَذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ} { 434، أما الآية الأخيرة التي وردت فيها فهي في قوله تعالى: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَهَرَّ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ} { 435، فهي تتحدث عن أهل الجنة، فهم مقربون عند ملك معجز أمره في الملك والاقْتَدَار، فلا شيء إلا وهو تحت ملكه وقدرته. وكل ما في هذا الكون يستسلم له ولا ينفك عن طاعته، من أكبر كوكب في السماء إلى أصغر ذرة من الرمل في الأرض، هو من تقدير إله ملك جليل مقتدر، فإذا كان كل شيء في السماوات والأرض وما بينهما منقادا لهذا التقدير، فإن العالم كله مطيع لذلك الملك المقتدر الذي خلقه.

المقتدر: هو مالك معطيات كل قدرة بالمطلق، فهو المقتدر بخلق، والمقتدر بإحيائه وإماتته وبعثه، وهو المقتدر بقوته وهيمنته، وهو المقتدر بسمعه وبصره، وهو المقتدر بمكره لكل مكر، وكيده لكل كيد، ونصره لكل خليفة، وهو القاهر فوق عباده، وهو الرحمن الرحيم.

والمقتدر المظهر قدرته بفعل ما يقدر عليه وقد كان ذلك من الله تعالى فيما أمضاه وإن كان يقدر على أشياء كثيرة لم يفعلها، ولو شاء لفعلها، فاستحقّ بذلك أن يسمى مقتدرا، والمقتدر المطلق هو كامل القدرة، والمقتدر بالإضافة هو تام القدرة، والفرق كبير بين كامل القدرة بالمعطيات

432 - الكهف 45

433 - الزخرف 41 - 42

434 - القمر 42

435 - القمر 54 - 55

الاطلاقية حيث لا نقيصة فيه، وبين تام المقدره وهو الذي لم يبلغ الكمال استحالة، ويملك معطيات الاقتدار في دائرة النسبية.

ولذا فالأقتدار أبلغ بكماله المطلق، والقدرة قد يدخلها نوع من التضمين بالمقدور عليه ومنها الملك والمليك في معناه، قال تعالى: {فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ} 436 وقوله تعالى: {فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ} 437.

والقَدِيرُ فَعِيلٌ، والمُقْتَدِرُ مُفْتَعِلٌ من اُقْتَدَرَ وهو أَبْلَغُ. والقَدِيرُ: هو الفَاعِلُ لِمَا يَشَاءُ عَلَى قَدْرِ مَا تَقْضِي الْحِكْمَةَ لَا زَائِدًا عَلَيْهِ وَلَا نَاقِصًا عَنْهُ وَلِذَلِكَ لَا يَصِحُّ أَنْ يُوصَفَ بِهِ إِلَّا اللَّهُ وَمِنْ اسْتَمَدَ صِفَاتِهِ مِنْهُ. والمُقْتَدِرُ هو الله تعالى، فَهُوَ الَّذِي يَنْتَفِي عَنْهُ الْعَجْزُ مِنْ كُلِّ وَجْهِ تَعَالَى شَأْنُهُ. 438 ووصف الخليفة فيه وارد، إذ يقول أحد هذا مقتدر، ويقصد بذلك من ناحية المال أو من ناحية المنصب أو الوجاهة أو العطاء في القول وأداء الأفعال الحسان وهذه من صفات الخليفة الذي استمد اقتداره من المقتدر الأعظم، أي أنه المتمكن من التصرف في الأمور التي هو قادر على أن يفعلها نتيجة ما يملكه من قوة اقتدار، إذ يقول تعالى {وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} 439 والمراد من التمكين هنا أن الله جلّ وعلا جعله ملكا يتصرف في الأرض يأمر وينهي.

436 - المؤمنون، 116

437 - القمر 55

438 - تاج العروس، ج 1 ص 3377.

439 - يوسف 21

المقتدر: هو من يملك الأمر ويحسن التصرف دون غفلة فلا يفوته شيء،
ولا شيء إلا منه، ومتى ما أراد له مشيئة يقول له كن فيكون.

ومن مظاهر اقتداره ما أذكره:

أولاً: يظهر أدوات مقدرته لخلقه:

أظهر الله سبحانه وتعالى مقدرته في مواضع كثيرة وهي بالكمال كما
جاء في القرآن الكريم، وهذا الأمر متعلق بأمور كثيرة، منها ما يتعلق بالكون
الذي تعيشه المخلوقات، ومنها ما يتعلق بالمعجزات التي ظهرت على يد
الأنبياء عليهم الصلوة والسلام، ومنها ما نعلمه ونستدل عليه ومنها ما لا
نعلمه حتى نستدل عليه، فالكون بوصفه الفضاء المفتوح أمام من خلق في
أحسن تقويم الذي يراه دائماً ويعن نظره به متسائلاً من خلق هذا الكون
العجيب؟ وعلى أي نظام يسير، ومن هو المخطط له حتى يجري بهذه الدقة
العجيبة فلا يصطدم القمر مع الشمس ولا النجوم بعضها مع بعض وكل في
فلك يسبحون، وهذه التساؤلات تقود إلى نصوص من القرآن الكريم
وأكثرها تحتوي على اشتقاقات الفعل (رأى) مثل قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي
يُرِيكُمُ الْبَرْقَ حَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ
وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي
اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ}440 هنا الباري عز وجل يستعرض آيات قدرته
وعجائب الكون الدالة على قدرة الخالق وحكمته وتدبيره، فضلاً عن ذلك
جعل البرق آية إنذار وتبشير معا لأنهم كانوا يسمون البرق فيتوسمون الغيث
وكانوا يخشون صواعقه.

وإنشاء السحاب: تكوينه بإثارة الأبخرة التي تتجمع سحاباً. ومع كل
التساؤلات فالخليفة لا تساؤل له لأنه يعلم وراء كل مخلوق خالق، والخالق

بالمطلق هو أحسن من المخلوق دون مقارنة ظنية أو شكية، ولهذا فهو المؤمن بالحقّ قولاً وإتباعاً بالعمل الصالح الذي ينتج خيراً كثيراً.

هنا يرى الخليفة قدرة الله سبحانه وتعالى من خلال ما يرى أمامه من عظمة الباري عزّ وجلّ وقدرته، فالبرق فيه جانبان، جانب يرغب فيه الخليفة، ففيه إشارة إلى نزول الغيث والذي فيه تتجلّى رحمة الله تعالى بإحياء الأرض، فيخرج منها ما يخرج رزقا للإنسان وبقية الكائنات، إذ يقول تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} 441 ومن ذلك أيضا قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ آيَاتِهِ وَيُنزِلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ} 442 هذا جانب الرغبة، أما جانب الرهبة فيتجلّى في البرق ففيه صوت شديد يفرع منه بعض البشر حين النظر إليه أو سماعه، ومن عواقب البرق في بعض الأحيان مصاحبته بالصواعق التي تؤدّي إلى إهلاك المصاب.

والمعجزات التي رافقت الأنبياء عليهم الصلّاة والسّلام هي جانب مهم من جوانب إظهار مقدرة الباري عزّ وجلّ، منها ما كانت مادّية، ومنها ما كانت عقلية، ونقصد بالجانب المادّي أنّها كانت ترى بالعين المجردة، كمعجزات موسى عليه الصلّاة والسّلام، العصا وغيرها، وولادة عيسى عليه الصلّاة والسّلام، وما كان يعملُه أمام النَّاسِ، إذ كان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله، أمّا الجانب الآخر فهو المعجزة العقلية وهي القرآن الكريم الذي أنزله الله تبارك وتعالى على رسوله الأمين محمّد عليه الصلّاة والسّلام آيات مفصلات وفي كل آية قرآنية إعجاز مادّي يستوجب الإدراك ومن أدركه آمن. لذا فعلى الخليفة الذي آمن أن يبحث في دائرة العلوم

441 - الروم، 24

442 - غافر 13

والمعارف دون توقف حتى يُمكن النَّاس من الاطلاع عليها، فإن اطلعوا عليها آمنوا وإن آمنوا اهدوا وإن اهدوا كانوا من المستخلفين فيها بالإصلاح والعمل النافع.

نلتمس من تاريخ الأمم أن كل أمة جاء فيها رسول أو نبي كانت تطلب منه برهانا على صدقه، ومن حقها أن تطلب هذا البرهان إن لم يحصل لها العلم بنبوته من طريق آخر، وذلك للثبوت من صحة نبوته، ولكن دون تعنت أو شطط، فيأتي البرهان على صورة معجزة ما، سواء كان ذلك ما طلبوه، أو شيئا آخر غير الذي طلبوه.

ينزل الله سبحانه وتعالى بحكمته العالية المعجزات على أيدي رسله المكرمين، باعتبار أن الشواهد المادية والمعنوية الخارقة للمعتاد المألوف في قوانين الكون وأنظمتها تضع الباحث عن الحق أمام البرهان الواضح، الدال على صدق الرسول في دعواه بالرسالة. ذلك لأن الذين يتحداهم الرسول بالمعجزة بشرا لا يستطيعون الإتيان بها منفردين أو مجتمعين، في حدود قدراتهم الممنوحة لهم بحسب مستواهم.

والمعجزة أمر ممكن عقلا، خارق للعادة، يجريه الله تبارك وتعالى على يد من أراد أن يؤيده، ليثبت بذلك صدق نبوته، وصحة رسالته.

عند الحديث عن المعجزات المادية نتحدث عن معجزة النبي موسى عليه الصلوة والسلام، فقد بعثه الله تعالى إلى قوم كان السحر عندهم هو الأمر الشائع الذي لا يمكن مجاراته أو التغلب عليه أو حتى الوقوف أمامه إلا أن قدرة المقتدر عز وجل كانت الحجة الدامغة أمام أنظار السحرة، إذ يقول تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ

تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةٌ أُخْرَى لِنُرْيِكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى {443} وإبراز انقلاب العصا حيّةً في خلال المحاورة لقصد تثبيت موسى، ودفع الشكّ عن أن يتطرّقه لو أمره بذلك دون تجرّبه لأنّ مشاهدة الخوارق تسارع بالنفس بادئ ذي بدء إلى تأويلها وتدخل عليها الشك في إمكان استتار المعتاد بساخر خفي أو تخييل، فلذلك ابتدأ بسؤاله عمّا بيده ليوقن أنّه ممسك بعصاه حتى إذا انقلبت حيّة لم يشك في أنّ تلك الحيّة هي التي كانت عصاه. فلاستفهام مستعمل في تحقيق حقيقة المسؤول عنه.

والقصد من ذلك زيادة اطمئنان قلبه بأنّه في مقام الاضطفاء، وأنّ الكلام الذي سمعه كلام من قبل الله بدون واسطة متكلم معتاد ولا في صورة المعتاد، كما دلّ عليه قوله بعد ذلك: {لنريك من آياتنا الكبرى} {444}، فقد اشتهر أهل مصر في ذلك الزمان بالسحر وبلغوا القمة فيه، ولذلك فإنّ سحرة فرعون لما رأوا المعجزة علموا أنّها ليست من نوع تخصصهم لخبرتهم بالسحر، فأمنوا في الحين، وهذه آية ومن ورائها آيات، إذ يقول تعالى: {فَأَلْقَى السِّحْرَ سَاجِدًا قَالَ آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آدَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا صَلِّبَنَّكُمْ فِي جُدُوعِ النَّحْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ آيُنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى قَالُوا لَنْ نُؤْتِيَنَّكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيُغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى} {445}.

أمّا المعجزة الأخرى فهي معجزة (الرجز) يعني العذاب وتتضمن هذه المعجزة صوراً متتالية من الآيات الربانية، طلب موسى من فرعون أمرين:

443 - طه، 17 - 23

444 - التحرير والتنوير، ج 9 ص 36

445 - طه، 70 - 73

الأمر الأول: استجابته للدعوة الربانية، وإيمانه بالله هو وقومه.

الأمر الثاني: فهو السماح له بأن يخرج بني إسرائيل من مصر ويغادر بهم إلى أرض الكنعانيين (فلسطين).

ولم يستجب فرعون لأيّ مطلب منهما وهذه آية من ورائها آيات، وأخذت فرعون العزة بالإثم، وعتا عن أمر الله تبارك وتعالى، وتمادى في تكذيب موسى عليه الصلّاة والسّلام، واستمر في إذلال بني إسرائيل وإهانتهم وتسخيرهم.

فأمر الله تبارك وتعالى موسى عليه الصلّاة والسّلام أن يعلن لفرعون وقومه أنّ الله تعالى سيوقع بهم ألوانا من العذاب، عقوبة لهم ماداموا على كفرهم وعنادهم وإصرارهم على التماذي في الباطل، وأعلن لهم موسى ذلك وتوالت على مصر صنوف العذاب الرباني، قال تعالى: {وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ فَإِذَا جَاءَهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نُخِجْ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالِدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْعُوهِ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ فَاثْتَمَرْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ} 446.

أمّا النبي عيسى عليه الصلّاة والسّلام فكان خاتمة أنبياء بني إسرائيل، وقد أرسله الله تعالى إليهم، وأنزل عليه الإنجيل وأيده بخوارق عادات باهرات،

فمنها ما كان إرهاباً بنبوته، ومنها ما كان معجزة مرافقة لرسالته، ليشهد الله تعالى له بصدقه فيما يبلغ عن ربه.

فمن إرهاباته، ولادته من أم دون أب، شهد له بذلك القران الكريم، معلنا براءة أمه وحصانتها، وموضحا طريقة تكوينه في بطنها بوساطة نفخة جبريل عليه السلام. وكلامه وهو صبي في المهدي، ووصف حال أمه حين جاءت به إلى قومها تحمله، إذ يقول تعالى: { فَأَنْتَ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَعْثًا فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا قَالَ إِيَّا عَبْدُ اللَّهِ أَتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا وَبَرًّا بِوَالِدِيَّ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ } 447.

أما معجزاته، فقد أرسل عليه الصلاة والسلام إلى قوم يفاخرون بمهاراتهم بالطب، وبلغوا فيه الحد الأقصى، فجاءت معجزته من ذلك القبيل يبرئ الأكمه والأبرص ويحي الموتى بإذن الله، إذ يقول تعالى: { وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } 448 آيات من الله تبارك وتعالى في خمس من المعجزات لعيسى عليه الصلاة والسلام، وهذه المعجزات لا يستطيع أحد القيام بها إلا أن يكون مقتدرا وهذه صفة المقتدر الأعظم الذي ليس له مثل ولا يقارن بالمطلق، إنه الله جلّ جلاله، وهذه القدرة تتجلى هنا من خلال عرض

447 - مريم 34 27

448 - آل عمران، 49

معجزات لا يمكن للبشر إطلاقا القيام بها أو حتى محاولة التفكير فيها، فهنا يكون التسليم بها لا محالة.

أما نبينا محمد عليه الصلّاة والسّلام فكانت بعثته إلى قوم اشتهروا بالفصاحة والبلاغة، فقد بعث بين فصحاء قريش، وكانت العرب تتحاكم في الفصاحة بين أيدي قريش، إذ كانوا يجتمعون في أسواقهم كعكاظ يلقون الخطب والقصائد ويتفاخرون بالفصاحة ويتحاكمون لدى الحكماء هناك، لهذا كانت قريش أفصح العرب، لأن العرب يفدون إليها جميعا فتأخذ من جميع لغاتها الأفصح منها، لهذا كانت معجزته صلى الله عليه وسلّم العظمى في القرآن الكريم المشتمل على جميع أجناس البلاغة، وقد تحداهم القرآن الكريم على أن يأتوا بمثله، فعجزوا عن الإتيان بمثله وذلك في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقْوَلُهُ بِإِلَهٍ لَا يُؤْمِنُونَ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ 449 ثم تحداهم أيضا بالإتيان بعشر سور مثله إن استطاعوا مع علمه المسبق بانعدام استطاعتهم، ولكن لإعطائهم الفرصة في دائرة المستحيل بالملق، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ 450 بين الله سبحانه وتعالى إعجاز القرآن الكريم، وأنه لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله ولا بعشر سور من مثله، لأن كلام الله لا يشبه كلام المخلوقين، فضلا عن ذلك أن الرقم عشرة لا يعني أنهم يستطيعون الإتيان فعلا بعشر سور فإن مجموع السور العشرة شيء واحد. ألا وهو عجزهم لأن الإتيان بأي شيء. ثم تحداهم بسورة واحدة من مثله وذلك في قوله جلّ وعلا: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ 451 ومع هذا فإنهم عجزوا عن الإتيان بمثله وعن الإتيان بسورة واحدة من مثله، كما خاطبهم بذلك في

449 - الطور 33 - 34

450 - هود 13

451 - يونس، 38

قوله تعالى: {قُلْ لَعْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا} {452} فقد ثبت عجزهم عن معارضة القرآن الكريم ولجؤوا إلى الحرب وقتال المسلمين، وحينها استوجب الجهاد والجهاد آية من ورائه آيات عظام.

وعليه، كل شيء في الخلق آية، وآيات الخالق لا يمكن أن يعدها أو يحصيها مخلوق مصداقا لقوله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَأَتَاكُم مِّنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ أَمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضَلَّلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهُ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ} {453}.

نتبين عددا من المعجزات تستوجب الوقوف عندها اتعاطا بها في الحياة الدنيا وطاعة تامة بمن أنزلها وخلقها لا إله إلا هو. وهكذا جميع آيات

الكتاب الحكيم هي معجزات ومن هذه المعجزات ما جاء في الآيات الكريمة السابقة الذكر في سورة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وهي:

1 . الخالق هو الله ولا خالق سواه، والخليفة هو المؤمن بأن الخالق هو المقتدر الأعظم فلا غالب له أبداً، وهو من يضع القدرة الرفيعة في من يشاء كما هو حال إسماعيل عليه الصلاة والسلام الذي جعل فيه الحلم قوة ومقدرة.

2 . ومن آياته العظام خلق السماوات، التي فيها المجرات والحركة كل في فلك يسبحون، والسماوات جمع السماء، والخليفة وحده يؤمن بوجودها يقيناً، مع أنه لم يرها هي كما هي وهذه مليئة بالمعجزات العظام، والمعجزة المضافة إليها أن يتم الإيمان بها دون أن ترى بالعينين المخلوقتين آية من آيات الخالق.

3 . ومن آياته خلق الأرض معجزة منها خلق المعجزة وهي آدم الذي خلق هو من أديمها آية سبحانه إنه المقتدر جلّ جلاله. قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلٍ وَلِتَبْلُغُوا أَجْلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَمَا أُرْسِلْنَا بِهِ رُسُلَنَا بِه رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ إِذِ الْأَعْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ذَلِكَ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبئسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِذَا

يُرْجَعُونَ} 454، ومن آية الخلق من التراب تتعدد الآيات العظام، ولهذا سبق أن قلنا من كل آية تتولد الآيات وفي كل آية معجزات تتعدد سبحانه إنه المقتدر العظيم. ولذا أوضح في تعداده لبعض من الآيات معجزات تتعدد، خلق الأرض آية، وخلق آدم منها آية، وجعله خليفة فيها آية، وخلقه للنطفة آية، وخلقه للعلقة آية، وإخراج الطفولة منها آية، وجعله النمو والكبرّ عبرّ الزمان آيات تتعدد، من مولود إلى طفل وصبي وشاب ورجلّ وكهل وشيخ وعجوز كل هذه آيات نراها بأب أعيننا ممّا يجعل في رؤيتها آيات تتنوع من ذكر وأنثى وخلق الموت آية تلاحق جميع الأعمار وهو على كل شيء قدير مقتدر. وكما أنه خلق الحياة والممات آيات عظام كذلك خلق الخليفة مؤمنا من الذين خلقهم في أحسن تقويم، وكان منهم الكافر والمشرك والضال والغافل والغني والفقير، وكان منهم الأنبياء والمرسلين، كل ذلك آيات فمن يهتدي يهتدي لنفسه ومن يضل يضل عن نفسه وهكذا تتولد الآيات من الآية بما لا يحصى ولا يعد، ومع ذلك تجد من يجادل في آيات الله بغير حق، أي بغير حجة تسنده أو دليل يستدل به وهذه في ذاتها آية حيث الخالق يخلق في أحسن تقويم ثم لا يؤمن به أو يشرك به أو لا يهتدي إلى ما يجب الهداية إليه، سبحانه إنه المقتدر العظيم الذي بحمده نعتدي وبحمده نشكره ونتوب إليه وبه نستعين على كل شيء بنية واثقة من مقدرته على تحقيق الفعل المراد وهذه آية والحمد لله ربّ العالمين.

4. ومن آياته أنزل من السماء ماء: مع أنّ مصدر الماء لم يكن السماء، إلا أنه جعل من البحر آية لرفع الماء من البحار والأنهار والمحيطات إلى الأرض الجزر وحيث يشاء، وفي هذه آيات تتعدد، وهي آيات مبصرة تُرى بجميع الحواس قال تعالى: {رَبِّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبِّ الْمَغْرِبَيْنِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا

تُكَذِّبَانِ مَرْجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ وَلَهُ الْجَوَارِ
الْمُنشآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ
وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ سَنَفَعُ
لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ يَا مَعْشَرَ الْجِبِّ وَالْإِنْسِ إِنِ
اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا
فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ فَبِأَيِّ
آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ فَبِأَيِّ آلَاءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ فَبِأَيِّ
آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا
وَبَيْنَ حَمِيمٍ أَنْ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ وَلِمَنْ حَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ فَبِأَيِّ
آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فِيهِمَا عَيْنَانِ
تَجْرِيَانِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ فَبِأَيِّ آلَاءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ مُتَّكِعِينَ عَلَى فُرْشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَّتَيْنِ ذَانِ
فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فِيهِنَّ قَاصِرَاتٌ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا
جَانٌّ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ كَأَنَّھُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ {455}.

آيات عظيمة تتولد من آيات عظام، انظروا ما خلق في السماوات
والأرض وعليكم بإتمام سورة الرحمن وآياتها العظام ولن تحصوها ولن تعدوها
بالمطلق حيث وراء كل آية آيات عظام، فما بالكم بآيات الكتاب كله
سبحانه إنه المقتدر وهو على كل شيء قدير فله الحمد والشكر إنه ربي

الذي لا إله إلا هو، به آمنت وعليه توكلت وأوليت أمري وأمر أسرتي وما أملك إليه فنعم المولى ونعم الوكيل والنصير.

5 . إخراجها للثمرات رزقا: سبحانه قد خلقنا وخلق لنا رزقا متنوعا ومتعدد مع تعددا آياته وتنوعها، ولذا وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها، فاتقوا يا أولي الألباب واستغفروا الله يغفر لكم من ذنوبكم ويجعلكم من المستخلفين والوارثين في الدارين. قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَشْيِئًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ أَيْوَدُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضُعْفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِأَخِيذِهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ {456}، إنها الآيات الكريمة المتولدة من الآيات العظام فانظروا كيف يضاعف الثمرات مع مضاعفة الحسنات سبحانه إنه المقدر على ذلك والفعال لما يريد.

6 . تسخيره للفق لبتجري في البحر بأمره: من آياته العظام التي نزلت في الآيات السابقة الذكر من سورة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، الذي جعل منه تعالى في ذاته آيات، آيات في اصطفاؤه أبوا الأنبياء، وآيات في تحديه قولاً وعملاً للكفرة والمشركين، وفي براءته من النار آيات عظام مصداقا لقوله تعالى: ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ قَالُوا سَمِعْنَا فَتَى يَذُكُرُهُمْ

يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ قَالُوا أَآنتَ
فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْئَةِ يَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا
يَنْطِقُونَ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى
رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا
يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ
قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا
عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ
الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا
صَالِحِينَ {457}. ما أجمل الآيات تتولد وتتعدد وتنوع من الآية الواحدة،
وما أجمل إبراهيم نبياً يولد في قوله المعجزة من ربه الذي جعل أمر النار عليه
أن تكون برداً وسلاماً.

وعليه فإنه سخر الفلك تجري في البحار والمحيطات والأنهار والبحيرات
بأمره آيات خلقها للتنقل والتواصل والنجاة كما هو حال نوح عليه الصلاة
والسلام الذي قال فيه تعالى: { وَأَوْحِيْ إِلَى نُوْحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا
مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ وَاصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا
تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ وَيَصْنَعْ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ
قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسَخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسَخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسَخَرُونَ
فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ حَتَّى إِذَا جَاءَ
أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ
عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا
وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ
ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ قَالَ سَأُوِي إِلَى
جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ

بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُعْرَفِينَ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَّمَاءُ أَفْلَعِي
وَعِضِ الْمَاءَ وَفُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ
وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ
الْحَاكِمِينَ} 458. إنها الآيات التي تجعل الذين خلقوا في أحسن تقويم على
أحسن خليفة في القول الصادق والفعل الخالص. وهكذا كانت الفلك
آيات في البحار والبحيرات والأنهار والمحيطات قال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ
فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ إِنَّ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي
ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ أَوْ يُوبِقُهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ وَيَعْلَمَ
الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ وَالَّذِينَ
يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا
لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ وَالَّذِينَ إِذَا
أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ وَجِزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ
عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ
سَبِيلٍ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ
أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ وَمَنْ يُضْلِلِ
اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأُوا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى
مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ} 459.

7. ومن آياته أنه سحّر لمن يريدهم خلائف في الأرض الشمس والقمر
دائبين: كما سبق أن أوضحنا أن الشمس آية وكذلك القمر آية، وهنا
جاءت آية عظيمة مرتبطة بهما وهي أن كل منهما دائب أي طائع في حركته
وزمانه للأمر الذي خلقه بالقول (كن)، وفي هذا الدّأب تناهٍ في الطاعة دون

458 هود 36 . 35.

459 الشورى 32 . 44.

الخروج إلى معصية. ولهذا فإن الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ مُحْسَبَانِ، والحسبان مبلغ الدقة التي لا تدخلها الغفلة أو المغالطة أو الخطأ، قال تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ} 460.

8. من آياته أنه سخر لمن يراد له أن يكون خليفة الليل والنهار: نعم إن الليل والنهار آيتان عظيمتان مصداقا لقوله تعالى: {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا} 461. النهار مبصرا بضوئه للعمل والإصلاح والفلاح والعمار في الأرض، والليل سكونا ولباسا للراحة لأجل العمل بعد أن يعود النهار مبصرا.

9. من آياته إيتاء العباد من كل ما سألوه: قال تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ وَإِذْ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ كُتِلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلَهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا

460 يونس، 5، 6.

461 الإسراء، 12.

يَعْتَدُونَ} 462. سبحانه إنه المقدر الذي يملك بالمطلق ويعطي ما يشاء لمن يشاء متى شاء، رغبات الناس تتعدد وتتنوع وتتطور، ومع ذلك فإن آيات المقدر أعظم وهذه آيات كريمة تستوجب الحمد والشكر والعرفان بالطاعة والعبادة، وفوق ذلك يتم استخلاف الإنسان في الأرض وحمل الأمانة وهو بها ظلوما جهولا قال تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} 463.

10 . ومن آياته النعم التي خلقها وهي لا تعد ولا تحصى: قال تعالى: {أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ} 464، بطبيعة الحال لا يمكن أن يكون الخالق مثل المخلوق، الخالق مصدر لكل خلق، والمخلوق ليس بمصدر خلق، وذلك لأنه لا يخلق (يصنع) إلا من مخلوق (مصنوع) سابق عليه، ولهذا لا يعد مصدرا للخلق، ولكن من يستمد صفاته من صفات خالقه تكون روح الخلق فيه فيخلق مما خلق له الخالق أشياء، أي انه القادر على استمداد الشيء من الشيء، ولكن غير قادر على خلق الشيء من أساس وجوده وخالقه.

11 . من آياته أن الإنسان الذي حُلق في أحسن تقويم منه الظلوم الكافر: {إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ} 465 حُلق الإنسان في أحسن تقويم

462 البقرة، 58 . 61.

463 الأحزاب، 72، 73.

464 النحل 17 . 20.

465 إبراهيم، 34.

ليكون الخليفة في الأرض التي منها خلق، ولأنه منها خلق، عليه أن يعمل على الإصلاح فيها، إلا أن الفرقة كانت بين مصلح ومفسد، وبين كافر ومؤمن، وبين ضال ومهتدٍ، وبين محسن وظالم، ومنذ البداية كان الصراع بين ابني آدم مصداقا لقوله تعالى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِي آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَمَمْ يُتَقَبَّلُ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الخَاسِرِينَ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُؤَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ} 466 الآية إعجازية دالة على كل ما هو قابل للتحقق، ومن آياته أن الذي خلق في أحسن تقويم عندما يكون ظلوما، يقصر تفكيره عن تفكير الغراب الذي لم يكن من المخلوقين في أحسن تقويم، ولذا فالهداية نور بها يتم الاستيضاح دون لبس أو غموض، وبعد أن وقعت الآيات وهي القتل بغير حق، وعدم المعرفة بمواراة الجثمان جاء فعل الغراب آية، ثم جاء فعل الندم آية، وهكذا تتولد الآيات من الآية بفعل المليك المقتر.

12 . من آياته الدعاء والاستجابة: الدعاء الخالص له الاستجابة الخالصة، فإبراهيم عليه الصلاة والسلام دعا ربه بقوله كما جاء في الكتاب الحكيم: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضَلُّنَّ كَثِيرًا مَنْ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَافُورٌ رَحِيمٌ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى

اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ
 إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدَّعَاءِ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ
 ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ
 وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهُ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ
 الْأَبْصَارُ {467.

وعليه لكل دعاء استجابة ولكن زمن الاستجابة في علم الغيب، أي متى
 تكون الإجابة هذا الأمر بيد المجيب المطلق جلّ جلاله. الإجابة تأخذ أوجه
 فهي قد تتزامن مع الدعاء، وقد تكون تالية له بوقت قصير وقد تكون ذات
 زمن بعيد، ولكن شيئاً واحداً لا يغفل عنه وهو لا بد أن تكون الإجابة من
 السميع المجيب. وإلا هناك من يظن أنه سميع ولا يجيب؟! استغفر الله إنه
 الحقّ المجيب. قال تعالى: {وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ
 يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} {468، وقال تعالى: {وَأِلَى
 ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ
 مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ
 مُجِيبٌ} {469. أمّا الكافر والمشرک فآلهتهم لا تستجيب وذلك لفقدانها صفة
 السمع، وهي لا تنطق ولا تمتلك آية، ولأنّ الاستجابة آية، إذن لا وجود
 لآية إلا من سميع قريب مجيب لا يغفل أبداً ولا تأخذه سنة ولا نوم ولا يموت
 ولا يبلى. ولهذا قال تعالى: {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا
 يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ} {470.

467 إبراهيم، 35 . 42.

468 غافر 60.

469 هود 61.

470 الأحقاف، 5.

من خلال ما سبق بين الله تبارك وتعالى أدوات قدرته والتي يمكن أن نقسمها على قسمين: القسم الأول: وظيفته مرتبطة بزمان ومكان مثل معجزات الأنبياء موسى وعيسى عليهم الصلوة والسلام، أما القسم الآخر فهي معجزات دائمة ومستمرة وهي معجزة القرآن الكريم فهي خالدة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. فكلها دلائل تشير إلى اقتدار الباري عز وجل المتمكن الذي بيده كل شيء.

ثانيا: موزع الأرزاق كما يشاء:

الرزق مفردة تتردد بين طيات القرآن الكريم، وهي محور كبير يدور حوله كثير من خطابات الكتاب الحكيم، فهي أمر عظيم تتجلى من خلالها قدرة الباري عز وجل، فالخلق أجمعين قدر لهم خالقهم تبارك وتعالى أمورهم جميعا منها أعمارهم، إذ يقول تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ } 471 هنا عملية عرض لخلق الإنسان من بداية تكونه إلى الموت، إذ أنّ عمر الإنسان مقدر له فلا ينقص ولا يزيد ساعة واحدة، يقول الحق تبارك وتعالى { وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ } 472 كذلك الرزق قدره الله سبحانه وتعالى بين الناس بمختلف ألوانهم ودياناتهم واعتقاداتهم، إذ يقول الحق تبارك وتعالى: { كَلَّا نُمَدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ

471 - الحج 5

472 - الأعراف 34

مَحْظُورًا} 473 فمن رحمة الله تبارك وتعالى انه يرزق حتى الكفرة الذين لا يؤمنون بلقائه فقد أعطاهم من نعمة الدنيا على حسب ما قدر لهم، وأعطى المؤمنين خيري الدنيا والآخرة، ولذا فهم الوارثون حقًا والمستخلفون حقًا إذ يشرهم بقوله: {وَكَتَبْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا وَإِلَيْكَ قَالِ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ} 474 فرحمته واسعة تتخطى كل الحدود التي يفكر بها الخليفة فهي أمامه يجدها في الآخرة. أما توزيع الرزق، فهو بموجب المشيئة المبنية على الحكمة وإن وجد فيه ما يقتضي الحظر كالكفر مثلاً. أما توزيع الرزق فلا يكون بالتساوي بين الناس جميعاً فهو مقتدر أن يرزقهم جميعاً بالتساوي لكنّه بمشيئته وحكمته وإرادته لا يرزقهم بالتساوي، إذ يقول تعالى: {لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ} 475 هنا تتسم معاني الاقتدار بأوضح صورة قادر وقدير ومقتدر يتصرف كما يشاء، ويعطي كما يشاء، ويأخذ كما يشاء بيده الملك، يقسم النعمة والبلاء كيف أراد، ويهب لعباده من الأولاد ما تقتضيه مشيئته، فيخص بعضاً بالإناث وبعضاً بالذكر، وبعضاً بالصفين جميعاً، ويزوجهم ذكراناً، ويخص آخرين بالعقم فلا يهب لهم ولداً قط. توزيع وفق ما يريد جلّ جلاله فهو المقتدر.

أمّا الغيث فهو جانب آخر من جوانب رحمة الله سبحانه وتعالى الدالة على اقتداره، فهو لا يعطيه بالتساوي بين الناس إنّما يخص به من يشاء وفق حكمته وإرادته العظيمة، يقول تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا

473 - الإسراء، 20

474 - الأعراف 156

475 - الشورى 49 - 50

قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ} 476 الغيث رحمة لأنه ماء والماء مصدر كل حياة مصداقا لقوله تعالى: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ} 477 فعندما يكون الماء مطرا تكون الرحمة فيه لإحياء الأرض، وهذه الرحمة ليست مقيدة بأحد المخلوقات إنما هي مطلقة لهم جميعا، وذلك لأنها وراء كل رزق، فهنا دلالة واضحة على قدرة الله تبارك وتعالى في إعطاء رحمته وتوزيعها كيفما يشاء متى ما شاء.

وقد يمنع الرزق بسبب المعصية التي تكون سببا في انقطاع الرزق، كما ورد في قوله تعالى: {إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِفُنَّهَا مُصْبِحِينَ وَلَا يَسْتَشْنُونَ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ أَنْ اغْدُوا عَلَيْنَا حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَأَنْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ وَغَدُوا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ عَسَى رَبَّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} 478 إن الله سبحانه وتعالى يعطي العبد على سبيل الابتلاء والامتحان، وليصرفه إلى طاعة الله، وليواضب على شكره على ما أعطاه من نعم، فإن لم يفعل ذلك فإنه تعالى قد يقطع عنه تلك النعم، ويصب عليه أنواع البلاء والآفات، وقد يزيده ابتلاء. روي أن رجلا من ثقيف وكان مسلما، كان يملك ضيعة فيها نخل وزرع بقرب صنعاء، وكان يجعل من كل ما فيها عند الحصاد نصيبا وافرا للفقراء، فلما مات ورثها منه بنوه، ثم قالوا: عيالنا كثير، والمال قليل، ولا يمكننا أن نعطي المساكين، مثل ما كان يفعل

476 - الشورى 28

477 الأنبياء، 30.

478 - القلم، 17 - 33

أبونا، فأحرق الله جنتهم 479 هذه القصة تتأطر ضمن إرادة المقتدر تبارك وتعالى، الذي يتجلى من خلالها أن منع الرزق هنا وان كان فيه سبب وهو المعصية لكن مشيئة الله هي التي جعلت من البستان المثمر رمادا يتطاير في الهواء.

ويقابل منع الرزق منح الرزق بإرادته ومشيئته، إذ يقول تعالى: {فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا مَا لَكُمْ لِمَا كُنْتُمْ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا} 480 والاستغفار هنا هو الإيمان أي آمنوا إيماناً يكون استغفاراً لذنبكم فإنكم إن فعلتم غفر الله لكم فإن غفر لكم فسيأتيكم الخير الواسع في الدنيا والآخرة، فالله تعالى هو المقتدر بان يرسل عليكم الرزق من أموال وبنين وغير ذلك.

ولأنه المقتدر كان عادلاً في توزيعه للرزق على كل ما خلق مصداقاً لقوله تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ} 481، إذا بالنسبة للرزق لكل نصيبه فيه، لا يخلق شيئاً إلا وعليه برزقه لا يظلم ربك أحداً. وهذه شرعة من اتبعها كان مهتدياً بالحق للحق

479 - تفسير الرازي، ج 15 ص 445

480 - نوح 10 - 12

481 هود 6، 7.

ومن كفر فقد ضل سواء السبيل، ولهذا كان الخليفة مصلحا وكان الضال مفسدا وما ربك بظلام للعبيد.

رابعا: مقتدر بإنزال العقاب أو رفعه:

العقاب اسم يتردد ضمن سياق كثير من الآيات القرآنية، وذلك لأن النص القرآني يحتوي بين طياته على ثنائية الثواب والعقاب، فقد كان العقاب هو الحل الأخير لكثير من الأقوام التي لم تردع ولم تتعظ ولم تتراجع عن غيرها بعد أن رأت آيات الله سبحانه وتعالى وقدرته على أيدي أنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم، فالعقاب مقدر من الله سبحانه وتعالى فلا يمنعه إلا هو، فكثير من الأقوام حل عليهم عقاب الله سبحانه وتعالى مثل قوم نوح عليه الصلاة والسلام كان عقابهم الغرق، والطوفان آية مهيبة لقدرة الباري عز وجل في الخروج عن المتعارف لدى الناس، وتحول الأرض إلى بحر هائج أمواجه تشبه الجبال العظيمة، إذ يقول تعالى: {حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ نَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ قَالَ سَأُوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَّمَاءُ أَفْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَىٰ الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ} 482 الطوفان ما كان إلا عن مثل زلازل تفجرت بها مياه الأرض وأمطار جمّة تلتقي سيولها مع مياه العيون فتختلط وتجتمع وتصب في الماء الذي كان قبلها حتى عم الماء جميع الأرض التي أراد الله إغراق أهلها

الذين حقّ عليه القول، منظر رهيب تتجلّى فيه قدرة الباري عزّ وجلّ يبدأ من الاختيار من كل شيء زوجين دلالة البقاء، وعدم انتهاء الأمر نهائياً بل فيه عودة إلى الحياة، وفيه إعمار للأرض التي تريد دائماً الخليفة المؤمن والعدل الذي اختاره الله تبارك وتعالى ليستخلفه في الأرض، فمنظر الطوفان تتجسد فيه أروع صور الاقتدار التي تدل على عظمة الباري عزّ وجلّ فهذه السفينة تجري وسط هذه الأمواج العنيفة وهي تحمل ما عليها، ثم بعد أن ينتهي الطوفان ترسو وتبدأ صفحة جديدة من تاريخ البشرية.

ونلاحظ من قوله تعالى: (وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا)

شيئين:

الشيء الأول: إنّ مفتاح الحركة بالنسبة للسفينة هو (بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا) فكانت تجري في أمان بالرغم من تلاطم الأمواج، وإن مفتاح الإيقاف هو (بِسْمِ اللَّهِ مَرْسَاهَا) فوقفت بسلام في مكان النجاة المحدد بقوة المقندر جلّ جلاله.

وقوم لوط كان عقابهم أن جعل الله تبارك وتعالى قريتهم عاليها سافلها، قال تعالى: {فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِنْ سَجِيلٍ مَنْضُودٍ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ} 483 وقوم شعيب كان عقابهم بالصيحة، قال تعالى: {وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا حَاجِبًا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ كَأَنَّ لَمْ يَغْنُوا فِيهَا آلَا بُعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ} 484 وقوم صالح أخذتهم الرجفة {فَأَخَذَهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ} 485، هنا تجلّت قدرة الله سبحانه وتعالى في إنزال العقاب على

483 - هود 82 - 83

484 - هود 94 - 95

485 - الأعراف 78

الأقوام التي لم تستجب لأوامر الله سبحانه وتعالى ونواهيه وبهذا طويت حياتهم من الدنيا كلمح البصر ولم يعد لهم من ذكر سوى أسماءهم وبقايا ديارهم التي توحى دائما بقدرة الباري عزّ وجلّ في إنزال عقابه على المستحقين، بعد ذكر هذه الأقوام وما حل بها نقصد قوم صالح ولوط وشعيب نأتي إلى قصة يونس عليه الصّلاة والسّلام الذي آمنت قريته بعد أن كاد يحل بها العذاب، فرفع عنها ونجت منه بالإيمان. وهي لمسة من ناحية أخرى تزين الإيمان للمكذّبين، لعلمهم يتقون العذاب الذي يندرون. ولا تكون عاقبتهم كعاقبة قوم نوح وقوم موسى المهلكين، إذ يقول تعالى: {فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخُرْزِيِّ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ} 486 قوم يونس بادروا إلى الإيمان بعد أن فارقهم يونس، توقّعا لنزول العذاب، وقبل أن ينزل بهم العذاب، وذلك دليل على أن معاملة الله إياهم ليست مخالفة لما عامل به غيرهم من أهل القرى، وأن ليست لقوم يونس خصوصية، وبذلك لا يكون استثنائهم استثناءً منقطعاً. وإذا كان الكلام تغليظاً لأهل القرى المعرضين عن دعوة الرّسل، وتعريضاً بالتحذير ممّا وقعوا فيه. فالمقتدر تجلّت قدرته في رفع العقاب عن قوم يونس فلا أحد ينزل العقوبة أو يرفعها إلا هو المقتدر تبارك وتعظم.

المقتدر: هو رحمن وجبار، ورحيم وشديد العقاب، أي أنّه فعال لما يريد، إنّهُ المقتدر على الثواب والعقاب والحاجة والأرزاق، ولذا لكل فعل سبب وعلة ولهذا لا يمكن أن يظلم ربّك أحداً، إنّهُ المقتدر بعدله ومغفرته سبحانه إنّهُ ربّي الذي جعل من إسماعيل حليم مقتدر.

أمّا المقتدر الأعظم فهو المقتدر على الحياة والممّات والبعث، والمقتدر على الابتلاء وفك الابتلاء اللهم فك ابتلائنا عنا وارزقنا رزقا نافعا وملكا

طاهرا، وأبناء صالحين يصلحون ولا يفسدون في الأرض التي منها خلقنا وفيها استخلفنا ولا تجعلنا وإياهم سافكي دماء بغير حق، واجعلنا على العدل والطاعة والاهتداء للحق بالحق إتك الحق جلّ جلالك. {وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا فُرَّةً أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْعُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا} 487.

ولأنه الدعاء الموجّه للمجيب فلا شك أنه يجب كما أجاب دعاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام {رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدَّعَاءِ} 488. وعليه عليكم بالعمل ثم الدعاء فالله مجيب، {وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ} 489، وقال: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} 490.

رابعا: كشف الضر:

يتردّد عندنا في الحياة صبرٌ أيّوب فيضرب المثل بصبره، وتكتب القصائد الكثيرة بذكر صبرٍ أيّوب، وكيف تحمّل ما تحمّل من المعاناة والآلام فلم تنه عن إيمانه بالله تبارك وتعالى بل زادته إيمانا، إذ يقول تعالى: {وَإِذْ كُنَّا عَبْدًا

487 الفرقان 74 . 77.

488 إبراهيم 37 . 39.

489 غافر 60.

490 البقرة 186.

أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أُنِيبِي الشَّيْطَانَ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذَكَرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ وَحُذِّبِيكَ ضِعْفًا فَاضْرَبْ بِهِ وَلَا تَحْنُثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ { 491 } في هذه القصة العظيمة التي أرخت لحياة نبي من أنبياء الله فوسمته بسمة من أعظم السمات، ألا وهي سمة الصبر، فالضر الذي أصاب النبي أيوب عليه الصلاة والسلام هو مقدر من الباري عز وجل وهو الذي يرفعه متى أراد الحكمة ومشئنة تتعلق به تبارك وتعالى، وهذا مثل واضح وبين أراد الله تعالى من أجل الاتعاض واللجوء إليه، فهو المقتدر على كشف الضر اللهم فك الضر عنا وارحمنا بواسع رحمتك إنك سميع مجيب.

للبحر أهوال ومشقة يتعرض لها الخليفة فيلجأ إلى الله تعالى كي ينقذه مما تعرض له يقول تعالى: { وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا } { 492 } والضر هنا هو الغرق فالصیحات تتعالى وتستغيث تطلب النجاة والوصول إلى البر الذي هو المأمّن فمن يصل بهم إلى البر لا يوجد أحد غير هو المقتدر الذي ينقذهم ممّا هم فيه، وهم في دعائهم يقصدونه هو لا غير.

والخليفة يتخلق بخاصية كشف الضر من خلال وجوده في المجتمع ومتابعة إخوانه والوقوف على أحوالهم، والضر قد يكون أنواعا، منه الضر البدني وهي الأمراض التي تنتشر في بعض الأحيان فتصيب إنسانا دون آخر من باب الابتلاء. ومنه الضر المادي، كأن يتعرض بيت من البيوت إلى الهدم نتيجة للتعرية أو سقوط الأمطار بغزارة الذي يؤدي إلى الفيضانات. فيسعى الخليفة بكل السبل من أجل رفع الضر وإرجاع الأمور كما كانت.

491 - ص، 41 - 44

492 - الإسراء، 67

ولهذا فإنّ رفع الضرّ آية من آيات الله العظام فهو يرينا الرّحمة جنباً إلى جنب مع الشدة والعقاب، وذلك لأجل أنّ نتهدي ولا نضل، ولأجل أنّ نعمل فلاحاً وإصلاحاً ولا نفسد فيها بغير حقّ، ولا نظلم أحداً.

وعليه بالنسبة للخليفة إلحاق الضرر بالكافر يعده رحمة لا كما يعده الكافر على نفسه، وهكذا إلحاق الضرر بالمؤمن يرضي الكافر ولا يغيظ المؤمن لأنّه يعتبره ابتلاء والابتلاء يزول بالإصلاح والهداية، ولهذا إنّه تنبيه للعمل الحثيّر والتمسك به، فمن اهتدى يهتدي لنفسه ومن ضل عنها ضل. فالمؤمن إذا وقع عليه ظلم حتى ولو كان مقتدراً على رده وردع صاحبه يقول في نفسه ما أمر به الله تعالى أن يقال: {الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ وَفَضِلٌ لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ} 493.

خامساً: إصلاح الخلائق:

المقتدر هو الذي يقدر على إصلاح الخلائق على وجه لا يقدر عليه غيره فضلاً منه وإحساناً، إذ يقول تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا} 494. القول السديد هو قول الحقّ، وقول الحقّ إصلاح، ولأجل الإصلاح يجب أن يقال القول الحقّ حتى لا تزور الحقائق بمشبهات ليست هي كما هي.

493 آل عمران، 72 . 74 .

494 - الأحزاب 70 - 71

وتقابل مع لفظة الإصلاح لفظة الإفساد، فعندما يراد الإصلاح لا بد أن يكون هناك فساد، ولذا يستوجب إحلال الشيء المصلح محل الشيء المفسد، ولأن الله خلق الإنسان في أحسن تقويم فهو المدرك الذي يمتلك العقل الذي به يميز بين ما يجب الإلتباع وبين ما يجب الابتعاد عنه وتجنبه، ولأن الله جعل كل شيء بالقوة على الإرادة، فما يبدو لأحد موجبا قد لا يكون كذلك للآخر، ولهذا يدور الصراع حتى يغلب أحدهم الآخر أو يهزمه، وفي هذا الأمر مغالبة، والمغالبة تدس خلفها ردود الأفعال والضغائن والثأر في أوقات الغفلة أو المفاجئة. ولأن المقتدر جعل للتخيير والتسيير فسحة في القول والفعل في دائرة الإرادة والنسبية، فكان الخليفة مؤمنا مهتديا، وكان الكافر مشركا ضالا، وهذا الأمر ورد منذ بداية الخليقة، إذ يقول تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} 495 فمنذ خلق آدم عليه الصلاة والسلام ترددت لفظة الفساد والتي أصبحت بدايتها عمليا بقتل قابيل لأخيه هابيل، قال تعالى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ لَئِن بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الخَاسِرِينَ} 496 فالفساد لا بد له من إصلاح فلا يحق له أن يستشري بين الناس ويكون دينهم الذي يتوارثونه، فلا بد أن يتدخل المقتدر جلّ جلاله ويكون التدخل عن طريق أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام، وهكذا جاءت الرسالات السماوية لتبشر بما يريده الباري عزّ وجلّ من أجلّ

495 - البقرة، 30

496 - المائدة، 27 - 20

الإصلاح المنشود، ولهذا نجد نصوصاً كثيرةً في القرآن الكريم ترد على لسان الأنبياء تتضمن محاور الإصلاح التي يريدها المقتدر تبارك وتعالى، {وَأِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} 497 يتسم كلام نبي الله شعيب عليه الصلوة والسلام لقومه بالمراجعة أي أنه كان يكرر عليهم دائماً ما يريده المقتدر عز وجلّ مما يدل على أن الإصلاح المنشود لا يتم من خلال تبليغ واحد، وإنما يحتاج إلى تكرار وعرض للحجج والبراهين التي تبطل الفساد وتدحضه وتبين مواطن الخطأ والزلل التي فيه، أما قوله تعالى: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ} 498 بشارة من الله تبارك وتعالى أن هذه الأرض لا تبقى بيد الكفرة وأهل الفساد إنما مآلها إلى الصالحين من عباده الذين استخلفهم فيها وجعلهم الوارثين، فلهم الدور الكبير في عملية الإصلاح من خلال تبليغ ما أمر به الله عز وجلّ ويكون ذلك بالقول السديد، إذ يقول تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا} 499 فالقول السديد هو مطلق كأن يكون آية قرآنية أو حديثاً نبوياً أو أذانا يسمعه الناس، وهو قول الحق الذي لا يدخله الباطل، وهو في مجمله نداء إصلاح وتبشير بخير آتٍ، من الله تبارك وتعالى للمؤمنين بأن يتَّسموا بالتقوى وسداد القول، ولا بدّ لهم من النهي عن المنكر، لأنّ فائدة النهي عن المنكر التلبُّس بالمحامد، والتقوى جماع الخير في العمل والقول. والقول السديد مبعث الفضائل، ويتردد الإصلاح أيضاً حتى مع حال المؤمنين أنفسهم، إذ يقول تعالى:

497 - الأعراف 85

498 - الأنبياء، 105

499 - الأحزاب 70 - 71

{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ} 500 فقولهُ {وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ} إشارة إلى ما يثيب على العمل الصالح. فالله سبحانه وتعالى كلما ذكر الإيمان والعمل الصالح، رتب عليهما المغفرة والأجر، وهذه المعادلة تتسم بما جاء به الخطاب القرآني الذي ركز على هذين الطرفين في معادلة الحق، يقول تعالى: {فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} 501 وقوله تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ} 502 ويمكن أن نطلق على طبيعة هذا الخطاب بخطاب الرغبة، الذي يتحقق من خلاله ما يريده الباري عز وجل، فضلا عن ذلك أنّ العمل الصالح الذي يقابله العمل الفاسد تتطابق عليهما ثنائية الثابت والمهتز، فالثابت (الحق) يبقى كما هو لا يتغير مهما تعرض لأي شيء، أما المهتز فهو في بعض الأحيان قد يضمحل وينتهي فلا يبقى منه شيء سوى الذكرى، فالثابت هو العمل الصالح والمهتز هو العمل الفاسد الذي في حاجة لأن يصلح.

وعليه: الثبات قوّة والاهتزاز ضعف:

الثبات قيمة تُقدّر بالفعل الذي هي عليه. أو بالفعل الذي به يتم الثبات.

والثبات لا يعني الجمود. والاهتزاز لا يعني الحركة.

ولهذا الثبات قاعدي. والاهتزاز استثنائي. ومع ذلك كل شيء نسبي.

500 - محمد 2

501 - الحج 50

502 - العنكبوت 7

ما تعتقد أنّه على ثبات، قد يفاجئك بحركته وامتداده، وما تعتقد أنّه في حالة سكون توقّع أنه قد يتحرك في أي وقت من الأوقات بتمرد أو ثوران وامتداد. ومع ذلك أيضا، لا ثبات إلا بقوة مقتدر، ولا اهتزاز إلا بقوة مقتدر.

ولهذا فالقدرة قيمة قاعدية للثبات والحركة. فمن يصمد (يثبت) بقوة في مواجهة القوة، ومن يضعف أمام قوة تهزه من مستواه أو تحركه من مكانه لا يقارن بمن صمد وثبت.

ووفقا لدائرة المتوقّع وغير المتوقّع، الثابت والمهتز كلاهما في حالة حركة، سواء كانت الحركة سالبة أم موجبة.

وعليه، لا ثبات ولا اهتزاز، إلاّ لوجود قابل للمشاهدة أو الملاحظة (الإدراك عن وعي).

فالثبات على المبادئ مسألة قيمية مفضلة عند بني الإنسان، ولكن أيّة مبادئ؟

تلك التي يرضونها الناس ويختارونها بإرادة.

ولهذا فالقاعدة هي:

الثبات على المبادئ.

والاستثناء هو:

الاهتزاز عن المبادئ.

وقد يوصف المهتز عنها بالمنحرف السّالب. ممّا يجعل للمصلحين المستخلفين أدورا متنوعة ومتعددة في سبيل إحقاق الحقّ وإزهاق الباطل.

ولذا قد استمدت المبادئ قوتها من الثبات، واستمدت ضعفها من الاهتزاز.

وعليه كل شيء في حالة حركة.

فعلى سبيل المثال: الأرض في حالة حركة. ولأنّ الأرض تتحرك، إذا كل ما عليها في حالة حركة، حتى وإن كان ساكناً في حياته أو في ممّاته.

ولهذا، يتحرك المحمول في حامله:

. الحافلة الناقلة للركاب على الأرض المتحركة تتحرك.

. الأم الحامل الراكبة في الحافلة المتحركة على الأرض المتحركة، جنينها

يتحرك في بطنها، مثلما هي تتحرك مع الركاب في الحافلة.

وهكذا تتعدد المتحركات وتتنوع والحركة واحدة سواء كانت في المادة، أو

كانت في الفكرة التي تمتد من عقل مفكر إلى عقل مفكر آخر. وإذا سكنت عند البعض فزمن سكوتها لن يطول. ولهذا فهي في حالة حركة.

ولهذا، فالعلاقة بين الثابت والمهتز. علاقة بين سكون وحركة.

وبما أنّ في السكون ثبات نسبي.

و في الحركة امتداد نسبي.

إذن القاعدة هي:

1. الثبات النسبي.

2. الحركة النسبية.

والاستثناء هو:

1. الثبات غير النسبي.

2 . الحركة غير النسبية .

ولأنّه لا مطلق إلا من عند الله .

إذن كل شيء بالنسبة للبشر نسبي .

ولذا :

- فكّر في الثابت .

- فكّر في المهتز .

- شاهد الثابت .

- لاحظ المتحرك .

وهكذا تتعدد المتحركات وتتنوع والحركة واحدة .

ولذا فإنّ المعلومة أو السلوك يقعان بين المهتز والثابت إلى أن يصنّفان

بمصادق .

فكّر في الثابت كما تفكّر في المهتز :

بما أنّه لا مطلق إلا من عند الله .

إذن بطبيعة الأمر بالنسبة لبني الإنسان كل شيء نسبي ، ولهذا حتى القيم

هي ذات ثبات نسبي ، ومع أنّها القابلة للتطوير والتغيير عبر الزمن ، إلا أنّها

الأكثر استقراراً .

ولهذا ، لا فرق بين الثبات والاهتزاز من حيث أن كل منهما نسبي .

والذي جعل كلّ منهما على حالة من النسبية ، هو التداخل بين الحركة

والسكون . ولهذا ، الثبات على حالة من الاهتزاز . والاهتزاز على حالة من

الثبوت، ولو لم يكن الثبات نسبيا ما تغيرنا وتغيرت أحوالنا وأصبح أجدادنا مسلمين بعد أن كانوا من الجاهلين قبل الرسالة المحمدية الخاتمة.

ولأن كل شيء نسبي، إذن كل شيء ممكن. فلا تستغرب أن يحدث ما لم تتوقع أن يحدث.

وعليه: إذا وقع ما لم تتوقع فعليك بالتعامل معه وفقا للرسالة الخاتمة حتى لا تندم يوم لا ينفعك الندم وتأكد إن الحق ثابت ودائم فلا تستغرب.

وعليك أن تعرف وفقا لدائرة الممكن (المتوقع وغير المتوقع) أن كل شيء قابل لأن يتغير كلما توفرت معطياته أو اشتراطاته.

وعليه فكّر في الثابت كما تفكّر في المهتز، فكل شيء يتغير. واعرف أن الزمن كفيفل بذلك إذا توفرت العزيمة ورسمت الخطط. ووضع المستقبل هدفا رئيسا لإحداث النقلة.

بطبيعة الأمر بما أن كل ثابت وكل مهتز هو نسبي.

إذن التفكير فيهما يعد ضرورة قبل اتخاذ القرار. ولذلك تتماثل دائرة الثابت والمهتز مع دائرة المتوقع وغير المتوقع، من حيث: أن 50% من الدائرة هو ثابت أو متوقع، وأن 50% من الدائرة هو المهتز أو غير المتوقع. وأيضا قد يكون الثابت سالبا، وقد يكون موجبا، وهكذا المهتز يمكن أن يكون سالبا ويمكن أن يكون موجبا.

ولذا فإن المتغير المتداخل يربط الثابت والمهتز في علاقة دائرة واحدة مثلما يربط المتوقع وغير المتوقع في علاقة دائرة واحدة وهي دائرة (الممكن). ولهذا تتداخل الحركة مع السكون، ويتداخل السكون مع الحركة.

وبما أن نسبة من السكون في حالة حركة. ونسبة من الحركة في حالة سكون.

إذن لا وجود للقوة المطلقة بالنسبة للخلق. ولذا ففكر في الثابت حتى تتيقن، وفكر في المهتز مثلما أنت متيقن.

وبما أنّ هناك حركة.

إذن بالطبيعة لا وجود للثبات المطلق، ولا وجود للاهتزاز المطلق.

النسبية مرونة في الثبات والاهتزاز:

لو لم يكن كل شيء نسبي ما استطعنا أن نصحح المعلومات الخاطئة التي تشرّبها المنحرف وأثرت في أقواله وأفعاله وسلوكه سلبا.

ولهذا فالقاعدة هي:

1 . مرونة النسبية في الثابت.

2 . مرونة النسبية في المهتز.

والاستثناء هو:

1 . انعدام مرونة النسبية في الثابت.

2 . انعدام مرونة النسبية في المهتز.

وبما أن النسبية مرونة في الثابت والمهتز.

إذن المرونة حركة استيعابية.

وعليه:

1- كن مرنا.

2- ناقش كل كبيرة وصغيرة ولا تتشبث وجادل الناس بالتي هي أحسن
ولا تظلم أحدا واتقي الله في نفسك وأهلك ودينك ووطنك وإلا ستندم يوم
لا ينفك الندم.

3- ثق أنّ المرونة تخلق الثقل، والثقل تصنع المستقبل الأفضل والوجود.

4- ثق أنّ كل ممكن نسبي.

5- تأكّد أنّه لا وجود للثبات المطلق.

6- تأكّد أنّ الجمود يؤدّي إلى التخلف.

7- كُن مرناً يتم استيعابك.

8- كن مرناً تُقدّر.

9- لا تتشبّث حيث لا وجود بين أيدينا لمطلق.

10- ثق أنّ كل شيء يتغيّر إلى النهاية.

11- ثق إن لم تتغيّر إلى ما يُفيد سيتم تجاوزك أو يستهدفك الآخرون

بالتغيير.

12. ثق من يتغير عن قيمة سيتجه إلى غيرها.

13. ثق من يتطلّع إلى قيمة نافعة سيرك أو يتجاوز عن أخرى.

القيم ثوابت عنيدة: القيم ثوابت؛ لأنها تستمد من مصادر ثابتة (الدين
والعرف)، ولهذا يحتكم الناس بها. إنها مكن القوة في دائرة المتوقّع وغير
المتوقّع. فبدون القيم لا تجد المحبة بين الناس تربية صالحة لنموها، وبدونها لا
يجد من يحافظ عليها، ولا يجد من يكفّر له التقدير والاحترام.

ولهذا فالقاعدة هي:

1 . القيم ثوابت .

2 . القيم عنيدة .

3 . القيم مكمّن المحبة .

والاستثناء هو :

1 . القيم ليست ثوابت .

2 . القيم ليست عنيدة .

3 . القيم مكمّن الكريهة .

ولهذا الكره اهتزاز، والاهتزاز تبدل .

المحبة ثبات، والثبات استقرار .

وعليه :

. استقرار تبني حياتك .

. استقرار تصنع لك عنوان .

. استقرار تفكر في المستقبل .

. استقرار تحقّق التغيير وتصنع النُّقلة .

ولذا فإنّ التبدّل لا يُسهّم في بناء الحياة الأسرية والاجتماعية والإنسانية
ولا يؤسس عنواناً ولا يصنع تاريخاً ويحقّق مستقبلاً، ولا يسهم في تنظيم
المجتمع وعلائق أفرادهِ وجماعاتهِ .

ومع ذلك ليس دائماً التمسك بالقيم فضيلة، القيم البالية التي لا تُسهم
في صناعة المستقبل وتحديث النُّقلة، التمسك بها يؤدّي إلى التخلف الثقافي

والحضاري، ويطمس الشخصية المتطلّعة، ويظهر الشخصية الانسحابية الضعيفة التي لا تستطيع تحدى الواقع وأسبابه وعلله التي تشد إلى الخلف في زمن الاندفاع إلى الأمام.

القيم التي يشب الناس عليها عبر الزمن قد يعتقد البعض أنها مسلمات لا يُقبل المساس بها حتى وإن لم تواكب حركة التغير الاجتماعي والإنساني. ولهذا القيم ثوابت عنيدة، فالمتمسكون بها لا يطيقون فراقها أو الحياد عنها. فأمرها ليس هينا، وعلى المستخلفين فيها مراعاة ذلك والعمل على تجاوزه بالمنطق والحجة والجدل والتي هي أحسن، وليس بالإكراه، مع مراعاة البدء مع الناس من حيث هم ثم العمل معهم في اتجاه ما يجب، لأجل إحداث النُقلة بإرادة.

وعلى الخليفة أن يضع في حساباته أهمية القيم بأهمية ما تحقّقه من منافع ومكاسب للأفراد والجماعات والمجتمعات، ويمدّ أهميتها في تقوية الوحدة الاجتماعية وفي استيعاب الآخرين الذين لا يكون استيعابهم على حساب ما تحقّقه القيم السائدة من منافع للمجتمع الذي كان سببا في إنتاجها، ولا تكون على حساب الاستخلاف في الأرض والورثة في الجنّة.

ولهذا الثوابت العنيدة قواعد. الحياد عنها ليس بالأمر الهين، مع أنّه ممكن. وذلك لأن الزمان كفيل بمتغيراته أن يغير أو يؤثّر في الثوابت.

الإنسان مواقف والاهتزاز لا يخلقها:

وبما أن الإنسان مواقف. والاهتزاز لا يخلق المواقف.

إذن القاعدة هي:

. ثبات المواقف.

والاستثناء هو:

. اهتزاز المواقف .

ولهذا فالإنسان مواقف مع ما يُحِبُّ أو يُفَضِّلُ، ومواقف ممَّا لا يُحِبُّ وممَّا لا يُفَضِّلُ. وذلك من أجل الآتي:

1 . إثبات الأنا المقدّرة قيما (التي تمارس حقوقها وتؤدّي واجباتها وتحمل مسؤولياتها).

2 . إثبات الذات الاجتماعية المقدّرة (اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا ونفسيا وذوقيا وثقافيا).

3 . إثبات الضمير الإنساني المقدّر (اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا ونفسيا وذوقيا وثقافيا).

ولذا فإنّ، تقدير المواقف قاعدة. وعدم تقديرها استثناء.

ولهذا عليك أن:

. تسعى لنيل التقدير .

. تسعى لنيل الاحترام .

. تسعى لنيل الأعراف .

. تسعى لنيل الاعتبار .

. تطلّع إلى ما يجب .

. تفهّم ظروف النّاس ولا تغتر .

. تمسكّ بدين الكافة ولا تغفل عن ممارسة أقواله وأفعاله الحسان .

وعليه:

1 . لا تُصدِّق من يُبارك بطولاتك في الخيانة والضلال.

2 . لا تُصدِّق من يُبارك بطولاتك في السرقة.

3 . لا تُصدِّق من يُبارك بطولاتك في الكذب.

4 . لا تُصدِّق من يُبارك بطولاتك في تعاطي المخدرات.

5 . لا تُصدِّق من يُبارك بطولاتك في تضييع الوقت.

6 . أفق من غفلتك تجد الحقيقة بين يديك.

الثابت يُعبّر عن الجوهر والمهتز يعبرّ عن الصورة:

بما أن الثابت يُعبّر عن الجوهر والمهتز يعبرّ عن الصورة.

إذن القاعدة هي:

1 . الثبات جوهري.

2 . الاهتزاز يعبرّ عن الصورة.

والاستثناء هو:

1 . الثبات ليس جوهري.

2 . الاهتزاز لا يعبرّ عن الصورة.

ولذا عندما يُعبّر الثابت عن الجوهر يُعبّر المهتز عن الصورة.

ولهذا يُزاح الشك عن الثابت ويعلّق بالمهتز.

وتظهر الحقائق في الجوهر وتختفي في كثير من الأحيان عن الصورة.

ولذا فإن الظاهر غير الكامن، فلا تعرّتك الأقوال والأفعال التي بها يتقرّب البعض للبعض زلفى. ولذلك على الخليفة معرفة الآتي:

- . أن الحقيقة تكمن في الجوهر.
- . أن الصورة قد لا تعكس الحقيقة.
- . أن القيم ثابتة وفقا لقاعدة الممكن.
- . أن للثوابت معايير تقاس بها وتقوم.
- . أنه لا معايير لمهتر.
- . أن الشكّ يُمكن من التعرّف والتبيين.
- . أن التفكير ضرورة قبل اتخاذ القرار.
- . من لا يخطط لمستقبله يفاجأ.
- . من لا يقارن لا يتمكن من التمييز والتعرف على المفارقات.
- . أن المعلومة تُحلل وفقا لمتغيراتها.
- . لا تشخص الحالة إلا في الوقع التي هي عليه.
- . أن كلّ شيء ممكن فلا استغراب.
- لا امتداد ولا حركة إلا في حدود الممكن:
- بما أنه لا امتداد ولا حركة إلا في حدود الممكن.
- إذن الممكن هو مجال الامتداد، ومجال الحركة والزمان.
- ولأنه ممكن فهو متوقّع الحدوث، وبعد حدوثه قد يكون مساويا لما هو متوقّع وقد يكون أكثر أو أقل.

ولذا فالممكن ضروري الحدوث إلا أن نسبة حدوثه احتمالية مما جعلنا نفترض الآتي:

- . الاحتمال الأوّل: يكون الممكن مساويا للمتوقّع السّالب أو الموجب.
 - . الاحتمال الثاني: يكون الممكن أقل من المتوقّع السّالب أو الموجب.
 - . الاحتمال الثالث: يكون الممكن أكثر من المتوقّع السّالب أو الموجب.
- بناء على هذه الافتراضات الثلاثة لا يُمكن أن يكون الامتداد إلا في مجال الممكن، ولا ممكن إلا في دائرة الزمان.

ولذا فإنّ ما نشاهده أو نلاحظه أو نحس به أو نتدوّقه أو نشمه أو نسمعه هو الواقع في حدود الممكن.

ولأنّه في حدود الممكن النسبي، يحدث الاختلاف في درجات تمييزنا لما يقع في مجاله بالنسبة إلى مداركنا وقدراتنا وأحاسيسنا فمنا من يميز بين الأشياء أكثر من بعضنا. وهذا يدل أن بعضنا قدراته التمييزية أقل والبعض الآخر يساويننا أو يتفوق علينا.

وعلى الخليفة أن يعرف:

كل شيء نسبي.

أنّ الثبات لا يعني الجمود.

أنّ المهتر يُمكن أن يثبت.

أنّ الإصلاح ممكن.

أنّ العلاج ممكن.

أنّ الممكن لا يكون مستحيلا.

وعليه:

. لا تكن أسيرا للصغائر.

. تطلّع لتحوّل خسائرك إلى مكاسب.

. ثق أنّ السباحة لا تُعلّم على الفراش.

. ثق أنّك قادر فكل شيء ممكن.

. ثق أنّك قوّة فلا تركز إلى الضعف.

. لا تعطل طاقاتك نتيجة عشرة واحدة في الطريق.

. ثق أنّ الأفعال أكثر حُجّة من الأقوال التي لم تكن حُجّة.

. تطلّع إلى المستقبل.

. غير وتغير لتحدث النقلة.

. أعمل على صناعة مستقبلك، وشارك الآخرين من أجله.

الثبات والاهتزاز في حالة تداخل:

لا غرابة أن نلاحظ الثبات والاهتزاز في الشيء الواحد نتيجة إدخال متغيرات عليه، فالرياح على سبيل المثال: كمتغير على ثبات شجرة النخيل يجعلها في حالة اهتزاز، وإذا اشتدت الرياح حتى تصبح عاصفة قد تؤدّي إلى إسقاط النخلة أرضا. ومع ذلك وإن سقطت على الأرض فلن تسقطها الرياح من أذهاننا فهي الثابتة فيها. وهكذا شخصية الإنسان المحترم الذي نال التقدير من الكثيرين فقد تهمز شخصيته في وقت من الأوقات وتحت ظروف معينة، وقد يحاول أمام البعض أن يُظهر تمسكه وثباته على بعض القيم إلا أنه سيكون مهترا أمام الكثيرين. وهكذا يثبت المهتز ويهتز الثابت

بإدخال المتغيرات عليه أو بتعرضه لمواقف تجعله في حالة اهتزاز بين التقدير والتقليل والتحقيق.

ولهذا الإنسان ثابت ومهتز:

ثابت من حيث أنه إنسان (كجواهر).

ومهتز في سلوكه (كظاهر)، ومهتز من حيث لونه، ونوعه، ومراحل نموه، وقدراته واستعداداته.

ولذلك يثبت الجوهر وتتمتز الأقوال، والا شكّال، والأفعال، والسلوكيات.

وعليه:

. فكّر في الثابت.

. فكّر في المهتز.

. شاهد بتركيز.

. لاحظ بوعي.

. انتبه بإدراك.

. افطن بعقل.

. تدبّر بحكمة.

والخليفة له دور كبير في عملية الإصلاح، فهو المحور الأساس لهذه العملية إذ يتطلب منه أن يكون واعيا في عملية الإصلاح، لأن المستخلفين يختلفون كل واحد عن الآخر في كل شيء، في التصرف والتفكير والحاجات، وعملية الإصلاح تتطلب ثنائية الرغبة والرغبة التي تعد القاعدة في التعامل، فقد أكد عليها القرآن الكريم في كثير من الآيات، إذ يقول

تعالى: {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ} 503.

سادسا: المقتدر لا يحتاج إلى أحد:

الحاجة هي طبيعة بشرية يتسم بها الناس، فمن غير الممكن أن يستغني الناس عن بعضهم البعض وخاصة في أمور الحياة ومتطلباتها، فهذا الطبيب وهذا المهندس وهذا المعلم كلا حسب عمله يحتاجه الناس، وهذه الصورة التي عليها الناس جميعا تتغير عندما تتجه الوجوه إلى السماء بقصد الدعاء، هنا تتبلور ملامح الحاجة لكل من خلال استعمال مفردة (ربنا) التي وردت في سياق كثير من الآيات القرآنية، فهي تدل على اللجوء الكامل إلى الله تبارك وتعالى وبيان شدة الحاجة إليه، إذ يقول تعالى: {فَإِذَا قُضِيَتْمْ مَنَاسِكُكُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَدِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ} 504 هنا يعلم الله تبارك وتعالى الدعاء فيستعرض صنفين، الصنف الأول يدعو الله جلّ وعلا فيطلب حظ الدنيا، ولا يلتفت إلى حظ الآخرة، وهذا يترتب عليه أمر آخر وهو فقدان النصيب في الآخرة وذلك بقصوره الطلب من الدنيا، أما الصنف الآخر يطلب الأمرين جميعا، أما بالنسبة إلى الصنف الأول يرتسم فيه النهي عن الاقتصار على طلب

503 - السجدة 16 - 20

504 - البقرة، 200 - 202

الدنيا، والذم لمن جعلها غاية رغبته، ومعظم مقصوده، أما الصنف الثاني ففيه طلب الأمرين الدنيا والآخرة والحسنة فيهما كل ما يريده الخليفة ويتمناه فهي مطلقة غير مقيدة بشيء، قال تعالى: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِكْرَامًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} 505 دعاء تكرر فيه لفظة ربنا، مما يدل على أن الخليفة يلح في الدعاء، فضلا عن ذلك كثرة ما يريده الخليفة من طلبات إلا أن بداية الآية تفتح لنا منفذا في الولوج بقضية طلب الحاجات وهي قضية نستعرضها من خلال قوله تعالى: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} فتكليف النفس إلا ما تسعه قدرتها فضلا ورحمة، أو ما دون مدى طاقتها بحيث يتسع فيه طوقها ويتيسر عليها، فهل هذا الكلام ينطبق على المقتدر؟ بطبيعة الحال يكون الجواب لا. إذن فطلب الحاجات مقتصر على البشر فهم الذين يحتاجون الله تبارك وتعالى في كل شيء، أما هو جلّ في علاه فلا يحتاج إلى أحد فهو الغني الكريم، وهو مالك الملك بالمطلق وهو على كل شيء قدير، نعود إلى لفظة (ربنا) والتي تقابلها إن جاز القول لفظة (عبادي) إذ يقول تعالى: {يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ} 506 وقوله تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} 507 فقوله يا عبادي مؤذن بأن بعده إعداد للقبول وإطماع في النجاة، وهذا لا يليق إلا بالمقتدر جلّ جلاله الذي يريد الخلاص لعباده والفوز بالجنة والابتعاد عن النار.

سابعاً: المقتدر إن شاء فعل:

505 - البقرة، 286

506 - العنكبوت 56

507 - الزمر 53

تبرز مقدرة الباري عز وجل في تصرفه في كثير من الأمور من خلال مشيئته العظيمة التي يحدد من خلالها ما يحصل وما سوف يحصل، وقد وردت المادة اللغوية (شاء) وتفرعاتها في القرآن الكريم مائتين وست وثلاثين مرة، فهي ذات كثافة ترددية عالية وهذا يدل على أهمية المادة اللغوية وحملها لكثير من الدلالات القرآنية التي تكاد تستوعب معظم موضوعات القرآن المتعلقة بالمشيئة، فهذه الكثافة العالية توحى لنا بالمقتدر جل جلاله في الاختيار، ونقصد بذلك مشيئته، يقول تعالى: {وَرَبِّكَ الْعَنِّيٰ ذُو الرِّحْمَةِ إِنَّ يَشَاءُ يُّدْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةٍ قَوْمٍ آخَرِينَ} 508 وقوله تعالى: {إِنْ يَشَاءُ يُدْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ} 509 وقوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ يَشَاءُ يُدْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ} 510 هذه الآيات الكريمة بمحملها يدق فيها المقتدر ناقوس الخطر للمستخلفين في الأرض، فذاهبهم قائم وبقائهم قائم. فإن من خلق أصولهم وما يتوقف عليه تخليقهم ثم كونهم بتبديل الصور وتغيير الطباع قادر أن يبدلهم بخلق آخر، ولم يمتنع عليه ذلك كما قال تعالى: {وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ} بمتعذر أو متعسر، فإنه قادر لذاته لا اختصاص له بمقدور دون مقدور، ومن كان هذا شأنه كان حقيقاً بأن يؤمن به ويعبد رجاء لثوابه وخوفاً من عقابه يوم الجزاء.

وقادر إن شاء فعل مرتبطة ارتباطاً كلياً بالتهديد والوعيد الذي تشكل منه الخطاب القرآني وهذا ما رأيناه في سياق الآيات المتقدمة.

ثامناً: مرتب الأقدار بحكمته: يهيئ الله تبارك وتعالى الأمور وفق مشيئته وتخطيطه العظيمين، ويتجلى ذلك في الأمور التي تتطلب وقتاً طويلاً،

508 - الأنعام، 133

509 - فاطر 16

510 - إبراهيم، 19

ويقصد بالوقت الطويل الأحداث التي تجري وفق نسق مترابط تكون الغاية منها عرض مقدرة الله تبارك وتعالى ورحمته، من ذلك قصة يوسف عليه الصلوة والسلام، فقصة يوسف لها خصوصية لم تجتمع لقصة غيرها في القرآن الكريم، فهي قصة دائرية، إذ نرى من القراءة الأولى أن بدايتها رؤيا، يقول تعالى: إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ {511} ونهايتها تحقيق لهذه الرؤيا بقوله تعالى: {وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} {512}، وهذا يفضي بنا إلى القول أنها قصة رؤيا، إذ أن للرؤى في تحريك أحداثها دورا كبيرا، فضلا عن ذلك أن هذه القصة اشتملت على مواقف كثيرة تبلورت حولها قدرة الله سبحانه وتعالى، فمنذ البداية أي من الرؤيا مرورا بالبئر، قال تعالى: {فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجَبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} {513} ووجوده في بيت عزيز مصر، {وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} {514} والمرادة، {وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ وَلَقَدْ

511 - يوسف 4 - 5

512 - يوسف 100

513 - يوسف 15

514 - يوسف 21

هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَأَى بَرَّهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} 515 وسجنه {ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتٍ لِيَسْجُنَّهٗ حَتَّىٰ حِينٍ} 516، وتفسيره للرؤيا، {قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِضُونَ} 517 ومن ثم يكون على خزائن مصر {قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} 518 وبعد ذلك يقود قبيلته إلى الخصب والنماء {رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقِّي بِالصَّالِحِينَ} 519 ذكر نعمة الله عليه بتوجهه إلى مناجاة ربه بالاعتراف بأعظم نعم الدنيا والنعمة العظمى في الآخرة، فذكر ثلاث نعم: اثنتان دنيويتان وهما: نعمة الولاية على الأرض ونعمة العلم، والثالثة: أخروية وهي نعمة الدين الحق المعبر عنه بالإسلام وجعل الذي أوتي به بعضا من الملك ومن التأويل لأن ما أوتي به بعض من جنس الملك وبعض من التأويل إشعار بأن ذلك في جانب ملك الله وفي جانب علمه شيء قليل.

هذه الأحداث المتتابعة تبين قدرة المقتدر عز وجل في عرض قدرته العظيمة، فضلا عن ذلك عرض خصائص كثيرة تتعلق بالأعمال الصالحة التي يجب أن يكون عليها الخليفة من برّ الوالدين والصبر والعفاف والتقوى

515 - يوسف 23 - 24

516 - يوسف 35

517 - يوسف 47 - 49

518 - يوسف 55 - 56

519 - يوسف 101

وغيرها كما فعل إسماعيل مع أبيه إبراهيم عليهما الصلاة والسلام. وهكذا شاء الباري عزّ وجلّ شاء أن تكون حياة النبي يوسف عليه الصلاة والسلام بهذا التابع، فيكون قدره عليه الصلاة والسلام بهذه الطريقة المرتبة من صغره إلى أن أصبح عزيزاً لمصر وهي من حكمة المقتدر عزّ وجلّ المقترنة بمقدرته.

تاسعا: مقتدر على المغالبة: الكائنات كلها مقهورة لله خاضعة لعظمته منقادة لإرادته، فجميع نواصي المخلوقات بيده، لا يتحرك منها متحرك ولا يتصرف متصرف إلا بحوله وقوته وإذنه، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ولا حول ولا قوة إلا به. فمن قوته واقتداره أنه خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، إذ يقول تعالى: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسْحَرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} 520 وأنه خلق الخلق ثم يميتهم ثم يحييهم ثم إليه يرجعون: {مَا خَلَقُكُمْ وَلَا بَعَثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} 521، وقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} 522، ومن آثار قدرته ما أوقعه بالأمم المكذبين والكفار الظالمين من أنواع العقوبات، وأنه لم يغن عنهم كيدهم ومكرهم ولا جنودهم ولا حصونهم من عذاب الله من شيء لما جاء أمر ربّك، وخصوصا في هذه الأوقات، فإنّ هذه القوة الهائلة والمخترعات الباهرة التي وصلت إليها مقدره هذه الأمم هي من اقتدار الله لهم وتعليمه لهم ما لم يكونوا يعلمونه، فمن آيات الله أنّ قواهم ومخترعاتهم لم تغن عنهم شيئا في صد ما أصابهم من النكبات والعقوبات المهلكة، مع بذل جدهم واجتهادهم في توقي ذلك، ولكن أمر الله غالب، وقدرته تنقاد

520 - الأعراف 54

521 - لقمان 28

522 - الروم، 27

لها عناصر العالم العلوي والسفلي. ومن تمام عزته وقدرته وشموههما: أنه كما أنه هو الخالق للعباد فهو خالق أعمالهم وطاعاتهم ومعاصيهم، وهي أيضا أفعالهم، فهي تضاف إلى الله خلقا وتقديرا وتضاف إليهم فعلا ومباشرة على الحقيقة، ولا منافاة بين الأمرين، فإن الله خالق قدرتهم وإرادتهم، وخالق السبب التام خالق للمسبب، قال تعالى: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} 523، ومن آثار قدرته ما ذكره في كتابه من نصره أوليائه، على قلة عددهم وعددهم على أعدائهم الذين فاقوهم بكثرة العدد والعدة، قال تعالى: {فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اعْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} 524. وفي معركة بدر تلك المعركة العظيمة التي غيرت مسار الدعوة الإسلامية، وزرعت الثقة في نفوس المسلمين وألهبت روح التضحية والفداء، وعززت مجدهم وفتحت لهم أبوابا كثيرة لنشر الدين الإسلامي، وكل ذلك كان رغم العدد القليل للمسلمين وضعف إمكانياتهم القتالية، إلا أن نصر الله كان هو الأعلى ومقدرته العظيمة فوق كل شيء، إذ يقول تعالى: {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّبِعُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمدِّدَ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ بَلَىٰ إِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمدِّدُكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} 525 فان أمر الله تبارك وتعالى نافذ لا محالة، يقول تعالى {إِنَّمَا أَمْرُهُ

523 - الصفات 96

524 - البقرة، 249

525 - آل عمران، 123 - 126

إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ
وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ {526}.

عاشرا: الجنة والنار بيده: فمن آثار مقدرته ورحمته ما يحدثه لأهل النار
ولأهل الجنة من أنواع العقاب وأصناف النعيم المستمر الكثير المتتابع الذي
لا ينقطع ولا يتناهى. ويمكن القول أن لفظة النار ولفظة الجنة ترتبط
بأسلوب التبشير والإنذار القرآني، فالخطاب القرآني بشير ونذير، ولهذا
وصف الله رسوله بأنه كذلك فقال: { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا
وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } {527}، إلا أن الخطاب القرآني حدد
بالضبط مناط تبشيره ومناط إنذاره، فقال تعالى: { فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ
لِتُبَسِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا } {528}.

فما يحدث لأهل النار هو من آثار قدرته التي لا تدانيها قوة، والتي
كانت دائما محور الخطاب عندما يخاطب الباري جلّ جلاله الكفار وغيرهم
من العصاة، إذ يقول تعالى: { وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ
النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } {529} ففي القرآن الكريم نجد كثيرا من النصوص التي
تتحدث عن النار وأهوالها، فضلا عن ذلك وصف النار فمن ذلك قوله
تعالى: { أَدْلِكَ خَيْرٌ نُزْلًا أَمْ شَجَرَةُ الزُّقُومِ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ إِنَّمَا
شَجَرَةُ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ فَإِنَّهُمْ لَكَالُونَ
مِنْهَا فَمَا لُتُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ثُمَّ إِنَّهُمْ عَلَىٰهَا لَشُوبًا مِنْ حَمِيمٍ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ
لِإِلَى الْجَحِيمِ } {530}، وصف تتزلزل له الأقدام وتحقق له القلوب وترتجف له
الشفاه وتعلو الأنفاس، أي جحيم هذه التي ينتظرها المجرمون؟ ومن قدرها

526 - يس 82 - 83

527 - سبا 28

528 - مريم 97

529 - البقرة، 39

530 - الصافات 62 - 68

بهذه القدرة المخيفة ورسمها بهذه الصورة المرعبة؟ فلا يمكن أن يكون الجواب إلا المقتدر تبارك وتعالى، فقد وردت على لسان المشركين، في قوله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ} 531.

ومما يرد من أوصاف النار وأهلها يبين عظمة المقتدر جلّ جلاله ومنه:

- تعرض جهنم على الكافرين يوم القيامة فتظهر بارزة لهم: {وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا} 532.

- تسع جهنم مستحقيها من الجن والإنس: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} 533.

- لها أبواب: {وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّفْسُومٌ} 534.

- لها خزنة لإحقاق كلمة العذاب على الكافرين: {وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ} 535.

531 - البقرة، 165

532 - الكهف 100

533 - هود 118 - 119

534 - الحجر 43 - 44

535 - الزمر 71

- عليها ملائكة فيهم الغلظة والشدّة: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ } {536}.

- مبنية على أعمدة وموصدة الأبواب: { إِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُّصَدَّةٌ فِي عَمَدٍ مُّمدَّدة } {537}.

- لها سرداق: { وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَعِيثُوا يُعَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا } {538}.

- لها طبقات طبقة فوق طبقة: { إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا } {539}.

- جوها لا يطاق: فحرّ نارها ينفذ إلى المسام ودخانها أسود، لا يخفف حرها بل يزيد فيه، { وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ فِي سُمُومٍ وَحَمِيمٍ وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ } {540}.

- تزداد سعيرا كلما خبت: { وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيًَّا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا } {541}.

536 - التحريم 6

537 - الهمزة 8 - 9

538 - الكهف 29

539 - النساء، 145

540 - الواقعة، 41 - 44

541 - الإسراء، 97

- لها أصوات منكرة مرعبة: {بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ
بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا إِذَا رَأَوْهُم مِّنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْطًا وَزَفِيرًا} 542 وقوله
تعالى: {إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيْقًا وَهِيَ تَفُوْرٌ تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا
أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيْرٌ} 543.

- يلقون فيها من مكان ضيق مقرنين: {وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضِيْقًا
مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا} 544.

- عذابهم فيها متواصل: {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ لَا
يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ} 545.

- لها خزنة تعنفهم وتذيقهم أصناف العذاب: {وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى
جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فَتَبَحَتْ أَيْبُؤُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ
مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ
حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ} 546.

- لهم فيها ألوان العذاب الأليم: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ
نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ
عَزِيْرًا حَكِيْمًا} 547.

- لا صبر ولا طاقة لهم بالعذاب: {اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ
عَلَيْكُمْ إِنَّمَا يُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} 548.

542 - 1 الفرقان، 11، 12

543 - الملك 7 - 8

544 - الفرقان، 13

545 - الزخرف 74 - 75

546 - الزمر 71

547 - النساء، 56

548 - الطور 16

- الزبانية يسحبونهم في الحميم والنار والأغلال في أعناقهم ويضربون بمقامع من حديد: {إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ} 549.

- لهم فيها زفير وشهيق: {فَأَمَّا الَّذِينَ شَفَعُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ} 550.

- تلعف النار وجوههم وتقلب فيها: {تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ} 551.

- فراشهم وغطاؤهم من النار: {هُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نُجْزِي الظَّالِمِينَ} 552، وقوله تعالى: {هُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ} 553.

- طعامهم من شجر الزقوم، يخرج من أصل الجحيم، وهو شجر صغير الورق، مرّ الطعم، وثمره نار، يضطرهم الجوع إلى أكله، لعدم وجود غيره، فيحرق معدهم، وشرابهم من المهل، ما يمهل في النار حتى يذوب: {إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُومِ طَعَامٌ الْأَثِيمِ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلِي الْحَمِيمِ} 554.

- شرابهم الحميم (الماء المغلي) والغساق (صديد أهل النار) فيقطع الأمعاء من شدة حرارته: {وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ مِنْ وَرَائِهِ

549 - غافر 71

550 - هود 106 - 107

551 - المؤمنون، 104

552 - الأعراف 41

553 - الزمر 16

554 - الدخان 43 - 44

جَهَنَّمَ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ
مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ {555.

- حرم عليهم طعام وشراب أهل الجنة: {وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ
أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ
حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ {556.

- يتمنون الرجوع إلى الدنيا، حين يقفون على العذاب: {وَلَوْ تَرَى إِذْ
وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ
الْمُؤْمِنِينَ {557.

- يتمنون الموت، ليتخلصوا من العذاب، وأنى لهم ذلك: {وَنَادُوا يَا
مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُنْتُمْ

- يدعون الله ليصرف عنهم العذاب أو يخففه: {وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ
لِحِزَّةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ {559.

- هم فيها خالدون: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ
لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا
هُمْ يُنظَرُونَ {560.

555 - إبراهيم، 15 - 17

556 - الأعراف، 50

557 - الأنعام، 27

558 - الزخرف، 77

559 - غافر، 49

560 - البقرة، 161 - 162

أما الجنة فقد أعدها الله تبارك وتعالى للذين استخلفوا في الأرض والوارثين الذين آمنوا بالله وبرسوله وبرسالته الإسلام وقد وصفهم القرآن الكريم بأوصاف منها:

-المتقون: قال تعالى: { قُلْ أُوۡبَيِّتُكُمۡ بِحَيۡرٍ مِّنۡ ذٰلِكُمۡ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنۡدَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٌ تَجۡرِي مِنۡ تَحۡتِهَا الْأُنۡهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضۡوَانٌ مِّنَ اللّٰهِ وَاللّٰهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ } {561}، وقال تعالى: { وَسَيَقَ الۡذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمۡ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَابُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمۡ طِبۡتُمۡ فَأَدۡخُلُوهَا خَالِدِينَ } {562}. والجنة عرضها عرض السماوات والأرض مصداقا لقوله تعالى: { وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّنۡ رَبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتۡ لِلْمُتَّقِينَ } {563}.

وقال تعالى: { مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّنۡ مَّاءٍ غَيۡرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّنۡ لَّبَنٍ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنۡ حَمۡرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنۡ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَهُمْ فِيهَا مِنۡ كُلِّ الثَّمَرٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّنۡ رَبِّهِمۡ كَمَنۡ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءُهُمۡ } {564}. وقال تعالى: { وَمِنۡ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ فَبِأَيِّ آلَآءِ رَبِّكُمَا تُكذَّبَانِ مُدَاهِمَتَانِ } {565}.

- الأبرار: { لَكِنِ الۡذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٌ تَجۡرِي مِنۡ تَحۡتِهَا الْأُنۡهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنۡ عِنۡدِ اللّٰهِ وَمَا عِنۡدَ اللّٰهِ خَيْرٌ لِّلْأَبۡرَارِ } {566}.

- المقربون: { فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ } {567}.

561 آل عمران، 15.

562 - الزمر 73

563 - آل عمران، 133

564 - محمد 15

565 - الرحمن، 62-64

566 - آل عمران، 198

- عطاؤهم غير مقطوع: { لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَعْوًا إِلَّا سَلَامًا وَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا } 568.

- ممتعون: { وَأَمْدَدْنَاَهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ } 569، وقال تعالى: { يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزِفُونَ } 570.

- مرزوقون: { وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } 571.

- مدللون: { وَوَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ أُظُوفُهَا تَذَلِيلًا } 572.

- لهم أزواج مطهرة: { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا } 573، وقال تعالى: { وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ } 574.

- مخدومون ومخبرون: { مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرُونَ فِيهَا سُمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا } 575، وقال تعالى: { وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ

567 - الواقعة، 88 - 89

568 - مريم 62

569 - الطور 22

570 - الصافات 45 - 74

571 - البقرة، 25

572 - الإنسان 14

573 - النساء، 57

574 - الصافات 48 - 49

575 - الإنسان 13

مَكْنُونٌ {576}. قال تعالى: {أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُجْلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا} {577}، وقال تعالى: {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ حَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَعْفَرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءُهُمْ} {578}. وقال تعالى: {فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ وَمَنْارِقٌ مَصْفُوفَةٌ وَزَرَائِبٌ مَبْثُوثَةٌ} {579}.

- حامدون: يحمدون الله على ما آتاهم من النعم، التي وعدوا بها: {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} {580}

- عاملون الصالحات: لما فيها من نعيم: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا} {581}.

- خالدون: {وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنْتُمْ بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} {582}.

576 - الطور 24

577 - الكهف 31

578 - محمد 15

579 - الغاشية 13 - 16

580 - الزمر 74

581 - الكهف 107 108

582 - البقرة، 25

وعليه فمن صفات المقتدر يستمد الخليفة صفات مقدرته في دائرة النسبية، فهو المقتدر على التسامح، والمقتدر على القول الحق، والمقتدر على الفعل الحق، وهو المقتدر على إزهاق الباطل ودمغه بالحجة الحق، وهو المقتدر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو المقتدر على أن يفعل ما يريد تحت إرادة المقتدر الأعظم جلّ جلاله، وهو الذي يتذكر مقدرة الله عليه كلما أحس بأن له مقدرة.

4 - صادق الوعد (برّ بوالده):

الوعد يقول الحق، جلّ وعلا عن صفة مخصوصة في إسماعيل حيث لم يذكر أيّ عبد مخصوص بالاسم بهذه الصّفة مصداقا لقوله تعالى: {وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ} 583.

أمّا عن صدق وعد إسماعيل فجاء في معرض وصف الله عزّ وجلّ له بعدة بأشياء منها قوله: (إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ).

وهذا الوعد يمكن أن يكون المراد فيما بينه وبين الله تعالى ويمكن أن يكون المراد فيما بينه وبين الناس.

أمّا الأول: فهو أن يكون المراد أنه كان لا يخالف شيئا ممّا يؤمر به من طاعة ربّه وذلك لأن الله تعالى إذا أرسل الملك إلى الأنبياء وأمرهم بتأدية الشريعة فلا بدّ من ظهور وعد منهم يقتضي القيام بذلك ويدل على القيام بسائر ما يخصه من العبادة.

وأما الثاني: فهو أنه عليه السّلام كان إذا وعد الناس بشيء أنجز وعده فالله تعالى وصفه بهذا الخلق الشريف وأكثر ما يتضح في وعد من نفسه

الصبر على الذبح فوفى به حيث قال: {سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنْ
الصَّابِرِينَ} 584.

هنا نتساءل:

هل كان صادق الوعد فقط؟

ألم يكن صادقاً في كلِّ الأمور؟

نقول: إنَّ تخصيص الصفة لا ينفي غيرها، أي أنَّ ذكر الله عزَّ وجلَّ
لصدق الوعد لا ينفي كونه صادقاً منهجاً وسلوكاً، وإتِّمَّ الذكر هنا، جاء
لأهمية الوعد في العقيدة والسلوك، أهمية توجب الذكر، ووجوب الذكر راجع
ليس لإسماعيل ولمن صدق وعده بل لمن لا يصدق الوعد، فكثير من النَّاس
يعتقدون بعدم أهمية صدق الوعد لذلك تراهم يخلفون ويتخلفون دون اعتبار
لهذه الفضيلة المتضمنة لعدة قيم منها:

الصدق

الاحترام

الاعتبار

التقدير

الوفاء

الالتزام

المودة

التواصل

الاتفاق

التضحية

وربما أخرى لم نذكرها، ولكن هذه الفضيلة تتسع لتحتوي قيما كثيرة كلّها تصب في خدمة الإنسان وعلاقته الآخر.

وصدق الوعد صفة كلّ نبي وكلّ صالح، فلا بدّ أنّ هذه الصّفة كانت بارزة في إسماعيل بدرجة تستدعي إبرازها والتنويه بها بشكل خاصّ، لذلك ذكرها الله للعام والخاص، أي لعموم المؤمنين آية في العقيدة والسلوك، وللخاص، أي؛ لما اختص به العبد الصادق الوعد إسماعيل صلّى الله عليه وسلّم.

وعليه:

إنّ إسماعيل صدق وعده مع أبيه؛ فكان البرّ في نفسه وقلبه، {وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا} 585. ولهذا فلا صفة للبرّ إلا من البرّ المطلق جلّ جلاله.

فالبرّ من الأسماء الحسنى لله تعالى، ولا نملك إلا أن نقف أمام الاسم الذي يفيض بكل معاني الجمال التي يمكن أن ترد على الخاطر أو تخرج حروفا على لسان أكثر أهل الأرض لنا ورأفة ورحمة فكل هذا وغيره مشمول في حرفين يسبقهما (ال) التعريف اللذان يحويان لذي القلب الرقيق أن كل رحمة وعطف ولين ومحبة قد جمعت في (برّ)، و(ال) السابقة التي هي للتعريف تفيد الاستغراق والتخصيص فلا (بارّ) ينتهي ببرّه إلى برّ (البرّ).

هو المحسن والبرّ المطلق هو الذي منه كل مبرّة وإحسان والعبد إنّما يكون برّا بقدر ما يتعاطاه من البرّ ولا سيما بوالديه وأستاذته وشيوخه 586.

البرّ فاعل البرّ والإحسان 587.

البرّ من أسماء الله تعالى وتقدس "العَطُوفُ الرَّحِيمُ اللطيف الكريم" قال ابن الأثير: في أسماء الله تعالى البرّ دون البارّ وهو العَطُوفُ على عباده ببرّه ولطفه، والبرّ والبارّ بمعنىً وإنما جاء في أسماء الله تعالى البرّ دون البارّ 588.

البرّ: هو الذي يلتجئ إليه عند كل حاجة أو شدة، وهو الذي يمد بالعون والمنفعة، فيكرم ويغني ويرحم ويعز من يشاء ويذل من يشاء، وهو على كل شيء قدير.

والبرّ هو المتسع بملكه وهيمنته وبواسع رحمته، وهو الذي يملك الملك بالمطلق فلا ينقص من برّه شيء، وهو الرحمن الرحيم.

البرّ الرحيم: هو الذي يرحم كلما تم الالتجاء إليه، ولذا كلما التجاء إليه أحد حفظه من كل سوء وعطش وجوع وفاقة. قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِّي بِالصَّالِحِينَ﴾ 589.

البرّ الرحيم هو الذي يستوعب الكل دون أن يستثني أحد من برّه، ولذا فهو البرّ الكامل بالحسنات ولا نقيصة فيه.

586 الغزالي المقصد الأسنى، ص 139.

587 الإيجي كتاب الموافف، ج 3، 323.

588 لسان العرب، ج 4، ص 54.

589 الشعراء 69 - 83.

البرّ مصدر وليس مشتقاً، أي انه مصدر للاشتقاق، ولذا تستمد الحسنات منه.

فالتائر الذي يحمل الطعام في منقاره الصغير لأفراخ له أعجزها البرّ والصغر والضعف، ممن استمد هذا الخنان؟
استمده من الله البرّ.

والحيوان الذي يحنو على صغيره بالرغم من كونه وحشا غير أليف، من الذي دفعه لتلك الرّحمة الحانية على صغير مجهول المستقبل في علاقته بأبويه؟
دفعه لهذه الرّحمة الله البرّ الرّحيم.

والأم التي تتحمل ويلات ألم الحمل والوضع والسهر لتنشئة صغير ضعيف ولا تعلم هل سيكافئها بما فعلت بالإحسان أم بالجحود والكران، وهي مع هذا تشعر بكل متعة وسعادة؟ فكيف جمعت في نفسها بين نقيضين ألم وسعادة!

جمعت بين النقيضين بفيض من البرّ الرّحيم جعلها تستعذب العذاب وتسعد بالآلام وتستمتع بالوهن لهذا أمر الله الإنسان أن يحسن إلى الوالدين ولاسيما الأم لما أعطت من برّ ورحمة ممزوجان بالوهن وهذا ممّا قاله الله تعالى: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ} 590، وقال تعالى: {وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاحْفَظْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا} 591.

590- لقمان 14

591 الإسراء 23، 24.

والحقيقة التي لا جدال فيها أنّ كل مظهر من مظاهر البرّ سره يكمن في سريان نور الاسم البرّ في هؤلاء الرّحماء وغيرهم من مخلوقات لا يحصيها إلا الله البرّ الرّحيم.

وما وصلنا إليه بعد تعمق في مصادر العلم من كتاب وسنة وكتب لغة وكتب تفسير وشرح للحديث أن الاسم البرّ "كمادة لغوية" لها علاقة بها بالشكل المرسوم هكذا (البرّ) (بالباء المفتوحة) فهذا المظهر لا ينطبق إلا على الله البرّ الرّحيم.

و(البرّ) بكسر الباء، هو مجموع الخلق الحسن والخير والإحسان في صورته وأفعاله، وهذا هو المظهر العملي للبرّ أو ما يمكن أن نسميه بالنمط السلوكي المشتمل على القول والفعل والحافز الذي يحفز الفرد للفعل بدافع من الشعور الداخلي المفعم بكل أحاسيس الوفاء والرغبة في تقديم فعل مماثل لما قدّم له من خير في مراحل عمره المختلفة، لذلك فإن البار وهو المتخلق بهذا الاسم يحوي الشكر والعرفان وأداء ما عليه من واجبات تجاه الآخرين، سواء أحسنوا إليه أم أساءوا، فيتوجه بالرّحمة والبرّ لكل مخلوق على وجه البسيطة، وهذا المتخلق الأمثل بالبرّ المطلق هو مدار البحث في أسماء الله الحسنى من حيث المدلول والعلاقة بالخليفة المتخلق بالاسم البرّ.

الاسم البرّ في أسماء الله الحسنى:

جاء في التنزيل العزيز قوله تعالى: {إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ البرّ الرّحيم فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ} 592 فقوله: (إِنَّهُ هُوَ البرّ الرّحيم) ورد مرة واحدة وفيها إشارة وتنبية لنا بأن البرّ واحد كما أن الله واحد، وأنه لا برّ إلا البرّ، ولا أبرّ من البرّ المطلق لأنه الواحد فلا يبرّ برّه أحد.

والبرّ من صفات الله تعالى وتقدس "العَطُوفُ الرَّحِيمُ اللطيف الكريم"، البرّ وهو العَطُوف على عباده ببرّه ولطفه، والبرّ والبارّ بمعنى واحد وإنما جاء في أسماء الله تعالى البرّ دون البارّ 593. وهذا لأنّ البرّ مصدر من حيث اللغة والبار مشتق اسم فاعل ولا يصح أن يكون البرّ المطلق الذي يسع الكون ومن فيه وما فيه مشتق من غيره بل الذي يصح أن يكون البار الذي يتمثل الاسم البرّ أن يكون مشتقا من البرّ الأعظم المطلق فيتمثل أمره ويجتنب نهيّه والذي يتمثل بالبرّ هو الخليفة الذي يسع غيره بجوده وإحسانه وعطفه ولطفه وكرمه.

والبرّ هو واسع الإحسان، صادق الوعد، عظيم الجود لعباده، فهو مصدر البرّ يمن بعطائه على عباده في الدنيا والآخرة ولا يقطع الإحسان بسبب العصيان 594. فهو البرّ بعباده، العطوف عليهم ومن مظاهر برّه وإحسانه بهم:

1 - برّ بهم قبل الدنّ.

وهذه المرحلة هي التي يمكن أن نطلق عليها مرحلة اللاشيء لا العدم لأنّ العدم شيء، فهو سبحانه قدر عباده في عباده في اللوح المحفوظ وخلق الخلق ولم يكونوا في عالم الوجود الذي نطلق عليه (شيء) والشيء وجود، أمّا ما قبل الشيء فما هو. بالتأكيد ليس هو العدم لأنّ العدم خلق من خلق الله، ولكن خلقهم بالقدرة الربّانية من لا شيء قبل خلق الشيء الذي منه العدم ومنه الوجود، بمعنى قدرهم في علمه الذي هو محدث منه ولم يكن له سابق عليه، وهو عزّ وجلّ يظهر من علمه بقدر ما يريد، وقدرته متناهية مع عدم تعارض القدرة مع الإرادة فهو يقدر على كل شيء بشرط ألا تتعارض

593 لسان العرب - ج 4، ص 51

594 - عبا لمقصود محمد سالم في ملكوت الله مع أسماء الله ص 104

القدرة مع الإرادة وهذا الذي نقول من تمام القدرة المتناغمة المتسقة مع الإرادة.

ومن هنا لما تساءل نبي الله زكريا عليه الصلّاة والسّلام عن الكيفية التي سينجب بها الولد مع علمه بأن القدرة الإلهية لا تتعارض مع الأسباب، وإن كان هذا لتعارض في الظاهر أما في حقيقة الأمر فلا تعارض، أخبره الله تعالى بأن قدرته لا يحدها حد ولا يقيدها قيد من عقل يتقيد بالسبب ولا يتحرر إلى المطلق، والله عنده المطلق ولا قيد لديه وليس عنده سبب لأنه خالق الشيء وما قبل الشيء وتقيدنا نحن بالعقل الذي تقيد بالسبب، مع دعوته سبحانه للانفكاك من قيد القيد إلى إطلاق المطلق مع اليقين بأنه لا مطلق يتأتى إلا من خلال التقيد بقدرة المطلق الواحد، وكان هذا في الحوار الذي وصف لنا قدرة البرّ الرحيم العطوف الذي لم ينس من يتعلق ببرّه ورحمته فيكسر له كل القواعد الكونية المعمول بها لأنّ تلك القواعد والقوانين والنواميس من خلقه وهو قادر على فعل الشيء وضده مع عدم التعارض بين القدرة والإرادة كما أسلفنا فلما كانت القوانين المتعارف عليها ألا ينجب من قد بلغ من الكبرّ عتيا من زوجة عاقر طاعنة في السن، فهنا لا قدرة بشرية تقدر على فعل شيء ولكن إرادة البرّ بعباده الذي يريد أن يدخل السعادة على قلب النبي زكريا عليه الصلّاة والسّلام قدرت غير ذلك فخلقه شيء وهو لم يكن له في السبق شيئا، قال تعالى: { كَهَيْعِصَ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرْتُئِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا قَالَ رَبِّ أُنِّي يَكُونُ لِي غُلَامًا وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِّ عِتِيًّا قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ

شَيْئًا} 595 فمن عطاء الله وقدرته ورحمته وبرّه أبقى سيدنا زكريا عيه الصلّاة والسلام وزوجه على حال الشيخوخة وأحسن إليهما وبرهما بنعمة الولد، مع قدرته على ردهما شباب ولا يوجد ما يمنع ذلك ولكنّه البرّ الذي يملك القوّة والقدرة فيظهر قدرته في برّه وعطفه، فلا يمنع من عطائه وبرّه عقم ولا شيخوخة ولا وهن عظم، وكيف يمنعه سبب وهو خالق السبب.

وكيف يسأل عن الشيء وهو خالق الشيء من لا شيء! لذا فقد قال الله تعالى: (وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا) وهذا ما قلناه إنّه خالق الشيء من لا شيء وهذا اللاشيء هو نقطة الارتكاز في إظهار برّه الشامل الواسع الذي وسع المخلوقات فهو قادر على برّ من يشاء دون التقيد بسبب فهو قدر الشيء من لا شيء فلا يمتنع على برّه شيء.

فله الحكم المطلق والإرادة المطلقة وإليه يرجع الأمر كله ولا إرادة إلا إرادته ولا ينفذ إلا أمره.

2. برّ بهم وهم في عالم الذر.

قال الله تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ} 596.

وعالم الذر عالم يكمن في عالم التكوين الروحي، عالم له وجود بكيفية أخرى غير مستساغة عقلا وإنما مقبولة تعقلا، وهنا نسأل: أليس العلم الحديث وصل إلى أن يخلّق من الخلية الحية مثل لصاحبها.

أليس العلم الحديث قد وصل إلى تقنية يحفظ بها الحيوان المنوي الذكري والبويضة الأنثوية ويستطيع أن يمزجها ليأتي لنا بمخلوق جديد.

والسؤال الذي نتقدم به لكل ذي تبصر وتعقل هو:

أليست قدرة الله مطلقة.

أليست حكمة الله مطلقة.

أليس الله فعّال لما يريد.

أليس الإنسان مدعوا لخلافة الله في الأرض.

تلك الأسئلة إذا أجبت عليها إجابة صحيحة فاعلم انك ممن يحقّ لهم خلافة الله في أرضه. وتوضيح برّ البرّ الرّحيم بعباده في عالم الذر أن أوجد فيهم الحقيقة التي لا تقبل النقاش ولا يرقى إليها شك ولا يستطيع أن يطعن فيها طاعن ولا يجادل فيها مجادل، وهذه الحقيقة تتمثل في الإقرار بالوحدانية لله وإنه سبحانه وتعالى لا شريك له فقال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن نَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} 597.

إنّ الله تعالى اصطفى الأنبياء، ثم جعل منهم الذرية، أي أن أول المصطفين أبونا آدم عليه الصّلاة والسّلام وآخرهم سيدنا محمد عليه الصّلاة والسّلام، فأبنائهم كهيئة الذر، فقد منحهم عقلا يفهم وإرادة تقرر ولسانا ينطق وعينا تبصر وأذنا تسمع، وهنا لنا وقفة لأن السائل من غير المصدقين بما ورد في القرآن الكريم، أو من وقف وراء عقل العقل أو ما يمكن أن نسميه

من سجن فهمه في سجن العقل فيقول هذا السائل ومن حقّه أن يقول:
كيف تجتمع الحواس في نقطة واحدة. وهذه النقطة ذر قد لا ترى بالعين
الجارحة. بل ترى بعين الرّوح والدليل على رؤية عين الرّوح والرؤى والأحلام
التي يراها النائم فبأي عين يرى!

3. برّ بهم في أصلاب الآباء.

فالله البرّ لم يترك الأمر سدى فهو نعم المقدر، فقد أخرج الإنسان من
مرحلة اللاشيء إلى الشيء في عالم الدر ثم أودعهم أصلاب الآباء وفي علمه
المؤمن والكافر، فبرّ المؤمن بأن خلق له الجنّة وعاقب الكافر بأن خلق له
النّار، فالمؤمن يدخل الجنّة برّحمة الله ثم بعمله، والكافر يدخل النّار بمعصيته
لله وبعدل الله في ملكه، فهو سبحانه وتعالى ببرّه قد خلق الجميع في
أصلاب الآباء على الفطرة والفطرة هي الإقرار لله بالعبودية فلم يترك الله
البشر في مراحل تقلبهم من طور إلى طور بل فطرهم على فطرة الإسلام
وصبغهم بصبغة الإيمان.

قال اله تعالى: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ
عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا
يَعْلَمُونَ} 598.

فالأمر للنبي صلّى الله عليه وسلّم باستمرار التوجه لوجه واحد هو وجه
الله المقصود دائما وهذا التوجه هو لب الدين المستقيم ومحور الوجدانية
الخالصة التي فطر الله الناس عليها وخلقهم لها وأودعها في أرواحهم فلا
يوجد من لا تنازعه نفسه بالتوجه إلى الله وقصده دون سواه، ولكنها هموم
الدنيا التي شغل الناس بها أنفسهم، فطوبى لمن تغلب على الهم وصار من
أصحاب الهمم والعزائم التي لا تلين وفرّغت أنفسها للتوجه لله بالوجه

سجودا وبالروح تعلقا وبالقلب ثباتا على وجهة الحق لا تقلبا من الحق إلى الباطل تمثلا بقوله صلى الله عليه وسلم عن أنس قال: "كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْتَبُ أَنْ يَقُولَ: " يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ آمَنَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا قَالَ نَعَمْ إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أَصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ"599، وعن السيدة عائشة أم المؤمنين أنها قالت: "مَا رَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ إِلَّا قَالَ يَا مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى طَاعَتِكَ"600، فالقلب معلق بالرَّب الذي يقبله حيث يشاء الرّب بعمل العبد ومن عمل العبد التوجه لله بالدعاء باللفظ المنطلق من نية صادقة وإيمان متين بالحفظ من التقلب السيئ الذي يؤدي إلى المهالك والبعد عن الفطرة السليمة والوجهة الصادقة.

لذا فالله يحفظ الإنسان من التوجه الخاطئ بتوجيه حواسه نحو الفطرة السليمة منذ التكوين ولأن علمه شامل فهو يعلم أهل النار وأهل الجنة والكل يدخل المكان الذي يستحق، بالعدل أو بالرحمة وحتى الإنسان وهو في صلب أبيه أو في رحم أمه لم يترك سدى بل شملته عناية البر الرحيم فعن السيدة عائشة أم المؤمنين قالت أُتِيَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِصِيبِيٍّ مِنْ الْأَنْصَارِ يُصَلِّي عَلَيْهِ قَالَتْ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ طُوبَى لِهَذَا لَمْ يَعْمَلْ شَرًّا وَلَمْ يَدْرِ بِهِ فَقَالَ: أَوْ غَيْرُ ذَلِكَ يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْجَنَّةَ وَخَلَقَ لَهَا أَهْلًا وَخَلَقَهَا لَهُمْ وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ وَخَلَقَ النَّارَ وَخَلَقَ لَهَا أَهْلًا وَخَلَقَهَا لَهُمْ وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ"601.

599 سنن الترمذي، ج 8، ص 29

600-مسند أحمد، ج 19، ص 95

601 سنن أبي داود، ج 12، ص 322

وهذه الرحمة من الله البرّ كانت في الأصلاب كما كانت في عالم الذر، فلما أمر الله نبي الله إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام بالنداء لأداء الحج بوحدة القصد، وبثبات القلب، وبإقامة الوجه لتنزل الرحمة ومهبط النور في بيته لأكرم في مدينته الأقدس مكة وكان النداء لمن خرج من الأصلاب ومن كان كامنا في الأصلاب ومن كان متخلقا في الأرحام فمن لبي في عالم الذر لبي في الأصلاب ومن لبي في الأصلاب لبي في الأرحام ومن لبي في كل ذلك لبي في عالم الأجساد.

وعليه فالله ببرّه لنا لم يتركنا في أيّ مرحلة من مراحل وجودنا في كلّ الأطوار قال الله تعالى: {مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا} 602 هذا الخلق في مراحل المختلفة بينه قوله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ} ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَعِينُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ} 603. وأطوارا من معانيها مراحل العمر المختلفة فالله قلبّ البشر شبابا وشيوخا وضعفاء وأصحاء، ومن معاني الكلمة الثقل بين الأحوال الجسد بين الصحة والسقم والبصر والعمى وغير ذلك، وقد تعني الأحوال من الأخلاق والسلوك لأنّ خالق الجسد خالق الفعل والسلوك مع عدم المخالفة في تخيير الإنسان في فعل فعله وسلوك سلوكه، وما يناسب المقام الذي نبحت فيه هو الخلق في مرحلة متقدمة بعدا الإيجاد الأوّل بالخروج من علم الله إلى الوجود بقدره الله وهو الإيجاد الأوّل، لأن ما بعد الإيجاد الأوّل وجود، وفيه صفات عارضة وأحوال متحوّلة.

602 نوح 13- 14

603 المؤمنون 12 . 17.

وهذا يدل على كمال الخلق والقدرة على الإيجاد وتوالي برّ الرّب بعباده في جميع أطوارهم فهو سبحانه وجلّت قدرته خلقهم من نطفة أمشاج وماء مهين، ثم طورها إلى علقة، ثم طور العلقة مضغّة، ثم خلق المضغّة عظاما، ثم كسا العظام لحما، ثم أنشأته نشأة أخرى فأقامه في الحياة بمظهر مختلف عن المظاهر السابقة، وهنا نلاحظ جمال اللفظ القرآني أطوارا أي في مراحل مختلفة وهنا يروق لنا أن نضيف المعنى الحديث الذي يتراءى في ذهن متلقف الكلمة فهي تأتي في سياق جديد وهو التطوير الذي بمعنى التحديث ولكن التطوير في المعنى القرآني بمعنى النقل من مظهر إلى مظهر فتتغير الوظيفة بتغير المظهر لأنّ صنعة الله كاملة لا تحتاج إلى تحديث بمعنى تطوير، فالتطوير بمعنى التحديث يليق في حقّ البشر والتطوير بمعنى النقل يليق في حقّ الله وشتان بين هذا وذاك، إنّها قدرة باهرة بديعة عظيمة وسلطة قاهرة دامغة لا نظير لها لله القائل: {نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الخَالِقُونَ} 604. ولأنّ الشيء الذي خلق الله منه البشر من برّ الرّب الخالق فهو يسأل في عجب هل هم الذين خلقوا الشيء الأوّل الذي منه الخلق، وهذا لشيء كما سبق أن ذكرنا جاء بعد مرحلة اللاشيء فيقول الله تعالى: {أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون} 605، وهذا متعلق ببرّ الرّب بخلقه في تطور أطوارهم وهذا منذ بدء الخلق والإيجاد وهو أقوى دليل على القدرة المطلقة، وبهذا المنطق يستطيع المحاور بالقرآن أن يرد على الذين يعتقدون في نظرية داروين وأمثالها كما في قوله تعالى: {قتل الإنسان ما أكفره من أيّ شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره} 606 فالبداية لا شيء لقوله تعالى: (من أي شيء خلقه) فلا شيء يعرفه الإنسان لأنّ الشيء لم يكن قد خلق بعد، فلا توجد إجابة، لأنّ الخلق من اللاشيء بقدرة الله

604 الواقعة 57 - 59

605 الطور 35

606 عبس، 17 - 19

الذي ببرّه أخرج الخلق من علمه إلى إيجاده، وهنا تُنَسَفُ كل النظريات الإلحادية التي تقول أن الخلق نشأ وتطور بنفسه وأنّ الإنسان أصله قرد، وهنا نتحدى هؤلاء ومن شاكلهم ونقول لهم خذوا قردا واعكفوا عليه أنتم ومن اعتقد في قولكم وحددوا المدة التي تكفيكم أنتم وأبنائكم وأحفادكم لتحولوا القرد إلى إنسان، ونخبّر أبنائنا بأن ينتظروا ليثبتوا أنّ الحقّ أحقّ أن يتبع، ذلك كله دليل على برّ الرّب بخلقه عباده وبرّه بهم في مراحلهم المختلفة، وعليه أتساءل:

. كيف يكون أصل الإنسان قردا والله تعالى يقول: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا} 607؟

. وكيف نصدق إن أصل الإنسان قردا والله تعالى يقول: {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ} 608؟

. وكيف نسلم بأن أصل الإنسان قردا والله تعالى يقول: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} 609؟

. وكيف نعقل كل ذلك والله تعالى يقول: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ} 610.

بناء على هذه الأسئلة التي تحمل إجاباتها فيها أتساءل:

607 الفرقان 54.

608 السجدة 7، 8.

609 التين 4.

610 آل عمران 59، 60.

. آلا يكون من غير اللائق بنا نحن بنو الإنسان أن نقبل بأن يكون أجدادنا الأبرار هم القردة ونحن نعتبر أصولنا منهم! وهل يحق لنا أن نفتخر إذا اقربنا ذلك ونحن المكرّمون في الأرض بالاستخلاف فيها؟

. آلا يكون من غير المقبول القبول بقول دارون (أصل الإنسان قرد) ونحن نعلم أن أبونا آدم الذي كلمه الله واصطفاه على ما خلق وميزه بالعلم حتى سجد الملائكة له مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ} 611.

. وكيف يكون ذلك بحق ومنا الأنبياء الكرام صلوات الله وسلامه عليهم جميعا؟

. وكيف يكون ذلك ونحن المؤمنون به واحدا أحدا نفكر ونتذكر ونستغفر ونتوب إليه؟

. وإذا كانت القردة قد تطورت وأصبحت نحن كما يدعي دارون في نظريته للنشوء والارتقاء، فلماذا لا زالت هناك قرود في الغابات وعلى خشب المسارح يلعبون بها (السيرك) الألعاب البهلوانية، فلو افترضنا القردة قد تطورت حتى أصبحت نحن فلما كان اليوم على سطح الأرض منها

شيئا، فالنوع عندما يتطور يحل محله بقانون التطور الذي انقلب حاله إليه،
ولذا لو تطورت القردة كما يدعون لما بقي منها بين أيدينا شيئا يذكر؟

. وإذا قبلنا بما ذكر من مثل هذه الادعاءات آلا نقبل بذلك التطور العام
الذي يغير حال الكائنات والمخلوقات الأخرى من حيوانات وطيور واسماك
وغيرها كثير أم أمّا هي الأخرى كانت غير التي نحن عنها نتحدث. أم أنها
قد تطورت ونحن لم نعلم بما كانت عليه. وإذا كانت الإجابة بنعم قد تطورت
ونحن الذين لا يعلمون بحالها السابق، أقول: ولماذا علمنا بحال تطورها كما
يدعون بالتطور القردي حتى أصبح من بني الإنسان؟

. وكذلك إذا سلمنا افتراضا بالتطور القردي الذي انتقل إلى المستوى
الإنساني، آلا نسلم بأن التطور لا يزال مستمرا ولا ندري بحالنا كيف نصبح
من جديد ليكون التطور متنقل بنا إلى شيء لا نعرفه.

وعليه لقد خلق الإنسان في أحسن تقويم ليكون الخليفة البرّ الوارث في
أرضه (البرّ الواسع) وفي جنته (البرّ الأوسع) ولهذا فالإنسان أصل في برّه
مصدقا لقوله تعالى: { وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِنَّمَا مَاتَ لَسَوْفَ أُحْرَجُ حَيًّا أَوْ لَا
يَذُكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَمَ يَكُ شَيْئًا } 612. نعم لقد خلق
الإنسان ولم يكن من قبل شيئا، وهذه رد مطلق الحجة على كل من يدعي
بأن الإنسان كان قردا تم تطور حتى أصبح إنسانا.

وأنقل من روايتنا (البستان الحلم) جزءا من حوار أبونا آدم مع زوجه أمنا
حواء وأحد أبنائهما الذي يقول فيه: "يا بني ألم تعلم أنني أعلم جميع الأسماء
وهذه أسرار لم يعلمها غيري. قلت نعم، فقال لعن الله دارون ومن أتبعه،
قلت في نفسي الحمد لله لم أكن منهم، واستمر أبونا في الحديث يقول: وهو
في حالة غضب، أنه من الغرابة أن يصف الإنسان أمّه وأباه وأجداده الأبرار

بالحيوان القردى، ويا بني اسأل أخوتك جميعهم لو كنت وأمك قردين كما يدعي البعض منهم فقلت حاشاكما، قال: استمع، لو كنا كذلك ألم تكن أنت وهم مثلنا. وقل لهم ليس لدى وقت أناقش فيه من هو أقل مني علما وحكمة ولا يعلم ما أعلم، ومع ذلك أوصيكم بقراءة كتاب الحكمة وقراءة علم الوراثة الذي ينص على حفظ الأنواع واستمرارها، وإذا أجزتم بأن أصلكم قردى، فأقول لكم إنكم لم تكونوا مني، وإذا أجزتم ذلك أيضا بأنكم قرده متطورة فأقول لكم إذن لماذا قرود اليوم التي تتبعونها في الأسواق وتشترونها وتلعبون بها في (السيرك) وتجرون عليها التجارب العلمية لماذا قرود اليوم باقية بما أن أصلها قد تغير وتطور إلى أن أصبح أنتم أيها السادة كما تدعون. وكيف تقبلون ذلك ومنكم الأنبياء والرسل. وإذا قبلتم بأن أصلكم قردى متطور فعليكم أن تقبلوا باستمرارية التطور إلى نوع آخر لا أدري ماذا سيكون.

اسألهم يا بني عن الأصول التي تطورت منها الأسماك والطيور والزهور والبغال العقيمة، وإذا قبلوا بأنها حافظت على نوعها فاسألهم أيضا عن الأسباب التي جعلتها تحافظ على نوعها ولم تجعل الإنسان يحافظ على نوعه كما يدعون. وقرأ عليهم قوله تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ} 613، وقوله: {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} 614، الذكر والأنثى من كل نوع، وبالتالي الذين يتساءلون منكم عن أيهما أسبق من الآخر البيضة أم الدجاجة. فإنه تساؤل غير صائب إذ لا يمكن أن تكون البيضة ما لم تكن الدجاجة، ولا يمكن أن تكون الدجاجة ما لم تكن البيضة، ولهذا خلق الله من كل شيء

613 ياسين 36.

614 الذاريات 49.

زوجين اثنين، فالبيضة إن وجدت بدون حيوان تكبير لا يمكن أن تنتج دجاجة أو تخرج فرخا.

وهنا لمحة لغوية نردّ بها على القارئ الذي سيسأل الآن لماذا يلح المتأمل في أسماء الله الحسنى وصلة الأسماء بالخليفة على الخلط والربط بين البرّ والرّب فنقول أيّها الحبيب ذو العقل والبصر والبصيرة انظر إلى مقلوب (برّ) فستجد (رّب) فالبرّ هو الرّب والرّب هو الله عزّ وجلّ وهو البرّ الرّحيم جلّ جلاله.

ومن هنا فأطوار خلق الإنسان على النحو المتقدم أقوى في انتزاع الاعتراف بقدرة الله من العبد الذي يفر من الله لا يفر إلى الله، فالله الذي يحيي الإنسان في كافة أطواره، لأنّه يحتاج إلى برّ الرّب الأعظم في كل مراحل حياته، وكل طور منها آية مستقلة ودليل دامغ على برّه بخلقه وقدرته المطلقة، وهذا التوجيه في الأطوار المختلفة موجود في الظواهر الكونية في كل ما يحيط بنا من سماء وأرض، فالسماء كانت دخانا وكانت رتقا ففتقهما الله بقدرته، والأرض كانت على غير ما هي عليه الآن، حتى أصبحت أرضا وفيها خليفة، ويبين الله بعضا من مظاهر برّه في قوله تعالى: {أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا وَأَعْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ} {615}، هناك تساؤل استغرابي في هذه الآية الكريمة بقوله: (أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها) أي هل خلقكم أقوى من خلق السماء التي رفعها بغير عمد ترونها.

ومن مظاهر برّه وعطفه على خلقه ولطفه بهم توجه إليهم بالنداء وهم في الأصلاب فقال الله تعالى في قصة بناء سيدنا إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام

للبيت الحرام وأمر الله له بالنداء له في الناس ليحجوا إليه، وكان هذا النداء لمن برزوا إلى الوجود الجسدي وإلى الذين كانوا في الجود الصلبي فقال الله تعالى: {وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ} 616 قوله عز وجل: (وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ) فمن برّ الله بإبراهيم أنه أرشده إلى مكان البيت ودله على موضع البيت، فبناه مع إسماعيل عليهما الصلاة والسلام ومن بنى البيت ببرّ من الله البرّ لا يشرك بالله فقال الله تعالى له: (لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا) وقال (وَطَهِّرْ بَيْتِي) أن طهر بيتي (الكعبة) من النجاسات ومن عبادة الأوثان (لِلطَّائِفِينَ) لأجل الطائفين بالبيت من غير أهل مكة (والقائمين) المقيمون في مكة (والركع السجود) لأجل الصلاة بالأوقات المحددة من فرض ونافلة للمسلمين من كل مكان الذين يوحدون الله عز وجل، ثم قال الله عز وجل: (وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ) بأن ينادي سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام في الناس، وذلك أنّ إبراهيم لما فرغ من بناء الكعبة، أمره الله تعالى أن ينادي فنأدى: يا أيها الناس، أجيئوا ربكم. إن الله تعالى قد بنى بيتا وأمركم بأن تحجوه؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لما فرغ إبراهيم عليه الصلاة والسلام من بناء البيت أمره الله عز وجل أن ينادي في الحج، فقام على المنار، فقال: يا أيها الناس، إن ربكم قد بنى لكم بيتا فحجوه، وأجيئوا الله عز وجل، قال: فأجابوه في أصلاب الرجال وأرحام النساء: أجبناك أجبناك، لبيك اللهم لبيك، قال: فكل من حج اليوم فهو ممن أجاب إبراهيم على قدر ما لبي" 617 فلما نادى يا أيها الناس، أجيئوا ربكم، فأجابوه من أصلاب الرجال: لبيك، فإنما يحج من أجاب سيدنا إبراهيم يومئذ.

616 الحج، 26-27.

617 أخبار مكة للفاكهي - ج 3، ص 30

فمن عمر، رضي الله عنه قال: كنت مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جالسا فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أتدرون أي أهل الإيمان أفضل إيمانا. قالوا يا رسول الله الملائكة. قال: هم كذلك ويحق ذلك لهم وما يمنعهم وقد أنزلهم الله المنزلة التي أنزلهم بها بل غيرهم. قالوا: يا رسول الله فالأنبياء الذين أكرمهم الله تعالى بالنبوة والرسالة. قال: هم كذلك ويحق لهم ذلك وما يمنعهم وقد أنزلهم الله المنزلة التي أنزلهم بها بل غيرهم قال: قلنا: فمن هم يا رسول الله. قال: أقوام يأتون من بعدي في أصلاب الرجال فيؤمنون بي ولم يروني ويجدون الورق المعلق فيعملون بما فيه فهؤلاء أفضل أهل الإيمان إيمانا" 618، وهذا من برّ البرّ بنا ونحن في الأصلاب ففضلنا الله وجعلنا من أفضل أهل الإيمان إيمانا وليس الأمر كذلك بل جعلنا حاملين للواء الخلافة الربانية على الأرض.

4- برّ عباده في أرحام الأمهات:

فالله سبحانه وتعالى أبرّ عباده وهم أجنة في بطون الأمهات بعد أن برّهم في عالم الذرّ في الأصلاب ونماهم وغذاهم من الأرض التي خلق منها أبيهم فقال تعالى: {هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى} 619 فعمله شامل ورحمته واسعة، والآية تأكيد لقوله: {هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ضَلَّ} 620 فمن يتخيل أو يتوهم بأنّ يعمل عملا في جوف الليل المظلم أو في أيّ مكان ما ولا يعلمه الله فهو واهم لأنّ الله يعلم أحوال الخلق وهم أجنة في بطون الأمهات، والله عالم بتلك الأحوال فإنّ الله عالم بأحوالهم وهم في بطون الأمهات، فكتب على البعض أنّه ضال، والبعض أنه مهتد، فقال تعالى: (هُوَ أَعْلَمُ

618 المستدرك على الصحيحين للحاكم - ج 16، ص 314

619 النجم 32

620 النجم 30

بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ) وهنا تأكيد على كمال العلم والقدرة، فإنّ بطن الأم في غاية الظلمة، ومن علم بحال الجنين فيها لا يخفى عليه ما ظهر من حال العباد خارجها، فمن برّه أن أخرج الخلق من الأضلاب إلى الأرحام ووفّر لهم سبل الحياة، ولا يقدر على ذلك إلى البرّ، فمن برّه وإحسانه خلق الرحم في جوف البطن بكيفية تلائم حياة الجنين وتحافظ على حياته إلا إذا أراد الله غير ذلك، ويقدرته سبب له من أسباب الحياة وهذا ما يعجز الخلق جميعا وإن اجتمعوا له فله الحمد والمنة.

5- برّ بعباده وهم أطفال لا يملكون أن يدفعوا ضرا أو يجلبوا نفعا.

فإنّ برّ محسن بعباده بعد إخراجهم من الأضلاب إلى الأرحام ومن الأرحام إلى دار الاختبار فأجرى الرّحمة في قلب الأم والحنان في قلب الأب وقد سخر الله الاثنين لتوفير سبل الراحة للطفل الضعيف، فجعل الله الأبوان وليين لطفل، والولاية هي التي يقوم فيها ولي الطفل برعاية شئونه منذ ولادته، ففي فترة الحضانة تحتضنه الأم وتسقيه من ثديها الغذاء ومن صدرها العطف والحنان حتى ترى فيه مظاهر القوّة، و من تمام البرّ بالطفل فقد حث الإسلام على استيفاء الرضاعة لعامين فقال الله تعالى: {وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ} 621 والولاية في هذه الفترة خاصة بالأم أو امرأة أخرى تقوم مقامها بالرعاية والرضاعة والحنان، فالطفل في هذه المدة يحتاج إلى أمومة مستمرة حتى يصبح غلاما يألف الناس ويألفونه، أمّا الوالد فإنه يشارك في هذه الفترة بالإنفاق على الأم حتى تقوم بواجبها، لذا كانت النفقة واجبة عليه فلو حدث أن أمّ الطفل لم تستطع إرضاعه لقلّة لبنها أو لمرضها وجب على الأب أن يدفع المال لامرأة أخرى تقوم بإرضاعه قال الله تعالى: {وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا

جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ {622} ثم إنّ الأب يشارك كذلك بالولاية على الطفل بالعناية والتهديب والإصلاح والحماية حتى إذا انقضت فترة الحضانة استقل الأب بالولاية على النفس فيكون هو الولي، وفي هذه المرحلة يكون الطفل في حال توكل على الأم لأنه في مرحلة ضعف، والأولى من القول أن نعيد الحقيقة إلى نصابها فنقول إن الطفل في حال توكل على برّ البرّ من خلال تسخير الأبوين لراحة الطفل، والطفل في مرحلة ضعفه لا يعرف غير أمه ولا يفرغ إلى سواها ولا يعتمد على غيرها، فإن رآها تعلق بها، وإن نابه أمرٌ في غيبتها كان بكأوه لفراقها، وأول خاطرٍ يخطر على قلبه أمه لوثوقه بكفالتها وكفايتها له وشفقتها عليه.

ومن نظر في ملكوت السماوات والأرض انكشف له تحقيقا أن الله تعالى دبّر الملك والملكوت تدييرا لا يجاوز العبد رزقه وإن ترك الاضطراب. فإنّ العاجز عن الاضطراب لم يجاوز رزقه، أما ترى الجنين في بطن أمه لما أن كان عاجزا عن الاضطراب كيف وصل سرته بالأم حتى ينتهي إليه غذاء الأم مهضوم بواسطة السرة، ولم يكن ذلك بحيلة الجنين أو بقدرة منه، ثم لما انفصل سلط الله ببرّه ورحمته الحب والشفقة على الأم لتتكفل به شاءت أم أبت اضطارا من الله تعالى إليه بما أشعل في قلبها من نار الحب، ثم لما لم يكن له سن يمضغ به الطعام جعل رزقه من اللبن الذي لا يحتاج إلى المضغ، ولأنّه لرخاوة مزاجه كان لا يحتمل الغذاء الكثيف فأدر له اللبن اللطيف في ثدي الأم عند انفصاله على حسب حاجته، أفكان هذا بحيلة الطفل أو بحيلة الأم! إذ صار بحيث يوافق الغذاء الكثيف أنبت له أسنانا قواطع وطواحين لأجلّ المضغ، فإذا كبرّ واستقل يسّر له أسباب التعلم وسلوك سبيل الآخرة، فجنبه بعد البلوغ جهل محض لأنه ما نقصت أسباب معيشتة ببلوغه بل زادت، فإنه لم يكن قادرا على الاكتساب، فالآن قد قدر فزادت

قدرته، نعم كان المشفق عليه شخصا واحدا وهي الأمّ أو الأب وكانت شفقتة مفرطة جدا فكان يطعمه ويسقيه في اليوم مرتين وكان إطعامه بإدخال الله تعالى الحب والشفقة على قلبه، فكذلك قد سلط الله الشفقة والمودة والرّحمة والرفقة على قلوب المسلمين بل أهل البلد كافة، حتى إنّ كل واحد منهم إذا أحس بمحتاج تألم قلبه ورق عليه وانبعثت له داعية إلى إزالة حاجته، فقد كان المشفق عليه واحدا والآن المشفق عليه ألف وزيادة، وقد كانوا لا يشفقون عليهم لأنهم رأوه في كفالة الأمّ والأب وهو مشفق خاص فما رأوه محتاجا، ولو رأوه يتيما لسلط الله داعية الرّحمة على واحد من المسلمين أو على جماعة حتى يأخذونه ويكفلونه، فما روى في سني الخصب يتيم قد مات جوعا مع أنّه عاجز وليس له كافل خاص، والله تعالى كافله بواسطة الشفقة التي خلقها في قلوب عباده فلماذا ينبغي أن يشتغل قلبه برزقه بعد البلوغ ولم يشتغل في الصبا وقد كان المشفق واحدا والمشفق الآن ألف، نعم كانت شفقة الأمّ أقوى وأحظى ولكنها واحدة، وشفقة آحاد الناس وإن ضعفت فيخرج من مجموعها ما يفيد الغرض، فكم من يتيم قد يسر الله تعالى له حالا هو أحسن من حال من له أب وأم! ولقد أحسن الشاعر حيث يقول:

جرى قلم القضاء بما يكون فسيان التحرك والسكون

جنون منك أن تسعى لرزقٍ ويرزق في غشاوته الجنين⁶²³

وهذه رعاية الوليد الضعيف أو اليتيم التي كان يدعو بها النبي صلّى الله عليه وسلّم وهي درجة من أعلى درجات التوكل على الله لأنّه سبحانه وتعالى الذي يتولى الوليد والضعيف واليتيم ببرّه ولا يكله إلا أحد طرفة عين أو أقل، كل ذلك بدفع خفي من البرّ الرّحيم فقال صلّى الله عليه وسلّم:

623 إحياء علوم الدين - ج 3، ص 369.

"اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ" 624.

6 . برّ بعباده وهم كبار لا يملكون رزقا بإنزال مطر أو تسيير رياح أو بسط أرض أو إنبات نبات، فمن برّه وإحسانه بالعباد ما ذكره في قوله تعالى: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُعْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} 625. فمن برّه سبحانه وتعالى إنه (هو الذي يرسل الرياح لواقع) لأنه ربنا البرّ بنا الله الذي خلق السموات والأرض وهو الذي يرسل الرياح للواقع هواء يحرك المياه الساكنة لتتبخر وتجري في الأنهار والأودية بعد سقوطها أمطار رحمة على العباد، ولولا ذلك لظلت راكدة وظل برّكودها ركود السفن وتعطلت سبل الحياة لا غنى لكثير من الخلق عنها، ولماتت حيوانات في البرّ والجو والبحر ولكن ببرّ البرّ ورحمته سخر الريح من الرحمة فقال: (بين يدي رحمته) والرحمة هنا المطر الذي هو من رحمته، وسماه رحمة لأنه المسبب في حياة الأرض الميتة، ولا نضيق الأمر في المطر ونطلق العنان في مجال الرحمة ولكن الحقيقة لا نستطيع عد وحساب ووزن مقدار رحمة الله البرّ لأنه القائل سبحانه وتعالى: {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ} 626 جاء الشيء مطلقا وهو كل شيء وأي شيء، والشيء المطلق هو مجال امتداد

624 سنن أبي داود - ج 13، ص 283

625 الأعراف 54-58.

626 الأعراف 156.

الرَّحْمَةِ، (حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا) حتى إذا حملت هذه الرياح سحباً ثقيلة بما فيه من مطر وغيره من رحمة الله فيسوقه الريح بقدره الله إلى البلد الذي يحتاج إليه فيبعث فيه الحياة، ولا يملك ذلك غير الله البرّ الرحيم.

7. برّ بعباده وهم عصاة لا يملكون سترًا لمعصيتهم فسترهم.

فإنَّ الله برّ بعباده يستترهم وقت الذنوب ويعفو عنهم إذا رجعوا، لذا فالمتخلق ببرّ البرّ يستتر ويعفو وذلك انطلاقاً من خير الهدي هدي النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي يحث على الستر ولا يقدر على الستر والعفو من البشر إلى الخليفة الذي تشرب بمعنى البرّ والرَّحْمَةِ واقتدى بالنبي في قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "من ستر على مسلم ستره الله تعالى في الدنيا والآخرة"، وقال: "لا يستتر عبد عبداً إلا ستره الله يوم القيامة" وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لا يرى المؤمن من أخيه عورة فيسترها عليه إلا دخل الجنة"، فإذن على المسلم أن يستتر عورة نفسه فحقّ إسلامه واجب عليه كحقّ إسلام غيره. قال أبو بكر رضي الله عنه: لو وجدت شارباً لأحببت أن يستتره الله، ولو وجدت سارقاً لأحببت أن يستتره الله 627.

وفي الحديث: "إنَّ الله ستر على عبد عورته في الدنيا فهو أكرم من أن يكشفها في الآخرة وإن كشفها في الدنيا فهو أكرم من أن يكشفها مرّة أخرى"، وعن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: خرجت مع عمر رضي الله عنه ليلة في المدينة فبينما نحن نمشي إذ ظهر لنا سراج فانطلقنا نؤمه فلما دنونا منه إذا باب مغلق على قوم لهم أصوات ولغط فأخذ عمر بيدي وقال: أتدري من هذا. قلت: لا، فقال: هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف وهم الآن شربوا فما ترى. قلت: أرى أنا قد أتينا ما نهانا الله عنه. قال الله تعالى: (ولا تجسسوا) فرجع عمر رضي الله عنه وتركهم، وهذا يدل

على وجوب الستر وترك التتبع، وقد قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمعاوية: "إنك إن تتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت تفسدهم"، وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان في قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من يتبع عورة أخيه المسلم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو كان في جوف بيته" 628.

وعن عمار بن ياسر: "أتى رجلاً مرت به امرأة فأحذق بصره إليها فمر بجدار فمرس وجهه فأتى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ووجهه يسيل دما فقال: يا رسول الله إني فعلت كذا وكذا فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إذا أراد الله بعبد خيرا عجل عقوبة ذنبه في الدنيا فإذا أراد به غير ذلك أمهل عليه بذنوبه حتى يوافي بها يوم القيامة كأنه غير". والستر الأكبر في الآخرة أمام الخلائق يوم القيامة اللهم اجعلنا من المستورين في الدنيا بالبعد عن الذنوب وفي الآخرة بالنجاة من النار، وستر الآخرة ستر عظيم لأنه يكون أمام الإنس والجن والملائكة وغير ذلك من خلق الله يعلمهم ولا يحصيهم غيره سبحانه عظيم الجود والإحسان، وعن ابن عباس قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "شكا نبي من الأنبياء إلى ربه فقال يا رب يكون العبد من عبيدك يؤمن بك ويعمل بطاعتك تزوي عنه الدنيا وتعرض له البلاء ويكون العبد من عبيدك يكفر بك ويعمل بمعاصيك فتزوي عنه البلاء وتعرض له الدنيا فأوحى الله إليه إن العباد والبلاء لي وإنه ليس من شيء إلا يسبحني ويهللني ويكبرني فأما عبدي المؤمن فله سيئات فأزوي عنه الدنيا وأعرض له البلاء حتى يأتيني فأجزيه بحسناته وأما عبدي الكافر فله حسنات فأزوي عنه البلاء وأعرض له الدنيا حتى يأتيني فأجزيه بسيئاته" 629.

628 إحياء علوم الدين - ج 2، ص 46

629- مجمع الزوائد وبع الفوائد - ج 4، ص 437

البرّ هو رحيم بعباده يداوي هفوات النفوس ويبرئ علات القلوب
ويصلح نزوات الأجساد ويسمو بالروح إلى نور الطاعة متعاليا بها عن ظلمة
المعصية، فبرّه يمهل العصي بامهاله ويستره بستره يعفو عنه برحمته، ومن لم
ينل العفو من البرّ فقد لقي الحزي الكبير لأنه عرض نفسه للتهلكة ولعذاب
الله وكفي بالمرء عذابا كشف ستر الله له.

قال الله تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ
لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ
وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ
فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ
أَنْصَارٍ رَبَّنَا إِنَّنا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ
لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ
رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ} 630 فمن برّه خلق
السموات والأرض وما فيهما من آيات باهرات ومعجزات كبريات وخيرات
حسان لا يمكن أن يعددها عاد ولا يحصيها حاص، وهذه الآيات لأولى
العقول السليمة الفطنة التي تفحص وتدقق وتصل إلى إن ذلك الجود والبرّ
من البرّ الأكرم الوهاب الأعظم وهؤلاء سماهم الله أولى الألباب أصحاب
العقول التي تصل إلى مراد الله في خلقه وتعمل على إصلاح الأرض وتحقيق
الخلافة التي أرادها الله عزّ وجلّ، والمنادي للإيمان سيدنا محمد صلّى الله عليه
وسلّم وسيلته في ندائه كتاب الله وسنته وهي التطبيق العملي لكتاب الله،
والخليفة الذي يأخذ كتاب الله وسنة النبي صلّى الله عليه وسلّم طريقا للنجاة
بإتباع طرق الهداية وتعمير الأرض والتفكر في سبل الإصلاح، والذين يتبعون
ذلك الهدي يقولون: {رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ
إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ

مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ
 وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ
 تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ لَا يُعْرَتُّكَ
 تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَاوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ لَكِنَّ
 الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ
 اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ {631}. دعاء الخليفة على ألسنة الرسل الكرام
 صلوات الله وسلامه عليهم الذين اصطفاهم الله ليخرجوا الناس من الظلمات
 على النور، أي من المعصية إلى الطاعة ومن الظلم على العدل ومن الضلال
 إلى الهداية، والخير الأكبر والبرّ الأعظم طلب الستر في الدنيا وفي الآخرة
 فيقول كل من أراد التزود من برّ البرّ بنعمة الستر الأكبر: {وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ
 الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ} لأننا أمانا برسولك وصدقنا بكلامك، ولذا
 فمن يفعل ذلك لا يخزيه الله ويستره، {يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا
 مَعَهُ} 632 فهذا وعده تعالى وهو سبحانه لا يخلف الميعاد.

فإن الله يستر الذنب ويرحم عباده بالمغفرة والهداية وهذا برّ وإحسان من الله
 الذي برّه دائم متصل حتى لا يفضح العبد يوم القيامة، ولكن هناك من
 يقابل البرّ والعفو والستر بغير ذلك فيفضح ستر الله ويتكلم بالمعصية قال
 رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كل أمي معافي إلا المجاهرون قالوا يا رسول
 الله ومن المجاهرون قال الذي يعمل العمل بالليل فيستره ربه عزّ وجلّ ثم
 يصبح فيقول يا فلان علمت البارحة كذا وكذا فيكشف سر الله عزّ وجلّ
 عنه" 633.

631 آل عمران 194 - 198.

632 التحريم . 8

633 إحياء علوم الدين ج 2، ص 46

قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "ما ستر الله على عبد ذنبا في الدنيا إلا ستر الله عليه في الآخرة" 634.

والخليفة في حقيقة الأمر متحقق بأسماء الله فيبرّ من حوله بأعمال الخير ومن أعمال الخير ستر الجماعة المحيطة به والعمل على ستر من يستطيع، والستر الذي هو من أعمال البرّ لا يكون بحجب الحقيقة بالستر، بل قبول الحقّ والعمل على إحقاقه كما فعل إسماعيل عليه الصلّاة والسّلام حلما وأدبا ومقدرة.

ومن هنا؛ فالفرق كبير بين الستر، والستر، والخليفة يستر ولا يتستر، يستر بالنصيحة والتوجيه وتقديم يد المساعدة ومن ذلك قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ إِنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ إِنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ قَالُوا لِمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ لِلَّهِ وَكِتَابِهِ وَرَسُولِهِ وَأَيُّهَا الْمُؤْمِنِينَ وَعَامَّتِهِمْ أَوْ أَيْمَةَ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ" 635 وقال الله تعالى: {لَيْسَ عَلَى الضُّعْفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ} 636 فالنصيحة ستر لمن تنصحه بشرط ألا تكون بين يدي الناس أو على مسمع منهم حتى لا يؤذى من تقدم له النصيحة، وهذا النصح من أعمال البرّ الذي يقوم به المتخلق بخلق البرّ، ولذا فالنصيحة تأتي من القوي الذي يملك التغيير بالمال والقوّة والسلطة، وتأتي من الضعيف الذي لا يملك من الأمر إلا الخيرة فلا يمنعه ضعفه وقلة حيلته من النصح لوجه الله ورسوله.

8- برّ بعباده وهم تائبون فقبلهم وغفر لهم:

634 السابق ص 48.

635 سنن أبي داود، ج 13، ص 107

636 التوبة 91.

لأنه يحب التوابين المتطهرين من الذنوب والمعاصي بالطاعة والإجابة إلى الله البرّ الرحيم. قال الله تعالى: {أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} {637}. فالاستفهام للتقرير والتأكيد ومفاده أن الله هو وحده ليس غيره يقبل التوبة عن عباده وفي هذا إطلاق البرّ بعباده لأنه يقبلها عنهم وليس منهم وهذا أقوى وأشمل في قبول التوبة، وكيف لا وهو الذي ستر وقبل التوبة ووعد بالمغفرة فقال: {أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ} {638}.

الله سبحانه وتعالى يوضح في الآيات كمال رحمته وفضله وإحسانه في حقّ العباد وقد احتج البعض بهذه الآية على أنه تعالى يعفو عن الكبائر لأنّ خصص اسم العباد للمؤمنين فقال تعالى: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْسُحُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا} {639} وقال: {عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ} {640} ولفظ العباد في مجال التوقير لذلك فهو يخصّ المؤمنين بالله ولأنّ المؤمنين هم الذين يعترفون بكونهم عباد الله، أما المشركون فإنهم لا يسمون أنفسهم بذلك، وعليه فقوله: (يا عبادي) لا يليق إلا بالمؤمنين، إذا ثبت هذا فنقول إنه تعالى قال: (الذين أسرفوا على أنفسهم) وهذا في حقّ جميع المسرفين، ثم قال تعالى: (إنّ الله يغفر الذنوب جميعاً) وهذا يقتضي كونه غافراً لجميع الذنوب الصادرة عن المؤمنين، لا عن غيرهم لأنهم لا يرجعون إليه بالتوبة ولذلك قال

637 التوبة، 104

638 الزمر 51-55

639 الفرقان . 63

640 الإنسان . 6

الله تعالى بعد هذه الآية: (وَأَنبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ) ولو كان المراد من أول الآية أنه تعالى غفر جميع الذنوب لجميع العبيد لما أمر بعده بالتوبة والإنابة إليه، ولما خوفهم بنزول العذاب عليهم من حيث لا يشعرون، وقوله تعالى: (أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ) ولو كانت الذنوب كلها مغفورة، فأبي حاجة به إلى أن يقول: (يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله)، وليس ذلك إغراء بالمعاصي وإطلاق في الإقدام عليها، لأنه لا يليق بحكمة الله، وإذا ثبت هذا وجب أن يحمل على أن يقال المراد منه التنبيه على أنه لا يجوز أن يظن العاصي أنه لا خلاص له من العذاب نهائياً، فإن من اعتقد ذلك فهو قانط من رحمة الله، إذ لا أحد من العصاة المذنبين إلا ومتى تاب زال عقابه وصار من أهل المغفرة والرحمة، فمعنى قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا)، بالتوبة والإنابة، فعليه كل الذنوب مغفورة قطعاً بإذن الله للتائب النائب، وذلك لأن صيغة يغفر صيغة المضارع، وهي للاستقبال والاستمرار وهذا من مطلق الرحمة والبر.

ومن أرد الخلافة فهو يجد وكد في دعوة الناس للعودة إلى الله والإيمان به حتى يتوب الله عليه، وتلك دعوة عامة للقاصي وللداني ولسان حال العاملين على بر من لهم التمثل بقوله تعالى: {يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} 641 فمن الرحمة في الدعوة إلى البر اللين في الدعوة لأن اللين مظهر من مظاهر الرحمة، والاستجابة لله بالعودة إليه والإيمان به وجزاء ذلك المغفرة والرحمة والنجاة من عذاب أليم أعده الله لمن يصر ويتجبر ويتكبر ولا يعود

إلى ربّه البرّ به، فمن لا يستجيب لهذه العودة لن يجد إلا العذاب ولا ينقذه منه أهل الأرض والسماء، وهو بهذا لا محالة في ضلال مبین.

ويقول الله تعالى: { وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ } 642.

{ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ } والتوبة هي الرجوع عن المعاصي بالندم عليها والعزم على أن لا يعاودها تكرارا. وروى جابر رضي الله عنه أن أعرابيا دخلَ مسجدَ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك وكبر فلما فرغ من صلاته قال له علي رضي الله عنه يا هذا إن سرعة اللسان بالاستغفار توبة الكذابين وتوثك هذه تحتاج إلى التوبة فقال يا أمير المؤمنين، وما التوبة قال اسم يقع على ستة معان: على الماضي من الذنوب الندامة، ولتضييع الفرائض الإعادة ورد المظالم وإذابة النفس في الطاعة كما ربيتها في المعصية وإذاقها مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية والبكاء بدل كل ضحك ضحكته. (ويَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ) صغيرها وكبيرها دون أن يشرك به لمن يشاء (وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ) كائنا ما كان من خيرٍ وشرٍ فيجازي ويتجاوز حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكيم والمصالح. وقرئ ما تفعلون بالناء. (وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) أي يستجيب الله لهم فحذف اللام كما في قوله تعالى: (وَإِذَا كَانُوا مِنْكَ يَمِينًا وَكُنَّا بِأَعْيُنِنَا قَدْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُبِينًا) أي كانوا منكم يميناً ونحن بأعيننا قد كانوا في شكٍّ مبيناً كدعاءٍ وطلبٍ لما يترتب عليها، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: "أفضل الدعاء الحمد لله". أو يستجيبون بالطاعة إذا دعاهم إليها. وعن إبراهيم بن أدهم أنه قيل له ما بالنا ندعو فلا نجاب قال لأنه دعائكم ولم تجيبوه ثم قرأ: (والله يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ) وقوله: (وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ) على ما سألو

واستحقّوا بموجب الوعد. وقال تعالى: (والكافرون هُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ). بدلَ
مَا لِلْمُؤْمِنِينَ مِنَ الثَّوَابِ وَالْفَضْلِ الْمَزِيدِ 643.

والتوبة من شروطها أن تكون بنية صافية ورغبة في إصلاح النفس وعدم
العودة إلى المعصية فهي ليست متاحة أو مباحة لكافر يصر على كفره ولا
لمصر على الكبيرة يفعلها دون رادع قال الله تعالى: {وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ
يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا
الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} 644.

ولأنّ الله برّ حلیم رحيم، إذن يجب على الخليفة اللين؛ أي يجب التخلّق
بالحلم والبرّ كما كان إسماعيل عليه الصلّاة والسّلام وفي المقابل يجب ترك
الفظاظة والغلظة في الوصول إلى قلوب النّاس وليس أدل على ذلك من برّ
النبي صلّى الله عليه وسلّم بعد أن فتح الله عليه مكة، ولما نزل رسول الله
صلّى الله عليه وسلّم مكة واطمأن النّاس خرج حتى جاء البيت فطاف به
سبعاً على راحلته فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح
الكعبة ففتحت له فدخلها فوجد بها حمامة من عيدان فكسرهما بيده ثم
طرحها ثم وقف على باب الكعبة فقال: "لا إله إلا الله وحده لا شريك له
صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده" وقال: "يا معشر قريش إنّ
الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء النّاس من آدم وآدم من
تراب ثم تلا هذه الآية {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ
شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} 645
ثم قال "يا معشر قريش ما ترون أنّي فاعل فيكم قالوا خيراً أخ كريم وابن أخ
كريم ثم قال اذهبوا فأنتم الطلقاء ثم جلس في المسجد فقام إليه على ومفتاح

643 تفسير أبي السعود - ج 6، ص 82

644 النساء 18

645 الحجرات 13.

الكعبة في يده فقال يا رسول الله اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أين عثمان بن طلحة فدعي له فقال هاك مفتاحك يا عثمان اليوم يوم برّ ووفاء646.

والشاهد إنّ النبي صلى الله عليه وسلم رفض أن يقسو على من آذوه وبرّهم وأعطاهم ما كان لهم من فضل في الجاهلية ولم يؤثر أحدا على أحد وبرّ بهم وعفا عنهم.

ومن مواقف البرّ والرحمة ما حدث بعد أحد بعد انكسار المسلمين بسبب تخليهم عن طاعة أمر النبي صلى الله عليه وسلم طمعا في غنيمة المعركة، فلم يعنفهم صلى الله عليه وسلم بل واساهم وطمأنهم وبرّ بهم ويوضح الله ذلك في كتابه فقال: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ وَلَئِن مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ فِيمَا رَحْمَةٌ مِنَ اللَّهِ لَئِن تَهُمَّ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}647.

646 عيون الأثر - ج 2، ص 199

647 آل عمران 155-160.

قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم والله يحيي ويميت والله بما تعملون بصير) أي لا تكونوا كالمنافقين الذين يnehون إخوانهم عن الجهاد في سبيل الله والضرب في الأرض في طاعة الله عز وجل وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم ويقولون إذا ماتوا أو قتلوا: لو أطاعونا ما ماتوا وما قتلوا (ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم) لقلّة اليقين برّبهم (والله يحيي ويميت) أي يعجل ما يشاء ويؤخر ما يشاء من ذلك من أجابهم بقدرته. قال تعالى: (ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون) أي إنّ الموت لكائن لا بدّ منه فموت في سبيل الله أو قتل خير لو علموا وأيقنوا مما يجمعون من الدنيا التي لها يتأخرون عن الجهاد تخوف الموت والقتل لما جمعوا من زهرة الدنيا زهدا في الآخرة (ولئن متم أو قتلتم) أي ذلك كان (لإلى الله تحشرون) أي إن إلى الله المرجع فلا تغرّتكم الدنيا، ولا تغتروا بها، وليكن الجهاد وما رغبتكم الله فيه من ثوابه أثر عندكم منها، والجهاد حقّ لإحقاق الحقّ، من أجلّ إصلاح الأرض وأعمارها، وهذه من صفات وأعمال المستخلفين فيها.

قال وتعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ إِنَّ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} {648، فقله: (لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ) أي لتروك (فاعف عنهم) تسامح معهم وتجاوز عما يفعلون (واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزم فتوكل على الله إنّ الله يحب المتوكلين) فذكر لنبيه صلى الله عليه وسلم لينه لهم وصبره عليهم لضعفهم وقلة صبرهم على الغلظة لو كانت منه

عليهم في كل ما خالفوا عنه مما افترض عليهم من طاعة نبيهم صلى الله عليه وسلم. ثم قال تبارك وتعالى: (فاعف عنهم) أي تجاوز عنهم (واستغفر لهم) ذنوبهم (وشاورهم في الأمر) أي لترتيبهم أنك تسمع منهم وتستعين بهم وإن كنت غنيا عنهم تألفا لهم بذلك على دينهم (فإذا عزمتم) أي على أمر جاءك مني وأمر من دينك في جهاد عدوك لا يصلحك ولا يصلحهم إلا ذلك فامض على ما أمرت به على خلاف من خالفك، وموافقة من وأفقك، (فتوكل على الله) 649.

ولهذا فالبرّ إحسان واسع به يتم التمكن من المشاركة الواسعة واستيعاب الآخرين الذين يتعلق المر بهم، قال تعالى: (وشاورهم في الأمر) هكذا بدأ تأسيس الشورى في الإسلام لأجل ممارسة الحقوق وأداء الواجبات وحمل المسؤوليات، والشورى تعني فيما تعني: أخذ الرأي بعد تبيان الأمر واستيضاحه مصداقا لقوله تعالى: {وشاورهم في الأمر} 650. ويقول ابن منظور: "شاورهم تعني استخراج آراءهم" 651 أما الشيخ الشعراوي فيقول: "المشورة هي تلقيح الرأي بآراء متعددة" 652. وهذا يدل على أن الشورى في الفكر الإسلامي ممارستها حقًا للجميع الذكور والإناث، ولذلك يستوجب ممارسة الشورى في الأمر.

والأمر هو، كل ما يتعلق بالإنسان من حقوق وواجبات ومسؤوليات، سواء كان هذا الأمر سياسة داخلية أم خارجية، أو كان هذا الأمر في حالة السلم أو في حالة الحرب، وسواء كان اقتصادا أو علاقات اجتماعية، ولذلك في الآية السابقة يخاطب الله عزّ وجلّ رسوله الكريم ويلزمه بالمشاورة

649 الروض الأنف، ج 3، ص 304

650 آل عمران، 159.

651 تفسير الجلالين. بيروت، دار الفكر، ص 94.

652 محمد متولي شعراوي، تفسير الشعراوي. القاهرة. أخبار اليوم، المجلد الثالث، ص

1840.

في الأمر، أي وكأنه يقول، في وجودك يا رسول الله لا ينبغي أن تقرر أي شيء يتعلق بالناس نيابة عنهم، بل ما يتعلق بهم من أمرٍ يجب أن تكون فيه في حالة شورى معهم، ولذلك كانت الآية (وشاورهم في الأمر) موجهة إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لتبين له أهمية المشاورة في الأمر مع الذين يتعلق الأمر بهم. ثم قال له: (وإذا عزمتم فتوكل) أي إذا وصلت معهم إلى قرار فاعتمدهم للتنفيذ حتى تكون لهم المشاركة في كل ما يتعلق بهم من أمر، وحينها يتحملوا معك الأعباء التي قد تترتب على ما اتخذوه من قرارات.

وفي حالة ما لم يكن الرسول عليه الصلاة والسلام معهم يصبح الأمر بينهم شورى مصداقا لقوله تعالى: {وَأْمُرْهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ} 653. إذن بكل وضوح إنَّ الأمر الذي يتعلق بالناس في فترة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان في حالة شورى بين الرسول والآخرين الذين يتعلق الأمر بهم. أما من بعده فترك الأمر بين الذين يتعلق بهم شورى يقررون ما يشاءون فيه، وينفذونه كما يشاءون وفقا لإمكاناتهم المتاحة والمتوفرة، ولهذا لا ينبغي أن يتقدم أحد لينوب عن الناس فيما يتعلق بهم من أمر. وكلمة أمرهم، تتكون من جزأين هما: (أمر)، و(هم)، فالأمر هو ما سبق تبيانه، أمّا (هم) فجاءت مطلقة أي كل من هم على علاقة ارتباط مع الأمر، وهذا يعني لا وجود في الممارسة الديمقراطية بالمفهوم الفكري الإسلامي لأقلية وأغلبية، بل الوجود فقط لكل دون استثناء، وكلمة بينهم الظرفية تعني، أن تقتصر الشورى في الأمر على الذين يعينهم الأمر فقط، ولا مكان لغير ذلك في المشاركة الديمقراطية، ولتأكيد هذا الاقتصار قال عز وجلّ بينهم، ولم يقل بين الحاكم والمحكومين، أو بين السادة والعبيد، أو بين المسؤول وغير المسؤول. وقد يتساءل البعض: إذا كان الأمر هكذا حاله، فإن الديمقراطية إذن مطبقة

في المجتمعات الإسلامية، أليس كذلك. وللأسف الإجابة بأجلّ، وذلك لأنّ الفكر الإسلامي في الشرق والتطبيق الإسلامي في الغرب (أعني وللأسف في اتجاهين متباعدين) نأمل أن يسود العدل والبرّ بين النّاس رحمة ومغفرة وتوبة وإصلاح في الأرض.

ولأنّ الله برّ رحيم لم يترك عبده المؤمن دون عناية ورعاية فأرسل الرّسول الخاتم صلّى الله عليه وسلّم ليعلم الكافة الدين الحقّ، الذي يجعلهم على الحقّ عدلا وإحسانا، ويجعلهم أمرين بالمعروف وناهين عن المنكر، ليكونوا أعضاء كرام يوحدون الله ولا يشركون به شيئا.

ومن برّه يثبت المؤمن الذي آمن به ربّا برّا رحيمًا وبالني صلّى الله عليه وسلّم نبيا رسولا من ربّ العالمين وهذا الثبات بقولة الحقّ الذي كان متمسكا بها في الدنيا وثبت عليها ودافع عنه ليثبتهم على القول الثابت حتى تطمئن قلوبهم على الحقّ وبه، قال تعالى: {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ} 654.

(يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ) هي كلمة التوحيد، وكلام الله الذي لا يتبدل ولا يتغير وإن تغير الزمن وذلك لصلاحية القرآن الكريم لكل زمان. (في الحياة الدنيا وفي الآخرة) وقال: {وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ} الذين ظلموا أنفسهم بجهالتهم وكفرهم وشركهم، وبظلم النّاس الذين لهم علاقة بهم، من أبنائهم وأزواجهم الذين جعلوهم يشبوا على الكفر والشرك وهذه مظالم جارنا الله منها.

عَنْ ابْنِ عُمَرَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى
يَقْبَلُ تَوْبَةَ عَبْدِهِ مَا لَمْ يُغْرِغْ" 655.

وقال الشاعر:

يا فرقة الأحباب لا بد لي منك ... ويا دار دنيا إنني راحل عنك
ويا قصر الأيام مالي وللمنى ... ويا سكرات الموت مالي وللضحك
فما لي لا أبكي لنفسي بعبرة ... إذا كنت لا أبكي لنفسي فمن يبكي
ألا أي حي ليس بالموت موقنا.. وأي يقين أشبه اليوم بالشك 656

ولأنه البرّ الرحيم يلتجئ الخليفة إليه تعبد ودعاء كل حين ويظهر ذلك
في دعائه في كل صلاة وهو يحمده على رحمته وبرّه له في الأرض ويوم
يبعثون، مصداقا لقوله تعالى: {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ اهْدِنَا
الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا
الضَّالِّينَ} 657، والبرّ من الله على الصراط بنور منه يعطيه للمؤمن ليمر
على الصراط دون خوف أو وجلّ قال الله تعالى: {يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ
وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ
وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ
فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ
العَذَابُ يُنَادُوهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ
وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ فاليوم لا يُؤخَذُ

655 مسند أحمد ط الرسالة، 10، ص 461.

656 فيض القدير، عبد الرؤوف المناوي، ج 4، ص 500.

657 الفاتحة 1-7

مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ
الْمَصِيرُ {658}.

قال عزّ وجلّ: (يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ) "في يوم القيامة على الصّراط، والنّور في حقيقته استبشار وطمأننة نفس ورضاء بالمكارم التي وهبها لهم البرّ الرّحيم جلّ جلاله، (يسعى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ) بتصديقهم في الدنيا، أي بما قدمت أيديهم من عمل صالح في الحياة الدنيا وبما سلكوا وفعلوا فيها من خيرات حسان نالت الجزاء الأوفى من البرّ الرّحيم، فلم تكن وجوههم مسودة كما هو حال المعذبين بما جنت أيديهم في الدار الدنيا من مظالم ومفاسد وسفك دماء بغير حقّ، فهؤلاء لهم الظلمة، وللوارثين المستخلفين النور الذي به اهتمدوا إلى الصراط المستقيم ففازوا في الدارين، فيكون النور بين أيديهم، وأيمانهم الذي كان سببا في جلبّ النور إليهم. وتقول لهم الملائكة: (بُشِّرَاكُمُ الْيَوْمَ) أبشروا هذا اليوم بكرم الله تعالى وبرّه لكم. (جَنَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا) الجنات متعددة ومتنوعة وغير مختلفة، فهي كلها خيرات حسان، ولكل حسب ما قدمت يداه من حسنات في الدار الدنيا، أي ولكل درجات في الجنات المتنوعة والمتعددة، وهذه الجنات هي ديار البقاء الدائم "659 (ذلك هو الفوز العظيم)، الفوز الذي لا يناظره فوز من حيث العظمة وهي الدرجة الرفيعة العالية المملوءة بالخيرات الحسان، (يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظرونا نَقْتَسِمِ مِنْ نُورِكُمْ) نُصِبَ مِنْ نُورِكُمْ، فنضيء معكم، والاعتباس أخذ من أصل ثابت، دون أن يؤثر ذلك على المأخوذ منه، والمنافقون هم الذي لم يدخل الإيمان قلوبهم في الحياة الدنيا، فكذبوا ولم يكونوا من الصادقين فيما قالوا وعاهدوا. وروي أنه صلّى الله عليه وسلّم قال: «بينما العباد يوم القيامة

عند الصراط، إذ غشيتهم ظلمة. ثم يقسم الله تعالى النور بين عباده، فيعطي الله المؤمن نورا، ويبقى الكافر والمنافق لا يعطيان نورا، فكما لا يستضيء الأعمى بنور البصر، كذلك لا يستضيء الكافر والمنافق بنور الإيمان، فيقولان: أنظرونا نقتبس من نوركم، فيقال لهم: (قِيلَ ارْجِعُوا) حيث قسم النور فيرجعون، فلا يجدون شيئا، فيرجعون دون مكاسب، وقد ضرب بينهم بسور. وعن الحسن البصري قال: إن المنافقين يخادعون الله، وهو خادعهم، لأنه يعطي المؤمن والمنافق نورا، فإذا بلغوا الصراط، أطفئ نور المنافق، فيقول: المنافقون (أَنْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ) أنظرونا: أمهلونا إلى حين. فقال لهم المؤمنون: ارجعوا (وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا) ارجعوا إلى ما فاتكم، وهم يعلمون أنهم لن يرجعوا ولكن ذلك يدل على الاستحالة، التي من بعدها لا ينفع الندم. والتماس النور لا يتم إلا من البرّ الرحيم، ولهذا فهم الذين لم يستجيبوا له حتى يكون لهم منه نورا. (فَضْرَبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ) فصل بينهم فأصحاب النوار هم في جنات النعيم، وأصحاب النفاق والضالين عن الهداية هم في نار جهنم والحمد لله رب العالمين. والسور الذي ضرب بينهم (لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ) باب السور داخله فيه الرحمة، والرحمة جنة واسعة، فلا يدخلها إلا الخلفاء والوارثين في الدارين. (وظاهره من قبلة العذاب) والظاهر هو المشاهد للعيان بالنسبة للكفرة والمشركين، فهم بطبيعة الحال لا يرون إلا النار، وذلك لأنهم لم يدخلوا مع الباب الذي باطنه الرحمة (الجنة)، أي لم ولن يتمكنوا من بلوغ باب الجنة ليروها أو ليدخلوا منه فهذا الأمر فيه حكم مطلق بعدم دخوله إلا لمن كان خليفة في الأرض فأصلح ولم يفسد فيها ولم يسفك الدماء بغير حق. والنار باب فيجاوز فيه المؤمنون، ويبقى المنافقون على الصراط في الظلمة (ينادونهم) من وراء السور (أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ) يعني: ألم نكن معكم في الدنيا، فيجيبهم المؤمنون أي دنية!. الدنيا دار فانية، لم يبق منها إلا العمل الصالح وأنتم لم تفعلوه ولهذا كانت الإجابة بقولهم: (قَالُوا بلى)

يعني: قد كنتم معنا في الدنيا، أو في الظاهر. (ولكنكم فتنتم أنفسكم) قد أصبتم أنفسكم حيث كفرتم في السر 660.

ولما كان الله هو البرّ فقد أفاض بالبرّ على الخلق والبرّ (بكسر الباء) من الخلق تجاه الله البرّ يعني الصّدق والطاعة وفي التنزيل: {لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} 661 ولكنّ البرّ برّ مَنْ آمَنَ بالله، فليس البرّ حركات دون نية ولكن أعمال بإقرار ويقين وإيمان بالله بأنه صاحب النعمة مصداقا لقوله تعالى: {وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ} 662 فمن نعمة الله عزّ وجلّ علينا الهداية إلى الإيمان به، والتوفيق للتصديق بنبيه، والإقرار بصحة نبوته، الاعتراف بصدقه وأمانته، والإذعان لإتباعه والجد في طاعته وعصمنا من الضلالة التي هلك فيها عصاة عباده، وعتاة خلقه، فالحمد لله على نعمته علينا في ديننا ودنيانا، وله الشكر على إحسانه إلينا في جميع شئوننا، ونظره لنا فيما يصلحنا، ويعود علينا بالفوز في معادنا، والنجاة يوم حشرنا.

وللبرّ طريق لمن أراد أن يسلك إلى البرّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى

660 المصدر السابق، ج 4، ص 254.

661 البقرة 177.

662 النحل 53

النَّارِ وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا"663. ما أجمل الصدق وأعظمه وهو يقود إلى البرّ، وما أجمل البرّ وأعظمه وهو يقود إلى الجنّة، وعليه فمن أراد الجنّة عليه بالبرّ والإحسان والمعروف في طاعة الرحمن الرحيم.

ولأنّ الصدق هو إتباع للحقّ قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ }664، تقوى الله مخافته والخوف منه، فالفرق كبير بين المخافة التي هي التقوى بذاتها، وبين الخوف الذي هو في بعض الأحيان لا يعبر عن إرادة. فنحن المستخلفون فيها نعلم أنّ الله لم يكن مخيفاً، فالمخيف هو لا حسن فيه، والله جميل وصفاته حسان، ولكن الخوف من الأعمال المنقوصة التي تؤدّي بأصحابها إلى حيث لا يرغبون، ولأنّ الكمال لله تعالى فإنّ المؤمنين يخافون من التقصير إن حدث منهم، ومع أنّهم يعلمون أنّ الله غفور رحيم إلا أنّهم ولحرصهم هم يحسبون الحسابات التي تجعلهم في حالة خوف ممّا عملوا قبل أن يصبحوا من المؤمنين حقاً، وحتى بعد الإيمان الحقّ فهم يخشون الله ويتقوه ويتضرعون إليه وهم طائعون. قال تعالى: { قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ }665، الخوف هنا ممّا يعمل قومهم، والرجلان يخشيان الله ممّا يعمل قومهم من منكرات ومفاسد، ولهذا هما يتقيان الله فلا يعملان وهما اللذان انعم الله عليهما بدخول الإسلام، وهكذا يكون التوكل على الله بتقواه لا بالخوف منه، أي بمخافته في كل ما أمر به ونهى عنه، ولهذا المخافة تقوى وهداية للحقّ بالحقّ.

663 صحيح مسلم - ج 13، ص 16

664 التوبة 119

665 المائدة 23.

قال تعالى: {وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَايٌ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} 666، الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم، هم الذين ليس لهم شفعاء يشفعون لهم، وذلك لعدم مخالفتهم الله في الحياة الدنيا، فهم عملوا ما عملوا من مفساد وشرك وضلال، فلم يؤمنوا بالمسلمين، ولهذا ليس لهم شفيع ليتم التكفير عن سيئاتهم.

وقال تعالى: {يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} 667 من الذين يخافون ربهم. بطبيعة الحال الملائكة، والصالحون والمؤمنون الذين يتوبون إلى الله متابا، ولكن في هذه الآية المعنى يعود على الملائكة الكرام الذين هم يفعلون ما يؤمرون، والمخافة هنا اتقاء الله وطاعته بالمطلق فيما يأمر به سبحانه جلّ جلاله. ولهذا لا خوف من الله بل الخوف من العباد الظالمين، فالله لا يظلم أحدا، ولكن العباد منهم الظالمين ومنهم الكفرة والمشركين والضالين، وهؤلاء جميعهم يخافون، إما الله العادل الودود الرحيم، يدخل الطمأنينة في النفس فلا يخيف. قال تعالى: {وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} 668 خوفا وطمعا: خوفاً من عقابه، وطمعاً في ثوابه. أي لم يكن الخوف منه في ذاته، بل الخوف بأسباب تعود للفعل البشري المنقوص، ولهذا فالعودة إلى الله تحقق الطمأنينة والابتعاد عنه إتباع عما أمر به ونهى عنه، هو الذي فيه المخاوف ومنه الخوف، فمن يتقى الله يأمن ومن لم يتقيه يضل، ومن يضل يعاقب بالشدة.

وكيف يكون الله هو البرّ الرحيم ويخيف.

666 الأنعام 51.

667 النحل 50.

668 الأعراف 56.

البرّ الرّحيم لا يخيف في ذاته أبداً، بل المخيف هو ارتكاب الأعمال
المضلة، وعليه الخوف دائماً يكون ممن يظلم، والله عادل لا يظلم أحداً، قال
تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ
لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا} 669، وقال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ
النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ وَيَوْمَ يُخْشِرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ
يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ وَإِنَّمَا
نُؤْتِيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّيْتِكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا
يَفْعَلُونَ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا
يُظْلَمُونَ} 670.

والصدق: عماد الأمر، وبه تمامه، وفيه نظامه، وهو تالي درجة النبوة،
قال الله تعالى: {فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ
وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ
عَلِيمًا} 671، والصادق الاسم اللازم من الصدق، والصديق المبالغة منه:
وهو الكثير الصدق، الذي الصدق غالبه، والصادق: من صدق في أقواله
وأفعاله. ومن أراد أن يكون الله تعالى معه فليلزم الصدق؛ فإن الله تعالى قال:
(إن الله مع الصادقين) ولهذا فالبرّ صدق، والصدق: الوفاء لله سبحانه
بالعمل.

والبرّ الصلاح وهو بذلك أساس ما يقوم به الخليفة لأنه المأمور بإصلاح
الأرض وإصلاح حال العباد وكأن برّ الخليفة بالأرض التي يحيا عليها
وإصلاح شأن الخلق القائمين عليها هو من طاعة الله البرّ ببرّ الأرض ومن
عليها والإصلاح من هذا المنطلق كان هدف ورسالة الأنبياء الذين هم قدوة

669 النساء 40.

670 يونس 44 - 47.

671 النساء 69 - 70.

الخلفاء والصالحين قال الله تعالى: {إِنْ أُريدُ إِلَّا الإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} 672 فالمصلح هو الذي يحقق الخلافة على الأرض بقدر طاقته معتمدا على توفيق الله من خلال الرجوع إليه والاسترشاد بهديه، وهذا ما فعله إسماعيل برّ بوالده إبراهيم عليهما الصلّاة والسّلام، ومن يفعل ذلك يكن من خلفائه الذين يتمسّكون بالمنهج الصّحيح الذي لا عوج فيه، وهؤلاء المصلحون الذين لا يضيع أجرهم في الدنيا بالخلافة ولا في الآخرة بالفوز بالجنّة. وهم الذين قال الله فيهم: {وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ} 673. أجر الله ثابت بالنية الصادقة، والفعل المنفذ لها، وبالتالي لا يمكن أن يؤجّل أجره، وبهذا يجد الخليفة أجرة في انتظاره يوم القيامة الجنّة، إنّه الفوز الكبير.

وبهذا فالبرّ الخير، والخير يشمل كل وجوه الأعمال الصالحة، لذا فقد وعد الله فاعلي الخير برّده إليهم {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ نَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} 674.

والمراد بالخير كل ما هو مطلق بالحسنات، والخير في الآخرة سيكون موجودا أكثر ممّا قدمت أيدي المستخلفين فيها من حسنات. (إنّ الله بما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) لا تخفى عنه خافية في الأرض ولا في السماء، فإنه لا يخفى عليه القليل ولا الكثير من الأعمال وهو ترغيب في الخير لأنه سبحانه تعالى يجازي على القليل بالكثير ويجازي على الكثير بالأكثر منه، ومن هنا فالخير كل ما هو نافع حسن وكل ما يؤدّي إليه من قول وفعل، والخير فيه الفلاح

672 هود 88

673 الأعراف - 170

674 البقرة-110

الذي هو مطمح الجميع فلاح الدنيا وفلاح الآخرة، قال تعالى: ﴿وافعلوا الخير لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾{675.

ومن البرّ الإنفاق في سبيل الله مصداقا لقوله عزّ وجلّ: ﴿لَنْ تَنَالُوا البرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾{676 كلُّ ما تقربّ به إلى الله عزّ وجلّ من عمل خير فهو إنفاق والإنفاق لا ينفع الكافر نهائيا لذا فالله علم المؤمنين كيفية الإنفاق الذي ينتفعون به في الآخرة فقال: ﴿لَنْ تَنَالُوا البرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ والذي يحبه الخليفة هو الرزق الحلال والإنفاق منه وهو الحلال، فإن من أنفق ممّا أحب كان من الأبرار، والأبرار في نعيم مقيم لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الأبرار لفي نعيمٍ﴾{677 و من الثواب الذي وصفه الله للأبرار في دار ثوابه: ﴿إِنَّ الأبرار يشربون من كأسٍ كانَ مزاجها كافورا﴾{678، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الأبرار لفي نعيمٍ على الأرائك ينظرونَ تعرّف في وجوههم نضرة النعيم يسقون من رحيقٍ مخموم ختامه مسكٌ وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾{679. والله بين ما هو البرّ وكيف يكون وبأي وسيلة يتوسل الإنسان حتى يتوصل إلى البرّ الذي يستقى من برّ البرّ سبحانه وتعالى فقال: ﴿لَيْسَ البرّ أَنْ تُؤَلُّوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ المشرقِ والمغربِ﴾{680 فالله تعالى وضح في الآيات ثواب الأبرار وفي هذه الآية أشار إلى أن من أنفق ممّا أحب فقد نال البرّ، والبرّ ليس توجهه بالجسم تجاه النواحي المقدسة بل بالقلب والإخلاص في العمل فقال الله تعالى: ﴿لَيْسَ البرّ أَنْ تُؤَلُّوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ المشرقِ والمغربِ وَلَكِنَّ البرّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ

675 -الحج . 77

676 آل عمران 92.

677 -المطففين . 22

678 -الإنسان . 5

679- المطففين . 22، 26

680- البقرة . 177

وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّنَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ
وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ
بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ
صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ {681}، ففي الآية أكثر أعمال الخير، وسماها
الله البرّ، وقال تعالى: {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ
شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ} {682} فكل عمل من تلك الأعمال لا يتم إلا
بالنفقة من أعز الأشياء إلى النفوس حتى تنفقوا مما تحبون، وهذا يدل على
أن الإنسان إذا أنفق مما يحبه كان ذلك من أفضل الطاعات التي ينال بها
البرّ.

والبرّ منه العمل المقبول الذي لا شائبة فيه وقد تقدم به صاحبه خالصا
لوجه الله سبحانه وتعالى وهذا ما يقوم به الخليفة فيبرّ الخلق دون أن يطلب
جزاء.

قال تعالى في وصفه للأبرار: {إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا
كَافُورًا عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا يُؤْفُونَ بِالْأَنْدَادِ وَيَجْأفُونَ يَوْمًا
كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا إِنَّمَا
نُطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا
عَبُوسًا فَمَطْرَبِيرًا فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا وَجَزَاهُمْ بِمَا
صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرُونَ فِيهَا شُمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا
وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ أَيْدِيهِمْ فَطُوفُوا فِيهَا تَدْلِيلًا وَيَطَاقُ عَلَيْهِمْ بِأَنِيَّةٍ مِنْ فِضَّةٍ
وَأَكْوَابٍ كَانَتْ فَوَارِيرَ فَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا
كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ

681 البقرة 177.

682 آل عمران 92.

مُحَلِّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنْثُورًا {683}. إِنَّ حَرْفَ تَوْكِيدٍ وَنَصْبٍ عَلَى أَنَّ الْأَبْرَارَ دُونَ إِي ظَنِّ سَيَكُونُونَ مِنَ الْوَارِثِينَ فِي الْجَنَّةِ، وَلِأَنَّهُ حَكْمٌ بِالْمَطْلَقِ سَيَكُونُونَ مِنَ الشَّارِبِينَ مِنْ كُلِّ لَذِيذٍ رَائِحَةٍ وَمَذَاقًا، وَلِأَنَّ الشَّارِبِينَ مِنَ الْكَأْسِ الْمَمْزُوجِ كَافُورًا لَا يَكُونُونَ إِلَّا فِي الْجَنَّةِ، جَاءَ كَأْسُ الْحَقِّ شَاهِدًا عَلَى دُخُولِهِمُ الْجَنَّةَ.

إِنَّ الَّذِينَ بَرَّوْا بِطَاعَتِهِمْ رَبَّهُمْ فِي الْقَوْلِ الْحَقِّ وَالْفِعْلِ الْحَقِّ وَأَدَّاءِ فَرَائِضِهِ هِيَ كَمَا هِيَ، فِي الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ اللَّائِقِينَ بِهَا، هُمُ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ مَعَاصِيَهُ وَيَنْتَهُونَ عَمَّا نَهَى عَنْهُ، وَهُمْ الَّذِينَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ فِيهِ لَذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ. قَالَ تَعَالَى: {إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ بَيضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ لَا فِيهَا عَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزِفُونَ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عَيْنٌ كَأَنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ {684}. فَالْأَبْرَارُ هُمُ الَّذِينَ اسْتَشْنَاهُمُ الْبَرُّ الرَّحِيمُ بِأَعْمَالِهِمُ الْحَسَانَ مِنْ أَوْلَئِكَ الْمَجْرَمِينَ الَّذِينَ ضَلُّوا وَلَمْ يَهْتَدُوا إِلَى الْحَقِّ، وَلِأَنَّهُمُ الْأَبْرَارُ فَلَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ مُتَنَوِّعٌ وَفِيهِ لَذَّةُ الْمَذَاقِ الرَّفِيعِ. قَالَ تَعَالَى: {أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُرِّيْنًا لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَعْفُورَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ أَنفَا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ

683 - الإنسان 5-19

684 الصافات 40 . 51.

تَأْتِيَهُمْ بَعْتَةٌ فَمَقْدَ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَتَى هُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ فَاَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرَ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ} 685.

وعليه: فالأبرار هم الذين:

1- يُؤْفُونَ بِالنَّدْرِ زيادة للطاعة التامة لله تعالى بالصلاة أو الصوم أو الصدق وكل ما من شأنه يسجل من أفعال الخير الحسان، فهم كلما تحقق لهم فوز في مرضاة الله ازدادوا التجاء إليه وإخلاصا وتطوعا في الأعمال الحسان.

2- والأبرار هم الذين يَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا، أي يخافون العذاب الذي يكتب بأسباب عدم الطاعة لله تعالى، وذلك اليوم الآتي هو اليوم الذي تجنبه الأبرار بالأعمال الحسان والعبادات المخلصة بالوحدانية لله تعالى، وقوله: (كان شره مستطير) لا يعني الماضي بل يعني أن الحكم قد صدر بالأمر (كن) ولم يعد في الزمن المستقبل فليعلم من يعلم أن الأمر قد صدر والتنفيذ سيكون يوم الحساب، وعليه فمن أراد السلامة والنجاة فالفرصة لا زالت سائحة لمن يشاء أن يؤمن حتى يكون من المستخلفين الأبرار الذين لهم الوعد الحق بالجنة، وهو أيضا حكم بالأمر (كن) قد صدر لا شك ولا ظن في ذلك والحمد لله رب العالمين.

3- والأبرار هم الذين يُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا. أي أنهم يطعمون الطعام لحبهم لله جلّ جلاله الذي جعل الحسنات تجنى بالأفعال والأعمال الخيرية التي منابتها في إطعام المساكين واليتامى والأسرى.

4- يطعمون الطَّعَامَ لمن يستحقّه دون رغبة إلا في وجه الله فهم يطعمونه (لِوَجْهِ اللَّهِ).

5- وحالهم لمن يطعمونهم لا يريدون منهم ثريدًا جزاءً ولا شكورًا) بل إنّه يريدون مرضاة الله جلّ جلاله.

6 . ولأنّ الأبرار يخافون عذاب ربهم فلسان حالهم (إنّا نخاف من ربنا يومًا عبوسًا فمطربًا)

والنتيجة:

1- (فوقاهم الله شرّ ذلك اليوم).

2- (ولقاهم نضرة وسرورًا).

3- (وجزاهم بما صبروا جنةً وحريرًا).

وقد وصف الله تعالى حالهم في الجنة بأنهم:

1- (مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ).

2- (لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا).

3- (وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ أَلْفُوفُهَا تَدْلِيلًا).

4- (وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَرُوهَا تَقْدِيرًا).

5- (يُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسِيلًا).

6- (وَيُطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنثورًا).

7- (الِيَهُمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا).

وهذا ثواب الله في الجنة للأبرار الذين برّوا عباده في الدنيا وأصلحوا ولم يفسدوا وحققوا الخلافة التي أوجدهم الله من أجلها فقال الله لهم: (إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا)، وذلك لأنهم لم يطلبوا الجزاء ممن قدموا لهم المعروف ولم ينتظروا منهم شكرا.

والبرّ في العبادات منه الحج المبرور والمبارك من البرّ الرحيم، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "قَالَ: "الْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا وَالْحُجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةُ"686.

وكذلك البرّ للوالدين من أهم ما يتخلق به المتخلق ببرّ البرّ وفي هذا من النصوص الدينية التي تجعل الإنسان يتشبث ببرّهما لجزيل الثواب، فقال الله تعالى: (وَقُلْ لَهُمَا قَوْلَا كَرِيمًا) لطيفا، (وَإِخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ)، من رحمتك إياهما. ومن بيان حقّ الوالدين قوله تعالى: (أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ). ففرن شكره بشكرهما. وعن معاذ بن جبل، قال: أوصاني رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: (لا تعق والديك وإن أمراك أن تخرج من أهلك ومالك). وعن جابر، قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (برّوا آباءكم تبرّكم أبناءكم). {وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهَ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا}687. ومن هذا البرّ كان إسماعيل بإبراهيم مبرّ، قال إبراهيم: "يا بني إني أرى في المنام أنّي أذبحك فأنظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما

686 صحيح مسلم - ج 7، ص 71

687 مريم 41 . 47.

تُؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين! قَالَ فَحَدَّثت أَنَّ إِسْمَاعِيلَ قَالَ لَهُ
عِنْدَ ذَلِكَ يَا أَبَتَاهُ إِذَا أَرَدْتَ ذَبْحِي فَأَشَدِّ رِبَاطِي لَا يَصِيكَ مِنْ دَمِي
فَيَنْقُصُ أَجْرِي فَإِنَّ الْمَوْتَ شَدِيدٌ وَلَا آمَنَ أَنْ اضْطَرَبَ عِنْدَهُ إِذَا وَجَدت
مَسَّهُ وَاشْحَذْ شَفْرَتَكَ حَتَّى تَجْهَزَ عَلَيَّ فَتَذْبِحَنِي فَإِذَا أَنْتَ أَضْجَعْتَنِي فَأَكْبِبْنِي
عَلَى جَنْبِي وَلَا تَضْجَعْنِي لَشَقِي فَإِنِّي أَحْشَى إِنْ أَنْتَ نَظَرْتَ إِلَيَّ وَجْهِي أَنْ
تَدْرِكَ الرِّقَّةَ فَتَحُولَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ أَمْرِ رَبِّكَ فِي وَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَرُدَّ فَمِصِّي إِلَيَّ
أُمِّي فَإِنَّهُ عَسَى أَنْ يَكُونَ أَسْلَى لَهَا فَافْعَلْ فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ نَعَمْ الْعَوْنُ أَنْتَ يَا
بَنِي عَلَى أَمْرِ اللَّهِ وَيُقَالُ إِنَّهُ رَبَّطَهُ كَمَا أَمَرَهُ بِالْحَبْلِ فَأَوْثَقَهُ ثُمَّ شَحَذَ شَفْرَتَهُ ثُمَّ
تَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَاتَّقَى النَّظَرَ إِلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أَدْخَلَ الشَّفْرَةَ حَلْقَهُ فَقَلَبَهَا جَبْرِيلَ عَلَيْهِ
السَّلَامَ لِقَفَائِهَا فِي يَدِهِ ثُمَّ اجْتَذَبَهَا إِلَيْهِ وَنُودِيَ (أَنْ يَا إِبْرَاهِيمَ قَدْ صَدَقْتَ
الرُّؤْيَا) فَهَذِهِ ذَبِيحَتِكَ فِدَاءً لِابْنِكَ فَادْبَحْهَا دُونَهُ" 688

تقديم برّ الوالدين على الجهاد والهجرة:

عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - قال: جاء رجلٌ يستأذن
النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْجِهَادِ، فَقَالَ: (أَحْيِ وَالِدَاكَ.) قَالَ: نَعَمْ.
قَالَ: (فَفِيهِمَا فَجَاهِدُ).

وعن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - قال: جاء رجلٌ إلى النبي
يُبَايِعُهُ، فَقَالَ: جِئْتَ أَبَايَعُكَ عَلَى الْهَجْرَةِ وَتَرَكْتَ أَبَوَايَ يَبْكِيَانِ، قَالَ:
(فَارْجِعْ إِلَيْهِمَا فَأَضْحِكْهُمَا كَمَا أَبْكَيْتَهُمَا).

وعن أبي سعيد الخدري، قال: هاجر رجلٌ إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ مِنَ الْيَمَنِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (هَلْ بِالْيَمَنِ
أَبْوَاكَ.) قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: (أَأَذْنَا لَكَ.) قَالَ: لَا. قَالَ: (ارْجِعْ إِلَى أَبْوَيْكَ
فَأَسْتَأْذِنُهُمَا فَإِنْ أَذْنَا لَكَ وَإِلَّا فَبِرَّهِمَا).

وعن ابن عباس، قال: جاءت امرأة ومعها ابن لها، وهو يريد الجهاد، وهي تمنعه، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أقم عندهما، فإن لك من الأجر مثل الذي يريد).

وعن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - قال: جاء رجل إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستأذنه في الجهاد، فقال: (هل من والديك أحد حي). قال: أمي قال: انطلق فبرّها). فانطلق يحل الركاب. فقال: (إن رضي الرب عز وجل في رضي الوالدين).

وعن ابن مسعود - قال: سألت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أي العمل أحب إلى الله عز وجل). قال: الصلاة لوقتها). قلت: ثم أي. قال: (بر الوالدين). قلت: ثم أي. قال: (الجهاد في سبيل الله).

قال تعالى: {وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا} 689، هذه معطيات البر بالوالدين، ومن يبرّ بوالديه يبرّه الله برحمته.

وكان الحسن يقول: (دعاء الوالدين ينبت المال والولد). وسئل الحسن: ما دعاء الوالد للولد. قال: (نجاة). وعن مجاهد: (ثلاثة لا تحجب دعوتهم عن الله عز وجل: دعوة المظلوم، ودعوة الوالد لولده، وشهادة ألا إله إلا الله) 690.

وقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يقول الله تعالى: أنا الرحمن وهذه الرحم لها اسما من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها بتته" 691.

689 الإسراء 32، 24.

690 بر الوالدين - ج 1، ص 8

691 إحياء علوم الدين - ج 2، ص 58

برّ الوالدين من صفات الأنبياء ويذكر القرآن في ذلك نبين هما: يحيى عليه الصّلاة والسّلام، وعيسى عليه الصّلاة والسّلام، فقال الله تعالى عن سيدنا يحيى: {وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَمَنْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا} 692، وقال تعالى عن سيدنا عيسى عليه الصّلاة والسّلام: {وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَمَنْ يَجْعَلِي جَبَّارًا شَقِيًّا} 693.

وعليه فالبرّ هو الله، والبرّ كل عمل خير يرضي الله ورسوله، وفي عموم القرآن البرّ هو الله على الوجه المطلق، وسيدنا يحيى وسيدنا عيسى عليهما الصّلاة والسّلام وصفهما الله بالبرّ ولكن ليس بعموم الصفة ولكن بخصوصيتها في حقّ الوالدين ليحيى، وللأم مع سيدنا عيسى عليه الصّلاة والسّلام.

اللهم يا البرّ أجعلنا من المستخلفين الأبرار الأخيار، واجعلنا البارين بوالديهم وبكل ما يرضيك، وأرضى عنا وعن البنين، واجعلنا في الدنيا من المتقين الذين يذكرونك قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السمّوات والأرض وهم يقولون: (ربّنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار)، واجعلنا يا البرّ من الحامدين الشاكرين المسبحين باسمك الأعظم واجعلنا في الجنّة من الوارثين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

اللهم يا البرّ افتح علينا أبواب الخير في كل برّ، وأحفظنا من كل شر ويسر لنا الأمر وأنت راض عنا في كل ما يفيد وينفع واجعلنا من الطامعين في فضلك وجودك وكرمك والفائزين به ولا تجعلنا من الطامعين في سواك، اللهم إنك أنت البرّ الواسع فلا تجعلنا في ضائقة.

692 مريم 13-14

693 مريم 32

وعليه لا قدرة إلا من قادر، ولكن أيّة قدرة؟ إنّها التي لا تكون إلا في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع، وهذه مع أنّها في دائرة الممكن ولكنها لا تستمدّ قوّة وقدرة إلا من القادر جلّ جلاله. ولأنّ القادر فهو الغالب بالمطلق الذي تذلل أمامه الصعاب وهو لا يذل، ولذا فهو المغالب لكل قدرة، أي أنه مغالب بالقوّة التي تمده بالقدرة المطلقة، قال تعالى: {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ} 694، عباده هم خلائقه من بني آدم، الذين منهم الوارثون ومنهم دون ذلك، والوارثون هم المستخلفون فيها بالحقّ لإحقاق الحقّ فيها بالإصلاح والإعمار والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أما أولئك الذين من دونهم فهم المفسدون فيها بغير حقّ، كفرا وعصيانا وشركا بالله الواحد الأحد الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولد لا إله إلا هو جلّ جلاله.

وهو القاهر فوق عباده بالقدرة التي لا تضاهيه قدرة، قال تعالى: {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ لَا لَهُ الْحُكْمَ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمَنْ كُلِّ كَرَبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ} 695.

القادر اسم من أسماء الله الحسنى وصفة من صفاته تعالى المتعلق بصفات الذات، والقادر: اسم فاعل من قَدَرَ يُقَدِّرُ 696. أي فاعل القدرة المطلقة.

694 الأنعام، 18.

695 الأنعام، 61. 65.

696 - النهاية في غريب الأثر، ج 4 ص 41

القادر هو الذي يفعل ما لم يستطع غيره فعله، ولذا فهو فعَّال لما يريد،
{ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ } 697.

القادر لا يُعرَّف إلا بقدرته على القول والفعل، وعلى إنطاق من يريد
بقدرته أن يكون ناطقا، ومن يكون مغردا ومن يكون أصم وأبكم، ومن
يكون ساكنا ومن يكون على حالة من الحركة، وهو القادر على أن يحيي
ويميت سبحانه لا إله إلا هو محقق الحياة والممات إلى يوم يبعثون.

القادر هو الذي تستمد القدرة منه، فاتصف بها بالمطلق لا شريك له،
إنه بما خلَق الشيء وخلق من الشيء أشياء بدون نهاية، وهو الذي بقدرته
جعل له في الأرض خليفة، ليصلح فيها ولا يفسد ولا يسفك الدماء بغير
حق.

والقادر بالإضافة هو المستخلف فيها وهو من حمل الأمانة من أجلِّ
إحقاق الحق وإزهاق الباطل، ومع أنه حمل عظيم، إلا أن تحمُّله يزيد المؤمنين
به عظمة.

قال تعالى: { قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ
مِن تَحْتِ أَرْجَلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شَيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ
نُصِّرُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ } 698.

قل يا محمد أن الله هو القادر على أن يبعث عليكم أيها الكفرة الفجرة
المشركين عذابا لا تتوقعونه من أين يأتيكم، فالقادر قادر على أن يأتي
بالعذاب من جميع الجوانب، وكيفما يشاء، ولأنه يشاء كيفما يشاء قال:
(مِن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجَلِكُمْ) فإن كان من فوقكم فتكون الضربة
القاسمة من أعلى (من جند السماء) وإن كانت من أسفل فتكون من (جند

697 هود 107.

698 الأنعام، 65.

الأرض الصالحين) الذين يفعلون ما يؤمرون، مثلما يفعل الملائكة الذين هم على النار قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَدُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا جُزُونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ } 699.

القادر هو المختص بالآتي وبما ليس بالآتي:

إنَّه المختص بالخلق: بقدرته خلق الشيء وخلق منه الأشياء وهي النعم التي لا تعد ولا تحصى، قال تعالى: { وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ } 700. وجعل الخليفة المستمد قدرته من قدرته تعالى قادرا على أن يصنع ممَّا خلق الله له من نعم أشياء جديدة تفيده في حياته مثل المأكل والمشرب والملبس والمركوب وغيرها كثير.

ولأنَّه القادر البصير، جعل خليفته مبصرا ليرى ما خلق حتى يهتدي للتي هي أحسن، ولكن وللأسف هناك من اتقى ربَّه وشهد له بالوحدانية وعمل صالحا فكان له خليفة، وهناك من بصر وكفر وجعل له شريكا في الملك، ولهذا فإنَّ القادر يملك القوَّة التي بها يحيي ويميت ومع ذلك يمهمل ولا يهمل وهو الغفور الودود.

ولأنَّه القادر السميع، فجعل بقدرته عباده يسمعون الحقَّ، ومع ذلك فمنهم من اتبعه بالهداية والفلاح وهناك من ضل السبيل، فالذي اهتدى بأمر الله إليه كان خليفة مباركا من عند القادر، ومن ظل كان مفسدا بغير حقِّ فينال عذاب شديد إلا من استغفر وتاب لربِّه سيجده توابا رحيفا وأحدا أحدا لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير.

699 التحريم 6، 7.

700 إبراهيم، 34.

ولأنَّه القادر العليم بالملق، جعل علمه بين العباد في دائرة الممكن وجعل فوق كل ذي علم عليم مصداقا لقوله تعالى: {نَزَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ} 701.

والقادر الملق علمه مطلق في حالتين:

في الظاهر: الظاهر هو ما ليس بكامنٍ ما يجعله خاضعا للملاحظة والمشاهدة والتعرف عليه بشكل مباشر أو غير مباشر. ولذا فالمعلومة الظاهرة تُسهَم في تحليل ظواهر من بعدها، وهكذا تُحلل المعلومات وفق البيانات المشاهدة، والملاحظة والمحسوسة، سواء كانت سلوكا، أو شكلا، أو كما، أو فعلا؛ والظاهر هو الذي يتم التوقف عنده من أجل التعرف عليه، ومع ذلك ليس كل ظاهر واضح، بل معظم الظواهر تحتاج إلى توضيح، سواء كانت ظواهر طبيعية أو اجتماعية. والتوضيح هو تبيان ذلك الظاهر بما ظهر به عن الكامن، وبما ظهر عنه من أفعال، أو أقوال، أو إنتاج، فالإنسان قيمة كامنة في الإنسان الشكل، وهكذا السلوك تصرف ظاهر من الشكل الذي له كامن.

الظاهر هو الذي لم يعد مخفيا عن المشاهدة والملاحظة ما يجعله بيّن للمعاملة والتعامل الموضوعي، وهو الذي من وراء ظهوره غاية، ما يجعله قابل للامتداد والحركة ويتجسّد في السلوك والفعل بالنسبة لما يتعلق بالحياة البشرية. الظاهر ما ليس بكامن، فالعلاقة بينهما كالعلاقة بين النية والفعل، فالنية ساكنة كامنة إلى حين تتوفر معطياتها فتمتد من حيز سكونها إلى الظهور في الفعل والسلوك. ومثل النواة التي فيها تكمن النخلة وعندما تغرس النواة في التربة المناسبة لنموها تظهر النخلة منها للمشاهدة والملاحظة وتنتهي النواة وتصبح هي الأخرى محمولة (كامنة) في النخلة عندما تنمر.

ولأته القادر الودود، جعل وده بين العباد محبة له، وبينهم محبة، من أبوة وأمومة وأخوة وعمومة ومخولة وجيرة وذوي قربي في الدين لله الواحد الأحد. ومع ذلك هناك من جعل المحبة والمودة بين الناس فأصلح، وهناك من نصب العداة وفرق بين المرء وزوجه، فكانت اللعنات تلاحقه أينما حل، قال تعالى: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ} 702.

قال تعالى: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ لِيَجْزِيَ قَرَاتِيَسَ تَبْذُوهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ} 703 أي ما عظموه حق تعظيمه. القدير والقادر من أسماء الله عز وجل ومن القادر تستمد القدرة وقوله تعالى إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ من القدرة فالله عز وجل على كل شيء قدير والله سبحانه مُقَدِّرُ كُلِّ شَيْءٍ 704، وتشعب المادة اللغوية للفعل قدر لعدة دلالات تتمركز حول فكرة أساسية محورية هي الإتيان بالشيء على وجهه التام الذي لا زيادة فيه ولا نقصان.

وقد وردت المادة اللغوية قدر وتفرعاتها في القرآن الكريم مائة وتسع عشرة مرة فهي ذات كثافة ترددية عالية وهذا يدل على أهمية المادة اللغوية وحملها لكثير من الدلالات القرآنية التي تكاد تستوعب معظم موضوعات القرآن، ويمكننا استنتاج الدلالات الآتية من تردد الفعل قدر في فهم اسم

702 آل عمران، 59 . 61.

703 - الأنعام، 91

704 - لسان العرب، ج 5 ص 74

الجلالة القادر، ومن خلال استقراء المادة القرآنية وبحسب كثرة ترددها تبين أنها تدل على الدلالات الآتية:

1 - أن الله هو الفاعل لما يشاء على قدر ما تقتضي الحكمة لا زائدا عليه ولا ناقصا عنه وقد مثل هذه الدلالة لفظ قدير ومنه قوله تعالى: {وَلِكُلِّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيٰهَا فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللهُ جَمِيعًا إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} 705، ولهذا لا يصح أن يوصف بالقدير المطلق إلا الله تعالى، لأنه لا يستطيع أحد بإتيان الأمر على تمامه إلا الله تبارك وتعالى.

2- إعطاء الشيء على مقدار مخصوص ووجه مخصوص حسب ما اقتضت الحكمة وذلك أن فعل الله ضربان: ضرب أو جده بالفعل، ومعنى إيجاده بالفعل أن أبدعه كاملا دفعة لا تعتريه الزيادة أو النقصان إلى أن يشاء أن يفنيه أو يبدله كالسماوات وما فيها ومنها ما جعل أصوله موجودة بالفعل وأجزائه بالقوة على وجه لا يتأتى منه غير ما قدره فيه كتقديره في النواة أن ينبت منها النخل دون التفاح والزيتون، وتقدير الحيوان الذكوري للإنسان أن يكون منه الإنسان دون سائر الحيوانات. فتقدير الله على وجهين: أحدهما بالحكم منه أن يكون كذا أو لا يكون كذا، أما على سبيل الوجوب وأما على سبيل الإمكان ومنه قوله تعالى: {لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} 706، والملاحظة المهمة حول هذه الدلالة إنها ترتبط دائما بالرزق الذي يقدره الله لمن يشاء من عباده.

3- دلالة التقدير: هذه دلالة قياسية في دائرة الممكن الموزون والمكيل وقياسات الطول والعرض المتري، والقادر هو المالك للمادة والروح والنفس والبدن، هذه المادة مرتبطة بإيجاد السماوات والأرض وإحكام صنعة الأشياء

705 - البقرة، 148

706 - الشورى 12

قال تعالى: {فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} 707 وقوله تعالى {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ هَآ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} 708

أما اسم الله القادر فلم يتردد إلا سبع مرات وهو اسم فاعل للفعل قدر واسم الفاعل كما نعلم يدل على من اتصف به مع ثبات في هذه الصفة ودوام اتصالها به، ولهذا نلاحظ أول شيء يمكن قراءته من تتبع الآيات التي ورد فيها اسم الفاعل قادر أنها جاءت لإثبات صفة القدرة لله تعالى من غير انفكاك عنه ولهذا قيل أن القدرة من صفات المعاني التي تتعلق بالذات الإلهية لأنها لا تنفك عن الذات الإلهية حال الإرادة والعلم والحياة والسمع والبصر والكلام، فهذه الصفات لا تنفك عن ذات الله تعالى ومنها القدرة فهي صفة أزلية يتأتى بها إيجاد كل ممكن وإعدامه ولهذا ارتبط اسم القادر بسياقات تدل على الخلق وإعادة الخلق أو الإتيان بالأمر المستحيل مثل قوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا} 709 وقوله تعالى: {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ} 710 وقوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزُبْ عَنْهُنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُخَيِّبَ الْمُؤْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} 711 كما ارتبط لفظ قادر في مسألة الإتيان بالآيات المعجزة سواء آيات حسية إعجازية كونية أم آيات كتابية قرآنية

707 - الأنعام، 96

708 - يس 38

709 - الإسراء، 99

710 - يس 81

711 - الأحقاف، 33

يقول تعالى { وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } 712.

والأدلة على أن الله قادر تنقسم إلى عقلية ونقلية، والأدلة تتحدد وفق أربع نقاط:

أ - أنه تعالى لو لم يتصف بالقدرة لكان عاجزا ولو كان عاجزا لما وجد شيء من هذه الحوادث المحكمة الصنعة المرتبة المتقنة وعدم وجود شيء من الحوادث باطل بالمشاهدة.

ب - لو كان عاجزا لكان ناقصا والنقص على القادر محال.

ج - لو كان عاجزا لكان ناقصا، ولو كان ناقصا لكان محتاجا إلى من يكمله، ومكمله يحتاج إلى مكمل آخر..... وهكذا فيلزم الدور أو التسلسل وكلاهما باطل.

د - الله صانع بديع، والمصنوع حادث، وصدور الحادث عن السابق لا يتصور إلا بطريق القدرة التي في ملك القادر.

يتبين من الأدلة العقلية السابقة أن إثبات القدرة لله تعالى مرتبط بنفي العجز عنه، هذا العجز أثبتته القران لبني آدم منذ الخلق الأول إذ تعلق بأحد ابني ادم الذي ظهر عجزه في إدراك ما غاب عن حسه المشاهد حتى تحققت له ذلك برؤية الغراب قال تعالى: { فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوَاءَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِيَ سَوَاءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ } 713 فبعد أن قتل أخيه هابيل تركه لا يدري ما

712 - الأنعام، 37

713 - المائدة، 30 - 31

يصنع به ثم خاف عليه من السباع فحمله في جراب على ظهره، هنا العجز ليس بمعنى عدم القدرة أو الاتكال على الغير إنما هو عجز في التفكير كيف يتصرف بهذه الجثة، هذا الأمر يوحي لنا بأن مدارك الإنسان في بدايته مازالت أوليه، فدفن الجثة من قبيل طلب ستر المشاهد المكروهة.

ويتردد العجز في أساليب الخطاب التي تعتمد على رسم صورة ذهنية معتمده على واقع حسي مدرك، أي أن هذا النوع من الخطاب يرتسم من خلال صورة يدركها الذهن إذ يقول تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ } 714 فالصورة هنا أطرف وأدق مثل في تصوير ضعف الشركاء ومهانة الآلهة المدعاة وهذه الآية مثلت الضعف في أبين صورة وأبرزت عجز هؤلاء الذين ادعى المشركون أنهم آلهة قادرين يمنحون ويمنعون.

أما الأدلة النقلية على قدرة القادر فكثيرة في كتاب الله، ويكفي أن ننظر في المواضع السبعة التي ورد فيها لفظ القادر ليتبين لنا أنها جاءت بسياقات تتعلق بإثبات قدرته تعالى على أحداث الأشياء ويصور منها أشياء إعجازية، قال تعالى: { وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } 715 فالمخاطبون هنا تصوروا عجز الله عن الإتيان بأية ينصر بها رسوله فأثبت الباري قدرته على ذلك، وكذلك في قوله تعالى: { ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَتَّهَمُ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَنِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا

714 - الحج 73

715 - الأنعام، 37

كُفُورًا} 716 فالمشركون هنا يتشككون في قدرة الله تعالى على إعادتهم للحياة بعد موتهم وتحولهم إلى رفات ورميم فرد عليهم الخطاب القرآني بأن الذي خلق السموات والأرض لا يعجز على أن يعيدهم مرةً أخرى فالتحدي صفة تلازم سياق الآيات التي ورد فيها اسم الله تعالى القادر، إذ تخيل المخاطبون في كل هذه السياقات عجز الإله عن أحداث ما يريدون من أشياء فكان الجواب في كل سياق أن الله يستطيع أن يفعل بقدرته ما تخيلوا استحالاته ولأهمية هذه الصفة بتعلقها بالذات الإلهية لمسنا التردد الكبير لأصل هذه المادة واشتقاقاتها في القرآن الكريم ومنه القدير الذي تفرد بنسبة عالية صفة الله تعالى القدير وهو القادر على كل شيء من القدر والقدر وهو القضاء والجمع أقدار وقدر على خلقه الأمر يقدره ويقدره قدرًا وقدرًا وقدره له وعليه وقدر له الرزق 717، هذا التنوع الكبير لهذه المادة القرآنية جعلت المعتزلة وهم أحد الفرق الإسلامية الأولى في التأصيل لعلم الكلام يعدون صفة القدرة أصل الصفات ويستدلون عليها بحدوث العالم. يقول القاضي عبد الجبار "اعلم أن أول ما يعرف استدلالاً من صفات القديم عز وجل إنما هو كونه قادراً وما عداه من الصفات يترتب عليه لأن الدلالة التي دلت على انه تعالى هو المحدث للعالم دلت على هذه الصفة التي هي كونه تعالى قادراً من غير واسطة وليس كذلك باقي الصفات" 718.

إن أكثر الموضوعات صلة باسم الله تعالى القادر وبصفة القدير هو موضوع القدر في القرآن الكريم وفي الفكر الإسلامي الذي هو من الموضوعات الشائكة والخطيرة وهو وثيق الصلة بموضوع الصفات الإلهية التي تمثل القدرة مركزاً جوهرياً فيها سواء عند المعتزلة أو غيرهم من الفرق الإسلامية فهل الإنسان مخير أم مسير؟ وفق قدر الله وتقديره وما هي الصلة

716 - الإسراء، 98 - 99

717 - المخصص، ج 4 ص 304

718 - شرح الأصول الخمسة، ص 151

بين إرادة الله وإرادة الإنسان فإذا كان مجبراً على فعله فكيف يحاسبه الله تعالى وان كان مختاراً فما موقع هذا الاختيار من إرادة الله وهل يصح أن يفعل الإنسان شيء لا يريد به الله؟ أن نظرة أولية في النصوص التي وردت فيها مادة القدر والتقدير تؤشر حقيقة أساسية أن الله بيده كل شيء وأنه لا يحدث شيء إلا بعلمه وإرادته يقول تعالى {اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ} 719 وقوله تعالى: {وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيُكَانُّ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيُكَانَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ} 720 وقوله تعالى: {وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ} 721 ويقول تعالى في إثبات قدرته {خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ} 722 وقوله: {تِلْكَ الرِّسَالُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ} 723 إلا أن نصوصاً أخرى تثبت قدرة للإنسان و إرادة له قال تعالى: {قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ} 724، وقال تعالى: {وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ

719 - الرعد 26

720 - القصص، 82

721 - فصلت، 10

722 - هود 107

723 - البقرة، 253

724 - النمل 40

شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا
وَإِنْ يَسْتَعِثُوا يُعَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ
مُرْتَفَقًا {725} ووصف أحد مشركي قريش بالقدرة إذ قال عنه {فَقُتِلَ كَيْفَ
قَدَّرَ} 726 فهنا يقدح السؤال كيف تتعلق قدرة بقدرة الإنسان التي أثبتها
القرآن؟ وبدون الدخول في التفاصيل التي لاهمنا كثيرا فان إثبات القدرة
للإنسان لا يتعارض مع إثبات القدرة لله تعالى لأن الله شاء أن يكون
الإنسان قادرا يستطيع أن يفعل ما قدره الله له فهو يستطيع أن ينشي وينظر
ويسمع لأن الله أراد له ذلك ولكنه لا يستطيع أن يطير مثلا لأن الله لم يقدر
له ذلك وقدر للغير من خلقه.

وعليه القادر المطلق هو الذي لا يقف عند حدود دائرة الممكن التي
تستوعب الامتداد العقلي لبني آدم فقط، بل إنه الممتد إلى ما لا نهاية في
دائرة المستحيل، ولكي أوضح ذلك علينا بتناول دائرتي الممكن والمستحيل
بالمقارنة والتحليل والتفسير وفقا للفرض المثبت الآتي:

(لا تتاح الأشياء للمخلوق إن لم تكن ممكنة).

هذا صحيح. ذلك لأن المخلوق هو محدود المقدرة، وإن كان إسماعيل
عليه الصلاة والسلام.

أما الخالق فهو القادر على كل مطلق.

ولهذا فبالنسبة للخالق القاعدة هي:

(الخلق مستحيل على المخلوق، وهذا يعني لا وجود للاستثناء بالنسبة
للخالق).

725 - الكهف 29

726 - المدثر 19

أما بالنسبة للمخلوق فالقاعدة هي:

(خلق الممكن من الممكن. وهذا يعني أنّ لكل قاعدة استثناء).

الاستثناء نحن بني الإنسان لا نخلق مستحيلا، ولكننا ننظر إليه، ونتعرّف عليه، ونتمكّن منه إن نظرنا إليه إعجازا، وفقا لقدراتنا واستطاعتنا على الحركة في دائرة الممكن.

وعليه فالمستحيل يُخلق من الخالق الأعظم، والنظر إليه والتفكير فيه وبلوغه يحدث في دائرة الممكن من قبل المخلوق الأفضل. ولهذا يقول الله تعالى: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ} 727.

ولذا لا ينبغي أن يغفل المخلوق عن دائرة الممكن والتفكير فيها، والعمل وفقا للقواعد التي تحتويها أو تتضمنها أو تشير إليها، حيث لا مستحيل في دائرة الممكن.

وعلى الخليفة أن يعرف، أنّ علاقة قوية تربط بين الممكن والقدرة.

ولهذا فالممكن في نضج القدرة.

وغير الممكن في قصورها.

ولذا فالإنسان يتوقّع ما هو ممكن، ولكنه قد لا يستطيع تحقيقه نتيجة قصور إرادته وقدرته. فما يشاهد أو يُلحظ أو يُحس به أو ما يتم تذوقه أو شمّه أو سمعه فهو الواقع في حدود الممكن. وقد يحدث الاختلاف في درجات التمييز بين ما يوضع في مجال الممكن بالنسبة للمدركات والقدرات

والأحاسيس حيث هناك البعض يميّز بين الأشياء أكثر أو أقل من البعض الآخر.

فعلى سبيل المثال: الوصول إلى القمر كان في الزمان الماضي مستحيلا وفقا لقدرات الإنسان وعلومه، وفي زماننا أصبح ممكنا، ولهذا خلق القمر مستحيلا كما أن خلق الوجود بأسره مستحيلا، وبملاسة دائرة الممكن لدائرة المستحيل يتم التعرف، ويحدث التمكّن وفقا للقدرة.

وعليه، كلما ظهرت الأشياء أو المخلوقات، إلى حيز المشاهدة أو الملاحظة، دخلت إلى دائرة الممكن (المتوقّع وغير المتوقّع)، ولا ظهور للأشياء ما لم تكن في دائرة الممكن.

ولا كمون للأشياء ما لم تكن في دائرة الممكن.

وبناء على ذلك يعمل الخليفة على الآتي:

. إظهار الممكن.

. إنجاز الممكن.

. بلوغ الممكن.

. التخطيط وفق الممكن.

. التطلُّع وفق لممكن.

والخليفة لا يستغرب في دائرة الممكن حيث كلّ شيء متوقّع وغير متوقّع، ولتبيان ذلك أقول:

. الممكن: برغم وجوده؛ إلا أنّ منه ما يوضع في الحسبان (المتوقّع) ومنه

ما لم يوضع في الحسبان (غير المتوقّع). وهو الذي كلما توقّرت شروطه تم تحقيقيه أو بلوغه.

وبما أنّ كل شيء ممكن.

إذن فلماذا الاستغراب؟

الاستغراب هو حدوث غير المتوقع في الزمن الذي ينتظر فيه ظهور المتوقع. أي ظهور ما لم يكن في الحسبان، وعليه يجب أن يضع الخليفة في حسبانته كل ما هو ممكن في دائرة المتوقع وغير المتوقع حتى لا يفاجأ.

الممكن برغم وجوده المتجزئ إلا أنّ منه ما يوضع في الحسبان (المتوقع) ومنه ما لم يوضع في الحسبان (غير المتوقع).

مثال: البحث عن العمل، لو لم يكن ممكنا، ما كان البحث عنه. ولهذا البحث عن العمل ممكنا، والحصول عليه ممكنا.

وعدم الحصول عليه أيضا ممكنا. هذا الأمر هو المتوقع (ما يوضع في الحسبان). لكن إذا قُدِّمت لك الإهانات التي لم تكن في الحسبان، وأنت تبحث عن فرصة عمل، فهذا الأمر بالنسبة لك غير متوقع.

وعليه: فالمحبة متوقعة، والزواج متوقع، والطلاق كذلك، والانحراف متوقع، والأنجاب متوقع، وأيضا عدم الأنجاب متوقع. الخيانة متوقعة، والطاعة والعصيان متوقعان، الكذب والصدق متوقعان، وأيضا أن يُعطى لك موعد ويُحل به متوقع، وفي مقابل ما ذكرناه من متوقعات يكون غير المتوقع وفي ذلك على سبيل المثال: أن تقدم الأم على ارتكاب فعل الفاحشة مع ابنتها فهذا غير متوقع، أو أن يقدم الأب على فعل الفاحشة مع ابنته، فهذا غير متوقع أيضا، لأنه لم يوضع في حسبان القيم والأخلاق البنائية للأسرة مصداقا لقوله تعالى: {وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخْوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمْ اللَّائِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخْوَاتُكُمْ مِنَ الرِّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمْ اللَّائِي فِي

حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّائِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا {728

ولهذا، معايير المتوقع هي التي على ضوءها تكون القواعد، وعلى معايير غير المتوقع تكون الاستثناءات.

ولذا فالاستثناء، هو الذي يقدم الخليفة على إصلاحه لأجل العودة إلى قواعد مكارم الأخلاق.

وغير الممكن: هو المستحيل، الذي لا يمكن الإقدام على فعله، أو بلوغه مهما فعلنا عبر الزمن.

مثال:

. من غير الممكن أن نأتي بالشمس من المغرب.

. من غير الممكن أن ندمج الشمس في القمر.

. من غير الممكن أن يطير الإنسان من غير جناحين.

. من غير الممكن أن نفكر إن فقدنا عقولنا.

. من غير الممكن أن نحي الموتى بقدراتنا هذه.

وقد يتساءل البعض: ماذا تعني بقدراتنا هذه؟

أعني: إنَّ إحياء الموتى عبر الزمن كان ممكنا لبعض الرُّسل والأنبياء بإذن الله تعالى، ولكن في زمننا هذا فهو غير ممكن، لأنَّ زمن الرُّسل غير مستمر معنا بعد الرِّسالة الخاتمة والرُّسول الكافة.

إذن (كل ما لم يكن مستحيلا ممكنا).

وبما أنّ كل شيء ممكن. إذن فما هو الفرق بين الممكن والمستحيل؟

الممكن، قابل للإثبات أو الاكتشاف. أي أنّه في حاجة لمن يثبته ويبرهنه على معطياته ومبرراته. ولذا فهو:

قابل للإثبات.

قابل للنفي.

قابل للرفض.

قابل للاكتشاف.

قابل للظهور.

قابل للكُمون.

قابل للشك.

قابل للمقارنة.

قابل للترباط.

قابل للثبات.

قابل للاهتزاز.

قابل للدراسة والبحث.

قابل للتصحيح.

قابل للعلاج.

قابل للتقييم.

. ولهذا لو لم يكن ممكنا ما تم إثباته واكتشافه وظهوره وكمونه والشكّ فيه، ومقارنته ومعرفة ترابطه وثباته واهتزازه.

. أما المستحيل فمثبت. وهو الذي نعلم به ولا نعرفه، فعلى سبيل المثال:

. نعلم بيوم الحساب ولكننا لا نعرفه ولا يمكن لنا ذلك.

. الشمس تشرق وتغربّ ولن نستطيع تغيير أمرها أو تبديله.

. القمر تعكس الضوء ولن نستطيع إخفاء الضوء عنها.

. الموتى لا يعودون إلى الحياة ولن نستطيع إيقاف الموت عنّا.

. المستحيل مع أنّه موجود إلا أنه لا ينفى.

. عندما يكون اليوم السبت فإنّ الأحد سيأتي غدا وفقا لعلمنا ولكن قد

لا يأتي الأحد واليوم الغد الذي يحتويه.

إذن المستحيل: هو الذي لا يمتلك الفرد ولا الجماعة ولا المجتمع ولا الإنسانية كاملة أن تقوم به أو تفعله. إنه الشيء الخارج عن دائرة الممكن وفق حساباتنا وقدراتنا واستعداداتنا وطاقاتنا.

إذن: المتوقّع وغير المتوقّع هما اللذان يقعان من قبيل أو من طرف المخلوق.

المستحيل هو الذي يقع من قبل الخالق القادر.

ولذا فكلاهما يحدث، وفقا لتوقعاتنا. إلا أن الممكن يتحقّق بأيدينا والمستحيل ما لم تستطع أيدينا على فعله.

وعليه المستحيل نتوقعه ولكن وقوعه من خارجنا أما الممكن نتوقعه ويحدث من داخلنا.

لذا على الخليفة أن يضع في حساباته بان ظهور غير المتوقع ممكنا وإذا لم يضع ذلك في حساباته فسيفاجأ به، ولذا فالخليفة يعلم بأن (الصعب ليس بمستحيل).

الصعب فعل يُنفى ويُثبت، ولهذا فهو ممكنا، وبالرغم من أنه ممكنا إلا أنه ليس سهلا. ولذا فهو في حاحه لبذل الجهد، مع إعطاء الزمن الكافي والإمكانات الكافية.

وعليه:

من المستحيل أن يكون الإنسان عالما بلا علم، ومن الصّعب أن يصبح الإنسان عالما.

وبما أنه من الصّعب أن يصبح الإنسان عالما، ومع ذلك فبالإمكان أن يكون.

إذن القاعدة هي:

تحدّي الصّعب إذا أردت أن تكون عالما.

والاستثناء هو:

تنسحب من التحدي تبقى جاهلا.

ولهذا فإنّ تقدّم العلوم قاعدة. وتأخرها استثناء.

وقد يتساءل البعض: (متى يكون المثبت مستحيلا؟)

. مستحيل أن تأتي به جديدا.

. مستحيل أن تأتي بمثله بالتمام.

. مستحيل أن تمتلك القوة المماثلة للقوة التي أظهرته.

ولهذا فالمثبت مستحيلا. أمّا إذا استطعت أن تأتي به جديدا، أو تأتي بمثله، أو أن تمتلك القوة والقدرة التي أظهرته، فإن ذلك هو الممكن غير المتوقع (الصعب).

وقد يتساءل البعض أيضا: ما الفرق بين المستحيل والصعب؟

المستحيل غير ممكن.

ومع أنّ المستحيل مثبت؛ إلا أنّه خارج دائرة المتوقع وغير المتوقع.

الصعب ممكنا.

إنّه القابل للإثبات أو النفي، إلا أنّه في حاجة لبذل المزيد من الجهد، مع إعطائه الزمن الكافي والإمكانات الكافية.

مثال: الأخصائي الاجتماعي الذي لديه فرضية تقول: (الحالة ميؤوس منها) هذه فرضية غير مقبولة وفقا لقاعدة الممكن، ولذا لا يوجد شيء مستحيل في دائرة التعامل بين بني آدم، لكن قد يكون على درجة من الصعوبة.

ولذلك فعلى الخليفة أن يتحدى الصعاب، وأن يتجاوز قوّة المواجهة مع الحالة التي يتعامل معها لأجلّ الإصلاح، حتى تصبح معه حالة غير ميؤوس منها.

عليه:

فالقاعدة هي:

تحدي الصعاب.

والاستثناء هو:

الاستسلام للصعاب.

ولهذا لا تغفل عن الاستثناء، بل أعمل عليه.

ولماذا النظر والعمل على الاستثناء؟

لأن من يقعون في دائرته هم في حاجة للعلاج والإصلاح.

ولهذا، من لا يغفل عن الاستثناء، يسهم في صناعة المستقبل الأفضل.

عليه:

1. أنظر إلى المثبت واعمل على الممكن.

2. تحدى الصعاب، فإن تحديها ممكنا.

3. خطط وفقا لما هو متوقع، ولما هو غير متوقع، حتى لا تفاجأ.

4. لا تستغرب أن يحدث أو يقع غير المتوقع.

5. لا تصدر أحكاما مطلقة على ما هو ممكن.

6. شك حتى ترى اليقين (الحقيقة). قال تعالى: {فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ وَإِنَّهُ لَتَذِكْرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ وَإِنَّهُ لِحَقِّ الْيَقِينِ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ} 729، وقال تعالى:

729 الحاق، ة 38 .52.

{أَهْلَاكُمْ التَّكَاتُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ
كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوْهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ثُمَّ لَتَسْأَلَنَّ
يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ} 730.

7. تحدّى الصّعب، فإنّ تحديها يأتي بالجديد.

8. خطط لمستقبل أفضل، واعمل على صناعته قبل قدوم زمنه.

9. أنتبه إلى الاستثناء، تتفادى الأضرار والمخاطر.

10. انتبه إلى الاستثناء، تعيد إلى القاعدة المنحرفين عنها.

وبناء على ذلك:

أ. جمع قواك تفعل الممكن.

ب. تصنع الممكن.

ج. تُحدث الثُّقلة.

د. يُعترف بك.

هـ. تنال التقدير.

و. تكسب الثقة.

ع. تُنجز الأهداف.

غ. تزداد إصرار.

وعليه بالقدرة جعل القادر الكلمة قول يُسمع، والكلمة أساس كل شيء
يُمكن أن يكون، فيها صدر الأمر الإلهي كن فكان، وبها يتفاهم الإنسان مع

أطرافه، وبها تتخذ القرارات وتصدر الأوامر والنواهي، وبها يتقدم الإنسان أو يتأخر ولذا فالكلمة فاعلة عندما تمتد في القول والفعل والسلوك.

ولأنها كلمة فعندما تصدر بالألسن تُسمع، وتترك أثرا موجبا أو سالبا في الضمائر والقلوب. فهي التي تنقل القيم الموجبة والقيم السالبة، وبها تُحمل التعاليم وتُقوم الأخلاق، وبها نزلت الرسالات السماوية على الرسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم.

وبما أنّ الكلمة قول يُسمع.

إذن القاعدة هي:

1. (الكلمة قول).

2. (القول يُسمع)

والاستثناء هو:

1. (الكلمة لا تُقال).

2. (القول لا يُسمع).

ولأنّ القول الذي يُسمع يترك أثرا.

لذا فآثر الكلمة في دائرة الممكن، قد يكون حُجّة لنا ويقد يكون حُجّة علينا.

أن يكون حجة لنا فهذه القاعدة.

أن يكون حجة علينا فهذا الاستثناء.

ولكن أي كلمة هي حُجّة لنا؟

كلمة الحق.

وأَيُّ كلمة هي حُجَّة علينا؟

كلمة الباطل.

إذن الحُجَّة دليل إثبات في دائرة الممكن السالب أو الموجب.

وعليه:

. قُل الحقّ.

. تحدث وجادل به.

. أنصت حتى تتبين.

. عبّر عما بداخلك بلسان صدق.

. أحكم بين الناس بالحقّ.

. أرسل الكلمة بود.

. استقبلها بوعي.

ولذا فعلى الخليفة أن يراعي الآتي:

1 . أن يكون لسانه لسان صدق مع لباقة ولطف معاملة وبكل موضوعية مع بني جنسه.

2 . أن يقدّم على حل المشاكل بحُجّة وأن يعدل.

3 . أن لا يحل مشكلة على حساب أخرى.

4 . أن يضع في اعتباره عملية الإصلاح ضرورة إنسانية تستوجب منه الاستمرار في الحديث والحوار المنطقي.

5 . أن لا يتوقّع الاستجابة المرضية منذ البداية.

6. أن لا يطلب من الفرد ما لا يقدر عليه بإرادة.

7. أن يحدد الأولويات عند القيام بعملية الإصلاح.

8. أن ينمي مهاراته بالتفكير والتدبير الموضوعي.

9. أن يستعمل الفكاهة إذا ما استدعت الضرورة لذلك.

وبالقدرة جعل القادر الكلمة الحُجَّة تُرسم.

ولأنّ الكلمة التي تُرسم لها صورة وشكل، كالشجرة التي تُحمل في الكلمة الدالة عليها، وكالقلم، والبحر، والجبال والأرض والطيور والأزهار والحيوانات كل هذه الكلمات ذات صورة وجمعيتها تُرسم. وهكذا الا أشكال تتعدد أنواعها بتعدد صورها التي تُرسم وكذلك كلمة المثلث والمربع والمستطيل والدائرة كلمات دالة بالصورة والشكل.

فعندما يستمع المستمع الذي سبق له وأن عرف وراءها، عندما يستمع للكلمات الدالة عليها تُرسم في ذهنه أشكالها وصورها حتى وإن لم تكن ماثلة أمامه، فعندما يقال لك قلم يُرسم القلم في ذهنك، وعندما يقال لك مقعدا أو غزالة أو وردة أو شلالا أو نهرا، كلها تُرسم في الذهن ما يجعل استيعاب الكلمة ذات الصورة والشكل أقرب إلى الفهم والإدراك عن غيرها من الكلمات التي ليست لها صورة أو شكل، وكل ذلك بالقدرة التي جعلت للمنطوق من القول صورة.

وبالقدرة جعل القادر في الكلمة الحُجَّة حركة.

لو لم يكن في الكلمة الحُجَّة حركة، ما امتدت من ذهن القائل إلى ذهن وعقل المستمع، ولَمَّا تركت أثرا يمكن أن يؤثر على النفس أو يؤثر فيها سلبا بالنكوص والانطواء والانسحاب، أو إيجابا بالفطنة والصحة والتيقظ الذي يمد الأفراد بأخذ الحيلة والحذر، والتطلّع لكل مفيد ونافع.

وبما أنّ في الكلمة الحُجَّة حركة.

إذن للكلمة الحُجَّة مجال امتداد.

ولهذا فالقاعدة هي:

1 . الكلمة امتداد.

2 . الحُجَّة حركة.

والاستثناء هو:

1 . الكلمة انكماش.

2 . الحُجَّة سكون.

ولذلك ينبغي على الخليفة ألا يغفل عن الآتي:

1- أنّ يعمل بالكلمة الموجبة من أجلّ تصحيح الكلمة السالبة.

2- استخدام الكلمات التي ترّسّم إيجابا على وجوه العباد، وذلك بما يترك أثرا موجبا.

3- استخدام الكلمات التي لها دليل إثبات قابل للمطابقة والتقصي.

4- استبدال الكلمات الجافة بأخرى مملوءة بالعواطف والمشاعر والدّوق الرفيع.

5- استبدال الكلمة الخبيثة بالكلمة الطيبة.

6- استبدال الكلمة الفاقدة للحجة بالكلمة المتضمنة لها.

وبما أنّ الكلمة بين سكون وحركة، وامتداد وانكماش.

إذن تقع الكلمة في دائرة الممكن (المتوقَّع وغير المتوقَّع) ولهذا تحدث الكلمة أو تقال أو تصدر وفقا لما هو متوقَّع سالبا أو لما هو متوقَّع موجبا.

وفي مقابل المتوقَّع السالب والموجب قد تقع أو تحدث الكلمة وفقا لما هو في دائرة غير متوقَّع السَّالب أو غير المتوقَّع الموجب.

وبالقدرة جعل القادر (الكلمة الحركة تترك أثرا ولا تُرسم)

وبما أن الكلمة التي تُرسم هي التي لها صورة وشكل.

والكلمة التي لها حركة تترك أثرا قابلا للتقصي.

إذن الكلمة الحركة دليل إثبات قابل للمطابقة.

ولذا فإنَّ القاعدة هي:

1 . الكلمة الحركة تترك أثرا.

2 . الأثر لا يرسم.

3 . الأثر قابل للتقصي.

والاستثناء هو:

1 . الكلمة الحركة لا تترك أثرا.

2 . الأثر يرسم.

3 . انعدام الأثر القابل للتقصي.

ولأجلَّ إظهار الدليل أو إثباته تكمن الحركة في الكلمة ومن يتمكَّن من إثبات الدليل وإظهاره يتمكَّن من ملاحظة الحركة في الكلمة. ولهذا في الكلمات الآتية تكمن حركة وتُلاحظ:

. هجرة.

. تقدم.

. انسحاب.

. وثب.

. هجوم.

. قفز.

. جلوس.

. قيام....الخ.

ولهذا لا يمكن لأحد أن يرسم هجرة أو تقدم أو انسحاب أو قفز، ولكنه يستطيع أن يرسم المهاجرين والمتقدمين أو المنسحبين أو الذين هم على حالة من الوثب.

وعليه الكلمة الموضوعية تستوجب التحديد وإلا علق بها اللبس والغموض، وقد تزور الحقائق إذا لم تُقدّم الكلمة كما هي وبوضوح وبكل قدرة موجبة.

ولهذا فكلمة هجرة في حاجة للتوضيح فهي غير محددة موضوعيا ما يجعل الشكوك والظنون تلاحقها حتى يتم التبيّن والتوضيح بدلائل وإثباتات علمية. فهل يا ترى هي دالة على هجرة الطيور، أم الهجرة الخارجية، أم هجرة الأسماك من المياه الباردة إلى المياه الدافئة؟ أم أنّها هجرة داخلية من الأرياف والقرى والضواحي إلى المدن؟ أم أنّها هجرة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من مكة إلى المدينة؟ أم هجرة ماذا، أو من؟

وأَيّ قفز أو أَيّ تقدّم أو أَيّ انسحاب تعني تلك الكلمات؟ ولهذا
فبالقدرة يتم التبيّن من أجلّ اليقين.

ولذا فالكلمة الحركة تقع في دائرة الممكن بين متوقّع (سالب وموجب)
وغير متوقّع (سالب وموجب) وكل شيء نسبي، فتقدم الجيوش الغازية يعد
موجبا، للدول الغازية، ويعد سالباً للبلدان والدول المغزية (المعتدى عليها) ما
يجعل المتوقّع وغير المتوقّع في دائرة الممكن، حيث يكون من المتوقّع انتصار
الجيوش الغازية في أقصر وقت وبأقل خسارة، وقد تحدث لهم الخسارة والهزيمة
غير المتوقّعة إذا أنتصر الجيش المغزو عليه ممّا يجعل الجيش الغازي في حاجة
لإعادة حساباته التي سبق وأن وضع على ضوئها خطته في دائرة المتوقّع
فقط.

بالقدرة جعل القادر جلّ جلاله (الكلمة الحُجّة ترسم).

ولأنّ الكلمة التي ترسم لا تُرسم.

ولأنّ الكلمة التي ترسم تترك أثرا في دائرة الممكن. لذا فإن كانت الكلمة
المرتسمة نتاج فعل سالب، كالموت تترك أثرا يدل على الحزن وإن كانت نتاج
فعل موجب كالفرحة تترك أثرا موجبا كالانبساط والابتسام.

ولهذا فالابتسام ترسم على الوجه وتترك بسطة عليه وعلى النفس بهجة
وسعادةً.

فالبهجة والسعادة من الكلمات التي ترسم ولا تُرسم مع أنّها تترك أثرا
موجبا.

والقاعدة هي:

1. الكلمة ترسم.

2 . الارتسام حُجَّة .

3 . الارتسام يُشاهد .

4 . الفرحة تُلحظ .

والاستثناء هو :

1 . انعدام الكلمة المرترسة .

2 . انعدام الارتسام الحُجَّة .

3 . الارتسام لا يُشاهد .

4 . الفرحة لا تُلحظ .

الارتسام يخضع للمشاهدة، ولهذا فالابتسامة تشاهد، والفرحة تُلحظ .

وهكذا ترسم الكلمة المحزنة على الوجه فتترك أثرا في دائرة الممكن (المتوقَّع وغير المتوقَّع) وينسب متفاوت من فرد إلى فرد ومن جماعة إلى جماعة ومن مجتمع لمجتمع .

فالموت على سبيل المثال مع ما يتركه من أثر محزن على الغالبية البشرية إلا أنه يعد لدى البعض المنقذ من الآلام والمآسي والكروب، وهذا لا يعنى أنه لا يترك أثرا محزنا .

ولأنّ كل شيء نسبي، فالموت لا يترك أثرا محزنا على المتوفى، وفي معظم الأحيان تترك أثر حزن بنسب متفاوتة على ذوي العلاقة به .

أمّا الاستشهاد الذي فيه تتم مفارقة التعامل مع الآخر فيتم عن فرحة، وفي كثير من الأحيان يترك الاستشهاد أثرا موجبا على ذوي العلاقة وفقا لقاعدة النسبية في دائرة الممكن .

بالقدرة جعل القادر عزّ وجلّ (الكلمة الحجّة ذات معنى ودلالة).

بما أنّ الكلمة الحجّة ذات معنى ودلالة.

إذن القاعدة هي:

1 . الكلمة الحجّة ذات معنى.

2 . الكلمة الحجّة ذات دلالة.

والاستثناء هو:

1 . الكلمة الحجّة بلا معنى.

2 . الكلمة الحجّة بلا دلالة.

وبما أنّ للكلمة معنى ودلالة.

إذن للكلمة مضمون.

ولهذا فالكلمة المضمون قاعدة.

والكلمة بدون مضمون استثناء.

وعليه تقع الكلمة المعنى في دائرة الممكن (المتوقّع وغير المتوقّع).

فكلمة الدور على سبيل المثال، والموقف والمبدأ، والهدف، والغرض والغاية، كلمات ذات معانٍ ودلائل ولكنها لا تُرسم، ولا تَرْتَسِم، وغير ذات حركة مباشرة، ولهذا فهي في حاجة لمن يُعْرِفَ بها، ما يجعل البَحَاثَةَ يحدّدون لها تعريفات إجرائية يتم العمل بها في سلوك وفعل وحركة. وحينما يصبح للكلمة معنى ودلالة وأثر حينها يستوجب التقصي العلمي والتتبع الموضوعي لكشف الأثر أو التعرّف عليه.

والكلمة المنطوقة تُقرأ وتُكتب، وتأخذ احتمالين: إما أن تكون صادقة وإما أن تكون كاذبة.

1 . الكلمة الصادقة تحتوي على مضمون إثبات التطبيق عبر الزمن. حيث تطبيقها في الزمن الحاضر نتيجة سلامة تطبيقها في الماضي. وإثبات تطبيقها في الآن دليل للرابطة القيمية معها ومع الأثر الموجب الذي تتركه باستمرارية التجديد، ما جعلها في حالة امتداد وتطلع للمستقبل في دائرة الممكن (المتوقع وغير المتوقع).

2 . الكلمة الكاذبة: هي التي تفتقد إلى المصادق، لاحتوائها على مضمون الإثبات السالب وذلك لانعدام العلاقة بينها وبين الموضوع، ومع ذلك فلولا الكذب ما عشقنا الصدق وتمسكنا به.

وبما أنّ الكلمة الكاذبة مكشوفة المضمون وقد تكون غير مكشوفة المضمون لمن قيلت له وقد يصدّق قائلها إذا لم يسبق وأن عُرفَ بهذه الصفة وتستمر كاذبة إلى أن يكشف أمرها.

وبرغم ذلك كله فالكلمة دائما حرة ولا يمكن أن تُسجن مع أنّها تؤدّي بصاحبها أو قائلها في بعض الأحيان إلى السّجن. ومع ذلك قد يتساءل البعض:

هل الكلمة هي التي تجعل الإنسان كاذبا، أم أنّ الإنسان هو الذي يجعل من الكلمة كاذبة؟

في اعتقادنا لم تكن الكلمة هي الفاعلة، بل الإنسان هو الفاعل الذي يجعل من الكلمة كاذبة. ولذلك الكلمة دائما صادقة، أمّا صاحبها (مصدرها) فقد لا يكون كذلك. والكلمة دائما حرة، أمّا صاحبها فلا، فعندما تُقال الكلمة، أو تُكتب، أو حتى تكون في الصدور، تكون معروفة، ولذلك قد يسجن صاحبها، أو تُمزق الكتب والصحف التي كُتبت عليها،

وهي باقية لم تمزق حتى وإن قتل مصدرها. ولم يستطع أحد إدخالها السجن، إنها الحرة التي ينبغي أن تُحترم، لأننا بها كنا، وبها نتكلم ونتعلم ونتطوّر، وبها آمنّا، وبها نُحب ونكره، ونحكم ونملك ونقاتل. فينبغي أن تُحترم في أي وقت وأي مكان إلى النهاية.

بالقدرة جعل القادر عزّ وجلّ (الكلمة الحُجّة مرونة).

بما أنّ الكلمة مرونة إذن في أساسها قابلة للامتداد والحركة والأخذ والعطاء والنقد والبناء والهدم.

وبما أنّ الكلمة الحُجّة مرونة.

إذن ليست بجامدة.

ولهذا فالقاعدة هي:

. الكلمة الحُجّة مرونة.

والاستثناء هو:

. الكلمة الحُجّة بلا مرونة.

ولذا فالمرونة قبول بالآتي:

. بالآخر.

. بالتغيّر.

. بالتغيير.

. بالاستيعاب.

. بالاعتراف.

. بالتقدير .

. بالتفهّم .

ولذا فبالمرونة يتم القبول والتغيير والاستيعاب والاعتراف والتقدير والتفهّم والشفافية والتوافق والمساواة والعدل والاحترام.

وبما أنّ كل شيء ممكن.

إذن: ينبغي أن يكون الخليفة على درجة عالية من المرونة وإلا سيقع في المحذور القيمي الذي يستوجب منه تقبل الآخرين كما هم والعمل على نقلهم لما يجب، ولذا فإنّ الكلمة المرنة تُمكن من الآتي:

. استيعاب النَّاس، وفقا لحقوق تمارس وواجبات تُؤدّي ومسؤوليات يتم حملها.

. تفهّم الظروف والأحوال حيث لكل ظروفه الخاصة التي تميزه عن الغير وتميز الغير عنه.

. تقدير المواقف .

. الاستجابة المناسبة بما يغرس الثقة في الأنفس .

وبما أنّ كل شيء ممكن: إذن فلماذا لا يكون العباد على درجة عالية من المرونة؟ ولأنّ المرونة تُمكن من استيعاب الفرد والجماعة وتُمكن من تفهّم ظروفهم وأحوالهم.

إذن فالقاعدة هي:

1 . الاستيعاب بمرونة .

2 . التفهّم بمرونة .

3 . التغيير بمرونة.

والاستثناء هو:

1 . الاستيعاب بدون مرونة.

2 . التفهُم بدون مرونة.

3 . التغيير بدون مرونة.

ولذا فإنّ الكلمة الحُجَّة هي:

. مرونة.

. تُحدث التُّقلة.

. تُسهم في صناعة المستقبل.

. تقع في دائرة الممكن (المتوقَّع وغير المتوقَّع).

ولأنها تقع في دائرة الممكن فلا ينبغي أن يستغرب الخليفة إن حدث التغيير أو التغيير، بل عليه أن يستغرب إذا لم يحدث التغيير أو التغيير.

وعليه إذا حدث الاستغراب عليك بالآتي:

. تساءل عن مبررات حدوثه أو ظهوره.

. ضع الفرضيات وفقا لدائرة الممكن.

. جمّع المعلومات المتعلقة بموضوع الاستغراب.

. حلّل المعلومات موضوعيا.

. شحّص الحالة قيد البحث والدراسة.

. قف عند النتائج بكل وضوح.

. قَوْمٍ ما بذلته من جهود من خلال تتبع واعى لكل خطوة خطوتها
وأنت خليفة.

وبناء على ما سبق:

تقع الكلمة المرنة في دائرة الممكن (المتوقَّع، وغير المتوقَّع) ولهذا الكلمة
المرنة في دائرة المتوقَّع هي ثابتة وفي دائرة غير المتوقَّع ليست كذلك.

فهي ثابتة من حيث: أنها حُجَّة لها معايير ومقاييس موضوعية.

ومرنة من حيث: أنَّها قابلة للحركة من الكل إلى الجزء إلى المتجزئ.

فعلى سبيل المثال: الحَجْرَة (الطوبية) الصغيرة لها شكل أو صورة من
خلال ما تكون عليه من هيئة، وإذا تمَّ سحق الحَجْرَة الصغيرة ونُفخت من
الطابق المائة، فإنَّها ستتطاير مع الهواء حتى تفقد شكلها والصورة التي كانت
عليها، وهذا لا يعنى أن الحَجْرَة التي تم سحقها بكل عناية ودقة فقدت
وجودها بل تطايرت فاتسعت دائرة انتشارها جغرافيا وقد لا تخضع للمشاهد
بالعين المجردة. وهكذا كلمة الوقود (البنزين) ذات مدلول يشاهد وبها يتم
امتلاء خزان الوقود سواء للطائرة أو للسيارة أو البواخر وكل ما يتحرك
بالوقود، وبعد قطع مسافات ينفذ وينتهي الوقود (البنزين) من الخزان من
خلال عمليات الاحتراق التي غيَّرت الشكل أو الهيئة التي كان عليها الوقود.
فأين البنزين الذي نفذ؟ إنه موجود في عالم الوجود ولكن لم يعد على شكله
السابق حيث احتراقه وفقدان عناصره الرئيسة وتبدُّله إلى شيء آخر قد
يصفه البعض بأنه على حالة هيولية (حالة تغيَّر عناصره وتطاير قد لا
يشاهد بالعين المجردة مع أنَّه يدرك بالملاحظة والمعرفة العلمية).

بالقدرة جعل القادر عزَّ وجلَّ (الكلمة الحُجَّة مفعوله).

الكلمة المفعولة تحتوي معطيات تنفيذها فيها.

ولذا فهي تختلف عن الكلمة التي تسبق أداء الفعل أو القيام به.

ولهذا فالكلمة المفعولة تستثني الفعل الماضي والمستقبل وتتمركز على الفعل الآن (الحاضر).

إنّما الكلمة المثبتة عن واقع، ولذا فالفعل في زمن وقوعه أقوى وأصدق من الكلمة التي تسبق حدوثه.

والقاعدة هي:

1 . الكلمة تحتوي فعل ممارستها.

2 . الفعل يحمل الكلمة التي تدل عليه.

3 . الفعل يسبق الكلمة في الظروف المفاجئة.

والاستثناء هو:

1 . الكلمة لا تحمل فعل ممارستها.

2 . الفعل لا يحمل الكلمة التي تدل عليه.

3 . الفعل لا يسبق الكلمة في الظروف المفاجئة.

ولهذا عندما يسبق الفعل القول، تصبح الكلمة مفعولة، كالزلزلة التي يفاجئ بها الناس وتحدث دماراً، فهي الفعل بدون سابق معرفة أو إنذار، وفي هذه الحالة الفعل يسبق القول، وفي هذا الأمر يقول الله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا يَوْمَئِذٍ تُخْبِرُهَا أَنَّ رَبَّكَ أَوْحَاهَا﴾. من هذه السورة الكريمة عرفنا أن الزلزلة فعل حدث أولاً، ثم جاء الناس من بعد ذلك يتساءلون: ما الأمر؟ ماذا حدث؟

(مالها). بعدها يقال لهم إنها هزة أرضية شديدة. وهكذا في حالة الصواعق التي تصيب البشر أو المباني أو الأشجار، فهي تحدث أولاً (وقوع الفعل أو حدوثه)، ويأتي الناس من بعدها يتساءلون بعد أن وجدوا الأثر أو وقفوا عليه، وحينها سيقال لهم السر الذي كان وراء ما حدث.

وعليه:

- . حدّد أولويات الحديث لتتمكّن من تحقيق الأهداف.
- . تكلم بوضوح لتتمكّن من استبصار الغايات.
- . اجعل لكلماتك معنى ودلالة لتجد من ينصت لما تقول.
- . تأكد من أنّ أفكارك تنساب بمرونة ومع وافر الحجّة.
- . اجعل أفكارك عند قولها منطقية ومتتابعة.
- . كن مرناً حتى تترك أثراً في الآخر.
- . أجعل أفكارك وكلماتك تطلّعية لتُسهم في صناعة المستقبل.

4 - إسماعيل رسول نبي:

يقول العليم الخبير عن عبده إسماعيل: {وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا} 731.

من هذا يتبيّن أنّ إسماعيل كان:

رسول.

نبي.

قبل البدء بالحديث عن رسالة إسماعيل نتوقف مع بعض ما اتفق عليه علماء العقيدة عن الفرق بين النبي والرّسول:

- الرّسول هو الذي حُدث وأرسل.

- والنّبي هو الذي لم يرسل ولكنّه ألهم أو رأى في النّوم.

- وإنّ كل رسول نبي، وليس كل نبي رسولا.

- أنّ اشتقاق لفظ النبي أمّا من النّبأ وهو الخبرّ

وذكروا في الفرق بين الرّسول والنبي أموراً منها:

- أنّ الرّسول من الأنبياء من، جمع إلى المعجزة الكتاب المنزل عليه.

والنبي غير الرّسول من لم ينزل عليه كتاب، وإنما أمر أن يدعو إلى كتاب من قبله.

- أنّ من كان صاحب المعجزة وصاحب الكتاب ونسخ شرع من قبله فهو الرّسول، ومن لم يكن مستجمعا لهذه الخصال فهو النبي غير الرّسول.

- أنّ من، جاءه الملك ظاهرا وأمره بدعوة الخلق فهو الرّسول، ومن لم يكن كذلك بل رأى في النوم كونه رسولا، أو أخبره أحد من الملائكة بأنه رسول الله، فهو النبي الذي لا يكون رسولا⁷³².

كما قال بعض المفسرين عن رسالة إسماعيل: "(وَكَانَ رَسُولا نَبِيًّا) قالوا هنا: إنّ فيه دلالة على أنّ الرّسول لا يجب أن يكون صاحب شريعة مستقلة فإنّ أولاد إبراهيم عليهم السّلام كانوا على شريعته وقد اشتهر خلافه بل اشترط بعضهم فيه أن يكون صاحب كتاب أيضا والحقّ أنه ليس بلازم، وقيل: إنّ المراد بكونه صاحب شريعة أن يكون له شريعة بالنسبة إلى

732 - تفسير الرازي، ج 11، ص 133.

المبعوث إليهم وإسماعيل عليه السّلام كذلك لأنه بعث إلى، جرهم بشريعة أبيه ولم يبعث إبراهيم عليه السّلام إليهم ولا يخفى ما فيه "733.

من ذلك كله نطلق إلى بيان تفصيل رسالة إسماعيل بتساؤلات الآتية:

لمن كانت الرسالة؟

هل كانت بكتاب أو صحف أو ألواح؟

كيف يكون إسماعيل رسولا وأبوه إبراهيم رسول له صحف في زمن واحد؟

لمن كانت الدعوة:

بما أنّه رسول فلا بدّ أن كانت له رسالة يدعو النّاس إليها، فما هي هذه الرسالة.

لقد ذكرت المصادر على اختلاف أنواعها أن قدامى العرب دانوا بدين إبراهيم وإسماعيل وهو الحنفية وهذه اسم مؤكّد مللة من تبع رسالة إبراهيم وإسماعيل عليهما الصّلاة والسّلام مصداقا لقوله تعالى: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} 734.

وإذا كانت الآية تتحدث عن إبراهيم فإن آية أخرى، جمعت مع إبراهيم ابنه إسماعيل وإسحاق، يقول الحقّ سبحانه: {قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَنْتُمْ أَعْلَمُ

733 - تفسير الألويسي، ج 12، ص 13.

734 - آل عمران 67.

أَمَّ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةَ عِنْدَهُ مِنْ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا
تَعْمَلُونَ {735}.

لقد تكفل إسماعيل بأداء رسالته لمن خصهم الله بهذه الرسالة من الأقوام
المستهدفة بالتبليغ فكانت رسالته "في العرب الأوائل وهو، جدهم الكبير.
وقد كان في العرب موحدون أفراد قبيل الرسالة المحمدية، فالأرجح أنهم بقية
الموحدين من أتباع إسماعيل" 736.

ومن الأمور التي توجب الأهمية ذكرها في هذا الموضوع أن الحنفية لم تظهر
آثارها إلا في شبه الجزيرة العربية، ونقول آثارها أي قلة من بقية أتباع هذه
الحنفية من الذين حضروا رسالة محمد النبي الرسول الخاتم صلى الله عليه
وسلم، بل وبقية مما في صحف إبراهيم ولو على سبيل المناقلة الشفوية لا
الأثر المكتوب، هنا نصل إلى التساؤل الثاني الذي طرحناه:

هل كانت رسالة إسماعيل بكتاب أو صحف أو ألواح؟

هناك أمور يجب تقريرها وهي:

- إنَّ الرُّسُلَ عَمُومًا يُوحِي اللَّهُ إِلَيْهِمْ مَا يَرِيدُ أَنْ يَبْلُغَ بِهِ النَّاسَ مَصْدَاقًا
لِقَوْلِهِ تَعَالَى: { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا
أَنَا فَاعْبُدُونِ } {737}.

- إنَّ وحي الله لإسماعيل هو على درجة واحدة من وحيه لرسول الكتب
السمائية، مصداقا لقوله تعالى: { إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحِ

735 - البقرة 139، 140.

736 - في ظلال القرآن، ج 5، ص 101.

737 - الأنبياء 25.

وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ
وَعِيسَىٰ وَيُوشَعَ وَدَاوُدَ زُورًا {738}.

انتبه المفسرون إلى ما في الآية من ذكر لأنبياء ورسول وتنبه بعضهم إلى
المغايرة بين النبي والرسول، ولم يختلف العلماء في أنّ الرّسل والأنبياء يُوحى
إليهم.

وأما اختلفت عباراتهم في معنى الرّسول والنبي. ففي كلام، جماعة من
علمائنا لا نجد تفرقة، وأنّ كلّ نبيء فهو رسول لأنّه يوحى إليه بما لا يخلو
من تبليغه ولو إلى أهل بيته.

وقد يكون حال الرّسول مبتدأ بنبّة ثمّ يعقبها إرساله، فتلك النبوة تمهيد
الرسالة كما كان أمر مبدأ الوحي إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فإنّه
أخبر أهله، ونزل عليه قوله تعالى: {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ} {739}.

والقول الصحيح أنّ الرّسول أخصّ، وهو من أوحى إليه مع الأمر
بالتبليغ، والنبي لا يؤمر بالتبليغ وإن كان قد يبلغ على وجه الأمر بالمعروف
والدّعاء للخير، يعني بدون إنذار وتبشير {740}.

ونحن نقول إن هذه الآية تحتل عدة أمور منها:

- أن يكون لكل هؤلاء المذكورين من الرّسل المصطفين كتب.

- أن لا يكون لجميعهم كتب.

- أن يكون لبعضهم كتب وبعضهم لم يكن له كتاب.

738 - النساء 163.

739 - الشعراء 214.

740 - تفسير ابن عاشور، ج 4، ص 89.

واضح أنّ الاحتمالين الأوّل والثاني لا يتفقان مع المعطيات القائمة لأننا لم نعرف فيما نعرف مثلاً أنّ يعقوب له كتاب هذا بالنسبة لنفي الاحتمال الأوّل، أمّا نفي الثاني (ألا يكون لجميعهم كتب) فواضح من خلال وجود كتب التوراة والزّبور والإنجيل والقران.

بقي الاحتمال الثالث وهو (أن يكون لبعضهم كتب وبعضهم لم يكن له كتاب) وهذا هو الواقع كما نعلم، هنا يأتي التساؤل:

لماذا إذا اجتمعوا في مقام واحد؟

الجواب على ذلك هو أن المقصود هنا ليس مقام الكتب السماوية، بل فعل الوحي الإلهي لهؤلاء وعلى ذلك فكل المذكورين في الآية على درجة واحدة في تلقي الوحي الإلهي، ولو عدنا إلى القرآن الكريم كلام الله الموحى إلى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وتتبعنا مراحل وحيه نصل إلى حقيقة أنّه لم ينزل مكتوباً وإنما نزل وحيًا محفوظاً على الرسول الأكرم وإنما تمت كتابته فيما بعد بسبب خوف المسلمين على ما، جاءهم من هدى، وقد ينزل الوحي مكتوباً كما تشير الآيات الواردة عن بعض ما نزل من التوراة مصداقاً لقوله تعالى: { وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ } 741.

فالوحي ينزل مكتوباً كما في ألواح موسى أو ملفوظاً كما في قرآن محمد صلوات الله وسلامه عليهم إلا أنّ الوحي يبقى من الله.

الذي نريد أن نقوله هو أنّ وحي الله هو لا درجات فيه.

تجعل بعضه أفضل ليدون وبعضه أقل (حاشا لله) ليترك، فكل ما أوحى إلى النبيين والرسل واجبه التدوين في الصدور قبل السطور ثم العمل به منهجا وسلوكا لذلك نعتقد أن قاعدة، جديدة يمكن أن تؤسس على ذلك هي:

كل الرسل أوحى الله لهم وحيًا على درجة واحدة من الأهمية لأن الوحي من الله مع إقرارنا باختلاف كم هذا الوحي من رسول إلى آخر، وأن ما جاء في وحي الله لإسماعيل هو بنفس مرتبة ما، جاء من وحي على محمد صلى الله عليه وسلم، إذا لم يكن هو ذاته مع تغير في صيغ التعبير من قوم لآخر تبعًا للسانهم مصداقًا لقوله تعالى: { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } 742.

هنا وبعد هذه الحجة الإلهية نصل إلى عدة حقائق منها:

- الموحى واحد (الله، جلّ، جلاله).

- الوحي واحد.

- الموحى إليه متعدد.

- التبليغ متنوع.

وإذا أردنا تأكيد هذه الحقائق نقول إنّ الموحى إليه (الإنسان) متغير لذلك فإن من الطبيعي أن تتغير طريقة الوحي (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ)، أمّا الموحى فهو الله عزّ وجلّ لا يتغير وحيه وذلك لأنّه الواحد، وهو الموجب لبقاء المطلق، ومعنى الواحد يعني التفرد في الذات أو الصفة، والله واحد أي أنّ ذاته منفردة عن المثل والشبه.

والواحد واحد في ذاته واحد في صفاته واحد في أفعاله، وهو الواحد في أقواله، ويشمل القول المضمون والرسم، فعلى سبيل المضمون فإنّ أقوال الواحد هي المنهاج والشرع الذي يصلح لكل زمان وكل مكان، لما فيه من رؤية العارف بأحوال البشر، المحصي لقدراتهم، المطلع على أسرارهم، القادر على سماعهم، والقوي على حاجاتهم، الشاكر لطاعتهم، والقاهر لغرورهم. فنهجه واحد لأنه من الواحد عزّ وجلّ، فكل الألواح والصحف والكتب التي أرسل الواحد سبحانه الرّسل والأنبياء منذرين ومبشرين بها حملت في طياتها مضمونا واحدا، بدءا من صحف إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، {صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى} 743، إلى قرآن محمد: {وَإِنَّكَ لَتَلَقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ} 744، فصحف إبراهيم صلى الله عليه وسلّم فيها من قرآن محمد صلى الله عليه وسلّم، وقرآن محمد فيه من صحف إبراهيم لأتّهما يمثلان القول الثابت من الواحد سبحانه وتعالى: {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ} 745، ولكن ما يختلف فيه أنّ القرآن هو خاتم الكتب لأنّ محمد صلى الله عليه وسلّم خاتم الرّسل ممّا يفضي ولا بدّ إلى أن يكون القرآن مفصلا وجامعا لكل المضامين التي يريدّها الواحد، جلّ وعلا، {وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ} 746، وأن يكون محمد صلى الله عليه وسلّم للعالمين، {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} 747، فمضمون القول واحد لانّ الموحى واحد وباقي وقيوم ودائم هو الله فكان لرأما أن

743 - الأعلى 19.

744 - النمل 6.

745 - إبراهيم 27.

746 - يونس 37.

747 - الأنبياء 107.

يكون المضمون واحداً، ولو كان من غير الله لوجد من يقرأ هذا القول
اختلافاً كبيراً، {أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ
اِخْتِلَافًا كَثِيرًا} 748.

أما المتلقي فمتغير وبناءً على تغييره هذا أصدر أحكاماً متغيرة، تتمثل
بالإيمان من فريق والكفر من فريق آخر، فأما الكفر فمصدره الادعاء
بالاختلاف، فكل رسول يرسل إلى قوم يواجهه الكفار بالرفض لأنه يغير ما
يعرفون من عقائد، مما يدفعهم إلى التكذيب والكفر، {كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ
بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ} 749، ولم يختلف التكذيب
بين المشركين والمؤمنين، فعندما بعث الله سيدنا إبراهيم إلى قومه ممن كانوا
يعبدون الأوثان من المشركين كذبوه، {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِأبيه
وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُ لَهَا عَافِيَةً قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ
إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ قَالَ
أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ
الْعَالَمِينَ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ
فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ
الدِّينِ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِّي بِالصَّالِحِينَ} 750، وعندما بعث الله
عيسى بعد موسى كذبه اليهود من كانوا يؤمنون بالله الواحد القهار، {وَلَقَدْ
آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَوَقَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ
وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ
فَفَرِّقِي كَذَّبْتُمْ وَفَرِّقِي تَفْتُلُونَ} 751، بل اختلف المؤمنون من اليهود
والنصارى أكثر من ذلك إلى حد نفى كل منهم شريعة الآخر عندما وصفها

748 - النساء 82.

749 - المائدة 70.

750 - الشعراء 69-83.

751 - البقرة 87.

بما لا يليق بها وكما يخبرنا العليم الخبير، جلّ في علاه: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} 752، واضحة هي دلالة الإطلاق في الآية أي عموم اليهود وعموم النصارى وهم من ينطبق عليهم الاختلاف في الواحد وهو ما يؤكد قوله تعالى: (وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ)، "فالواو للحال، والكتاب للجنس. أي قالوا ذلك وحالهم أنهم من أهل العلوم والتلاوة للكتب، وحقّ من حمل التوراة أو الإنجيل أو غيرها من كتب الله وآمن به أن لا يكفر بالباقي لأنّ كل واحد من الكتابين مصدق للثاني شاهد لصحته، فإنّ التوراة مصدقة بعيسى عليه السّلام، والإنجيل مصدق بموسى عليه السّلام" 753.

وكذلك الأمر بالنسبة لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فقد واجه الرفض من المؤمنين من اليهود والنصارى على حد سواء، {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ وَذَتْ طَائِفَةٌ

752 - البقرة 113.

753 - تفسير الرازي، ج 2، ص 291.

مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ يَا أَهْلَ
الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ {754.

واختلاف المؤمنين في الواحد ما هو إلا بسبب المتغير الذهني الحاصل
لديهم مع عجز عن إدراك حقيقة وحدة المضمون لقائل واحد سبحانه
وتعالى عما يشركون هو رب العالمين، {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ
الرَّحِيمِ} {755.

وعليه: فإنّ الذي أوحى إلى إسماعيل صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو في
مضمونه من نفس ما أوحى إلى النبيين والرسل مع اختلاف في كم الموحى
تبعاً لمتطلبات عصر الذين أوحى إليهم، واختلاف بلغة الوحي مع وحدة
المضمون لكي يفقه الناس ما لهم وما عليهم، وتبقى مسألة تدوين الوحي
مقرونة بإرادة الله عزّ وجلّ وبالمؤمنين الذين يتبعون ما يوحى إليهم.

5-رسالة إسماعيل:

والسؤال:

كيف يكون إسماعيل رسولا وأبوه إبراهيم رسول له صحف في الوقت
ذاته؟

أي كيف يكون هناك رسالتان في آن واحد؟

نقول: إنّ المسألة تتعلق بإرادة الله عزّ وجلّ أولاً وبالمستهدفين بالرسالة
ثانياً، فالله عزّ وجلّ يفعل ما يراه خيراً للعباد لأنّه عليم خبير بهم.

والمستهدفون بالرسالة كل له خصوصية، فإذا كانت هذه الخصوصية
متباينة إلى حد كبير في الفهم أو السلوك أو اللسان استوجب الأمر أن

754 - آل عمران 64-70.

755 - الفاتحة 2،3.

يكون هناك أكثر من رسول أو أكثر من نبي، وهناك حقائق مهمة في هذا المجال نعتقد بأهمية الإشارة إليها هي:

يجوز أن يكون هناك أكثر من نبي في أكثر من موضع واحد في آن واحد، مثل يوسف في مصر ويعقوب في البدو.

يجوز أن يكون هناك أكثر من نبي في موضع واحد في آن واحد مثل إسحاق ويعقوب مصداقا لقوله تعالى: {فَلَمَّا اعْتَرَاهُمُ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا، جَعَلْنَا نَبِيًّا} 756.

يجوز أن يكون هناك أكثر من رسول في موضع واحد مثل موسى وهارون مصداقا لقوله تعالى: {فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى} 757.

يجوز أن يكون هناك أكثر من رسول في أكثر من موضع مثل إبراهيم وإسماعيل ولوط حيث إن لوطا رسول مصداقا لقوله تعالى: {وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ} 758، وكان إبراهيم في مكان ولوط في مكان آخر كما يجبرتنا العليم الخبير بقوله، جلّ في علاه: {وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ} 759، وإبراهيم وإسماعيل عليهما الصلوة والسلام مصداقا لقوله تعالى: (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ دَرِّيْتِي بَوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ).

756 - مريم 49.

757 - طه 47.

758 - الصافات 133.

759 - العنكبوت 31-32.

يجوز أن يكون هناك نبي ورسول في موضع واحد مثل عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا، وداود وسليمان لقوله تعالى: {وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ} 760.

يجوز أن يكون هناك نبي ورسول في موضعين مختلفين مثل موسى وشعيب.

لا يمكن أن يكون أكثر من رسول للكافة في آن واحد، فمحمّد رسول الكافة، ورسول الكافة لا يأتي معه نبي ولا رسول ولا يأتي من بعده كذلك برسالة أو نبأ، جديد، أمّا عيسى فلن ينزل إلا مصدقا برسالة الكافة.

وبالنسب لرسول الكافة فهو أمّا:

أ- كافة في دائرة المطلق وهو الذي لا يرسل إلى قوم بعينهم

ب- كافة في دائرة النسبية وهو الذي يرسل إلى قومه فقط.

نصل إلى الحديث عن مضامين رسالة إسماعيل، والاعتقاد الذي يرسخ لدينا هو أن مضامين رسالة إسماعيل هي نفس مضامين رسالة إبراهيم لكن بلسان آخر (لغة أخرى)، ويؤكد ذلك ما أقره علماء اللغة من اختلاف لغتي أهل الشام وفلسطين على وجه التحديد عن لسان أهل مكة وما حولها مع التأكيد على أنّ تلك الشعوب كانت مستهدفة بالرسالة في وقت واحد، لذا، تطلب أن يكون الوحي بأكثر من لسان مصدقا لقوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ).

لذا، نعتقد أنّ إسماعيل كان رسولا للعربّ الذين سكنوا مكة وما حولها ورسالته استهدفتهم بالبلاغ بلسانهم، أمّا إبراهيم فكان في بلاد الشام وفي فلسطين على وجه التحديد ورسالته لأهلها بلسانهم.

6 - عابد داعي إلى الله:

قال تعالى: { وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ } 761.

لا شك أنّ الآية تبين في سياقها المباشر حقيقة أنّ إسماعيل كان يدعو أهله إلى أداء العبادات وهذا لا يتأتى له دون أن يكون هو أسوة لهم في أداء تلك العبادات، أمّا لفظة أهله فلا يقصد بها أهله المقربون بل كل أهل رسالته من أتباعه حيث إن لفظة أهل تطلق على ما يراد لها، فقولنا أهل البيت يعني من يسكن البيت ولا شرط للنسب في ذلك، وأهل الملة هم أتباع تلم الملة من غير قيد النسب.

كما يمكن أن يكون سبب اختصاص الأهل في الآية "اشتغالا بالأهم وهو أن يُقبل الرجل بالأكمل على نفسه من هو أقرب الناس إليه قال تعالى: (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) (وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ)، وقصد إلى تكميل الكل بتكميلهم لأنهم قدوة يؤتسى بهم، وقيل: أهله أمته فإنّ الأنبياء عليهم السلام آباء الأمم" 762.

7 - مرضى عنه:

يقول الحقّ، جلّ وعلا: { وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا } 763.

761 مريم 55.

762 - تفسير الألوسي، ج 12، ص 14.

763 - مريم 55.

جاءت هذه الصفة على صيغة النكرة مما يشير إلى عموم شاء الله أن يكون مدلول هذه الصفة، وإذا بحثنا في طبيعة هذا العموم نصل إلى أمرين هما:

أن يكون مرضيا عند الله عزّ وجلّ وهذا لا خلاف حول من أطاع أمر ذبحه ابتغاء مرضاة الله عزّ وجلّ لا بدّ أن يكون على درجة من الإيمان الخالص مما يؤهله إلى درجة الرضا الإلهي وهذا ليس مقصورا على إسماعيل بل على كل يجعل الإيمان شعاره ودثاره فإن الرضا يحصل برّحمة من الله العزيز القدير الذي يقول مخبرا عن مرضي عنهم: {قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} 764.

وهو عند الله مرضي في الأقوال والأفعال والأحوال، مرضي من الناس أي تتقبله النفوس فلا تنكره ولا تنفر عنه 765.

والحق أنّ من كانت صفاته كهذه الصفات التي ذكرها الله له ونبحت نحن فيها لا بدّ أن يكن مرضيا عند الناس لأنّ الرّسل غايتهم خير ورسالتهم خير يستهدفون بها إصلاح أحوال الناس ممّن يقصدون بلاغهم فيخرجوهم من الظلمات إلى النور هذا يؤدّي بالتالي إلى رضا الناس على هؤلاء الرّسل صلوات الله وسلامه عليهم.

8 - من الأختيار:

يقول الحقّ، جلّ وعلا: {وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ} 766.

764 - المائة 119.

765 الفائق في غريب الحديث، ج 1، ص 11.

766 - ص 48.

وذكر الله عزّ وجلّ هؤلاء الأنبياء بأحسن الذكر، وأثنى عليهم أحسن الثناء، فإن كلا منهم من الأخيار الذين اختارهم الله من الخلق، واختار لهم أكمل الأحوال، من الأعمال، والأخلاق، والصفات الحميدة، والخصال السديدة767.

9 - مُفَضَّل:

يخبر المولى عزّ وجلّ عن إسماعيل وعدد من الأنبياء والرسل تفضيلهم على العالمين: {وَأِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ}768.

احتج القائلون بأنّ الأنبياء عليهم السّلام أفضل من الملائكة بقوله تعالى بعد ذكر هؤلاء عليهم السّلام: (وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ) وذلك لأنّ العالم اسم لكل موجود سوى الله تعالى، فيدخل في لفظ العالم الملائكة، فقوله تعالى: (وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ) يقتضي كونهم أفضل من كل العالمين. وذلك يقتضي كونهم أفضل من الملائكة، ومن الأحكام المستنبطة من هذه الآية: أنّ الأنبياء عليهم السّلام يجب أن يكونوا أفضل من كل الأولياء، لأنّ عموم قوله تعالى: (وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ) يوجب ذلك769.

ونقول في هذا الموضوع: إنّ حقيقة ربّما يغفل عنها البعض وهي: إنّ الله عزّ وجلّ فضل بني آدم عموماً على بقية المخلوقات، بل أكثر من ذلك فقد كرمهم المولى عزّ وجلّ مصداقاً لقوله تعالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ

767 - تفسير السعدي، ج 1، ص 715.

768 - الأنعام 86.

769 - تفسير الرازي، ج 6، ص 361.

فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا {770}.

لذلك؛ فالحديث عن نوع التفضيل يجب ألا ينص على تفضيل أجناس المخلوقات بعضها على بعض لان ذلك من القواعد الثابتة، بل يجب البحث في تفضيل المخلوق على المخلوق من، جنس واحد كأفضلية الجن المؤمن على الجن الكافر مثلا، وأفضلية الأنبياء والرسل على غيرهم من العباد وأفضلية نبي على نبي بما أخصه الله به ونحن لا نفرق بين أحد منهم، لأننا نعتقد أنّ من شأن ذلك تقديم السبيل للوصول إلى درجة الأفضل تنافسا إيماننا كما يحثنا عليه المولى عزّ وجلّ: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ {771}.

وإسماعيل مفضل من عدة، جوانب منها:

أ- إيمانه وصدق عقيدته.

ب- طاعته لله عزّ وجلّ.

ج - رسالته ونبوته.

د- نسبه نبوي.

وكثير ممّا لا نحصي وإنما قدمنا هذا القليل لنثير الفكر الباحث في الأفضلية.

770 - الإسراء 70.

771 - المطففين 26.

10 - صابِر:

من صفاته التي رابط عليها حتى صارت له وسما صفة الصبر فقد ذكره الله عز وجل في مقدمة الصابرين فقال، جلّ وعلا: {وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ} 772.

والصابر هو الذي لا تحمله العجلة على المسارعة إلى الفعل قبل أوانه بل ينزل الأمور بقدر معلوم ويجريها على سنن محدودة لا يؤخرها على آجالها المقدر لها تأخير متكاسل ولا يقدمها على أوقاتها تقديم مستعجل بل يودع كل شيء في أوانه على الوجه الذي يجب أن يكون وكما ينبغي وكل ذلك من غير مقاساة داع على مضادة الإرادة.

الصبر صفة للعبد تدل في معناها على التأي وتنفى صفة العجلة والتسرع.

وتكمن صفة القوة في الصبر، حيث أنه لا قوة بلا صبر، ولا صبر إلا عند قوي، فالصبر الحقيقي يكون متحدا وملازما للقوة، تلك القوة التي يحتاج إليها المؤمن ولاسيما الرسول في أداء الرسالة، بل هي وصية الله لرسله وأنبيائه، فقد أوصى بها موسى فقال عز من قائل: {وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَا حُذْوًا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ} 773، وكذلك أوصى يحيى: {يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا} 774.

والصبر يحتاج إلى قوة روحية يواجه بها الصابر أعظم البلاء، وهذا ما كان من إسماعيل في ساعة ترتعد فيها الفرائص قبل الأجساد هي ساعة الذبح

772 - الأنبياء 85.

773 - الأعراف 145.

774 - مريم 12.

فكان أن واجه ذلك بالصبر كما يخبر عن حاله العليم الخبير: (فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ).

دور إسماعيل في بناء البيت الحرام:

وصف الله عز وجلّ وصفا موحيا بالأهم من دور إسماعيل في رفع قواعد البيت، ونقول بالأهم لأنّ تفصيلات من مثل السعي وجمع الحجارة وتجهيز مواد البناء ليست من مقاصد رفع القواعد حتى يذكرها الله عز وجلّ، بل هي أمور رمزية قصد منها أن تكون علامة للمقاصد الحقيقية من البيت، فالكعبة هدمت وحرقت وغرقت مرات عديدة، ثم أعيد بنائها في مراحل كثيرة ومتعددة وهذا مهم بالنسبة للعقل المحكّم فهو يدل على أن الكعبة رمز، جعله الله ليبين للناس مناسكهم وما كتب عليهم من فرائض الدين، عليه نتساءل:

ما هو المهم الذي قام به إسماعيل مع أبيه إبراهيم

قبل البحث في هذا التساؤل نستدل ونستعين بقول الله تعالى: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} 775.

لقد شاء المفسرون أن يذكروا في تفسير هذه الآية ما يذكرون، يقول الرازي: قوله: وَإِذْ يَرْفَعُ حكاية حال ماضية والقواعد، جمع قاعدة وهي الأساس، والأصل لما فوقه، وهي صفة غالبية، ومعناها الثابتة، ومنه أقعدك الله، أي؛ أسأل الله أن يقعدك أي يثبتك ورفع الأساس البناء عليها، لأنها إذا بني عليها نقلت عن هيئة الانخفاض إلى هيئة الارتفاع وتناولت بعد التقاصر ويجوز أن يكون المراد بها سافات البناء لأنّ كل ساف قاعدة للذي

يبني عليه ويوضع فوقه، ومعنى رفع القواعد رفعها بالبناء لأنه إذا وضع سافا فوق ساف فقد رفع السافات. والأكثر من أهل الأخبار على أنّ هذا البيت كان موجودا قبل إبراهيم عليه السلام على ما روينا من الأحاديث فيه واحتجوا بقوله: (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ) فإن هذا صريح في أنّ تلك القواعد كانت موجودة متهدمة إلا أنّ إبراهيم عليه السلام رفعها وعمرها 776.

هذا التفسير وغيره يذهب إلى تأويل يبرّر رفع القواعد في بناء البيت، لأنّ المنطق يقول أن قواعد البناء لا ترفع وإنما تكون أصل كل بناء ويرفع غيرها لذلك نرى المفسرين يذهبون إلى التأويل في هذه المسألة لتبرير رفع ما هو أركز في الأرض وهو أساس البناء.

ولا ننسى أنّ النص إذا أخذناه على هذا المعنى المادي فقط فإنه يوحي بأنّ إبراهيم وإسماعيل رفعا قواعد البيت، فالبيت بلا قواعد وهو أمر غير معقول.

أمّا نحن فنعتقد أنه يمكن أن نحلل بالأدلة هذه الآية لتبين دور إسماعيل صلّى الله عليه وسلّم في رفع قواعد البيت.

نقول: إنّ النص يحتمل أن يكون المقصود هو رفع قواعد التعبد إلى درجة الفعل لاسيما أنّهما أتبعوا ذلك بدعوة الله عزّ وجلّ هي (رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) وهذا الدعاء يدل على عمل خالص لله هو رفع القواعد من البيت فهذا عبادة كذلك إقامة المناسك وتعليمها للناس.

أمّا كيف نفسر قوله (من البيت) نقول: أي أنّ العبادة تبدأ من البيت وهكذا الحلّ في الحج والعمرة، أول التعبد بعد النية يبدأ بالطواف حول البيت ثمّ إكمال بقية المناسك، ويدل على ذلك قوله تعالى: {وَإِذْ، جَعَلْنَا

الْبَيْتِ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا وَانْخَدُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ {777}.

وقد عهد الله - صاحب البيت إلى عبدين من عباده صالحين أن يقوموا بتطهيره وإعداده للطائفين والعاكفين والركع السجود أي للحجاج الوافدين عليه، وأهله العاكفين فيه، والذين يصلون فيه ويركعون ويسجدون فحتى إبراهيم وإسماعيل لم يكن البيت ملكا لهما، فيورث بالنسب عنهما، إنما كانا سادنين له بأمر ربهما.

11 . مبتلي :

شاء الله عزّ وجلّ أن يكون الاصطفاء مشفوعا بالابتلاء، فلا يكاد يُذكر نبي أو رسول إلا ذكر بلاؤه معه ونذكر بعض الأمثلة:

- ابتلاء إبراهيم (إِنَّ هَذَا هُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ)

- ابتلاء يعقوب {وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِيسَىٰ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ} 778

- ابتلاء أيوب {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} 779

ونعتقد أنّ هذا حقّ، لأنّ الاصطفاء هو تفضيل مخصوص من الله عزّ وجلّ لعبد من العباد على بقية البشر وهذه درجة علو تقرب العبد من الله عزّ وجلّ ممّا، جعلها أمنية المخلصين من العباد، فهي نوع من أنواع الثواب

777- البقرة 125.

778 - يوسف 84.

779 - الأنبياء 83.

في الدنيا قبل الآخر هذا كله يجعل الابتلاء، جلاءً لصدق المصطفين من العباد، هنا يأتي التساؤل:

ألا يعلم الله عزّ وجلّ صدقهم لبيتليهم؟

نقول: إنّ الله يعلم السر وأخفى لكن هذا كله بمثابة اطلاع العبد على علم الله في الاصطفاء، حيث إنّ الله يريد أن يخبرنا نحن أنّه اصطفى هؤلاء المصطفين الأخير وهو يعلم صدقهم ودليل ذلك فعلهم عند البلاء، إن هذا الدرس فيه أعظم الآيات على علم الله المطلق، وإلا من ذا الذي يقدر على أن يذبح ابنا له؟

ومن الابن الذي ينقاد إلى مكان ذبحه راضيا طاعات مقبلا غير مدبرّ إلا مصطفى مختار مثل إسماعيل صلّى الله عليه وسلّم مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ رَبُّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقَتِ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّ هَذَا هُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ} 780.

هذه الآيات فيها توضيح لكيفية مواجهة إبراهيم لبلائه وقد اشرنا إلى ذلك فيما سبق، ونريد الآن الحديث عن صبرّ إسماعيل على بلاءه، حيث واجه ذلك بقوة العقيدة ويدل عليها عدة أمور منها.

- طاعة مطلقة من إسماعيل لأمر الله عزّ وجلّ.

- صبرٌ على البلاء.

- البرّ الخالص من الابن للأب.

- صدق خالص.

- شجاعة في الحقّ ورباط عليه.

والواضح من الآيات أنّ إسماعيل استمع إلى حديث يدور عن رؤيا في منام { يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ } 781، والمسألة تتطلب افتراضات هي:

- أن يكون إسماعيل يعلم أن رؤيا الأنبياء حقّ فقط.

- أن يكون لا يعلم ذلك.

- أو أن يكون إبراهيم أخبر ابنه بتفاصيل دقيقة عن كل هذا البلاء.

ويحتمل الأمر أن إسماعيل لم يكن لديه علم مسبق وأن هذه أول مرة يستمع فيها لهذا الأمر، ويدل على ذلك الخطاب التالي لإبراهيم (فَانظُرْ مَاذَا تَرَى)؛ فهو لم يكن قد رأى من قبل في الأمر شيئا، لذلك كان خطاب إبراهيم من غير قسرا ولا، جبرًا بل كان أقرب إلى الاختيار، وهذا الاختيار بين طاعة أمر الله ورسوله وبين العصيان هو بلاء بحد ذاته لاسيما في موضوع كهذا، وهنا وجب التنويه أن إسماعيل يعلم أن أبيه إبراهيم رسول الله وطاعته واجبة، فما كان موقف إسماعيل من هذا البلاء؟

لقد اختار إسماعيل طاعة الله ورسوله بالمطلق، ونقول بالمطلق لأنها طاعة كانت ستؤدّي به إلى الموت إن هي تمت كما كان ظاهر الأمر، ونقول ظاهر الأمر: لأنّ الله عزّ وجلّ ما كان يريد أن يذبح إسماعيل، بل كان يريد له أن يعيش ليكون نبيا رسولا يؤدّي الرسالة التي كلف بها ويُسأل عنها

ويشهد لمن تبعه من الناس بالطاعة إن أطاعوا وبالكفر إن كفروا مصداقا
لقول الحق، جلّ وعلا: {وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ
كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ} 782.

النبي

إسماعيل من السنّة

النبي إسماعيل هو ابن النبي إبراهيم عليهما الصلّاة والسّلام، وأمّه السيدة هاجر، وقد هاجر إبراهيم من العراق إلى الأرض المقدسة فلسطين، وفي الطريق استقر لوط في سدوم ليدعو قومها إلى عبادة الله تعالى، واستقر إبراهيم ومن معه في مدينة الخليل بفلسطين. وبعد مولد إسماعيل من هاجر، جاء الأمر الإلهي للنبي إبراهيم بأن يأخذ هاجر والمولود إسماعيل إلى الأرض المقدسة، فسار بهما تجاه الجزيرة العربيّة، حتى وصلوا إلى أرض قاحلة، فجاء الأمر الإلهي بأنّ هذه الأرض هي الأرض المقدسة، وأنّ المستقر هنا، فاستودع إبراهيم زوجته وابنه الله الذي لا تضيع الودائع عنده، ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ {783}.

ترك إبراهيم زوجته وابنه ومعهم شيء من الماء والزاد، ولا راعي لهما إلّا الله، ومن هنا المعجزات تتنزل، ومن ثمّ بدأت القصة المشهورة وهي سعي هاجر بين الصفا والمروة سعيا وبحثا عن الماء، حتى أكرمها الله تعالى بأنّ فجر الماء عند مرقد الطفل إسماعيل وأمّه، فكانت زمزم بئر يزم ماء، وبدأت القوافل تنزل عندهم، ويقال أنّ قبيلة جرهم اليمنية أوّل نازل عندهم، التي أكرمت هاجر وإسماعيل، ومن هناك تعلّم إسماعيل اللسان اليمني العربيّ.

أوصاف إسماعيل الخلقية والخلقية:

عَنْ كَعْبٍ، قَالَ: "كَانَ إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ نَبِيَّ اللَّهِ الَّذِي سَمَّاهُ صَادِقَ الْوَعْدِ، كَانَ رَجُلًا فِيهِ حِدَّةٌ، يُجَاهِدُ أَعْدَاءَ اللَّهِ، وَيُعْطِيهِ اللَّهُ النَّصْرَ عَلَيْهِمْ وَالظَّفَرَ، وَكَانَ شَدِيدَ الْحَرْبِ عَلَى الْكُفَّارِ، لَا يَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ، صَغِيرَ الرَّأْسِ، غَلِيظَ الْعُنُقِ، طَوِيلَ الْيَدَيْنِ وَالرِّجْلَيْنِ، يَضْرِبُ بِيَدَيْهِ رُكْبَتَيْهِ، وَهُوَ قَائِمٌ صَغِيرَ الْعَيْنَيْنِ، طَوِيلَ الْأَنْفِ، عَرِيضَ الْكَتِفِ، طَوِيلَ الْأَصَابِعِ، بَارِزَ الْخُلُقِ، قَوِيٌّ شَدِيدٌ عَنِيفٌ عَلَى الْكُفَّارِ، وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا.

قَالَ: وَكَانَتْ زَكَاتُهُ الْفُرْبَانُ إِلَى اللَّهِ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَكَانَ لَا يَعِدُ أَحَدًا شَيْئًا إِلَّا أَنْجَزَهُ؛ فَسَمَّاهُ اللَّهُ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا"784. قَالَ تَعَالَى: {وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا}785.

وعن عَمْرُو بْنِ الْحَارِثِ، أَنَّ سَهْلَ بْنَ عَقِيلٍ حَدَّثَهُ: "أَنَّ إِسْمَاعِيلَ النَّبِيَّ وَعَدَ رَجُلًا مَكَانًا أَنْ يَأْتِيَهُ فَجَاءَ، وَنَسِيَ الرَّجُلُ؛ فَظَلَّ بِهِ إِسْمَاعِيلُ وَبَاتَ حَتَّى جَاءَ الرَّجُلُ مِنَ الْعَدُوِّ؛ فَقَالَ: مَا بَرِحْتَ مِنْ هَاهُنَا؟ قَالَ: لَا، قَالَ: (لَمْ أَكُنْ لِأَبْرَحَ حَتَّى تَأْتِي فَبَدَلِكَ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ"786.

إذن هناك صفات خلقية وهي كما جاءت في الحديث، وهناك صفات خلقية وبها إسماعيل قد تميّز، ومنها:

1. صادق الوعد، حتى سمي به خُلُقًا، (وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ)، وجاء وصفه في الحديث السابق بأنه: (أَنَّ إِسْمَاعِيلَ

784 المستدرک علی الصحیحین للحاکم، 2، ص 603.

785 مریم 54، 55.

786 الجامع لابن وهب ت مصطفى أبو الخير، ص 638.

النَّبِيِّ وَعَدَ رَجُلًا مَكَانًا أَنْ يَأْتِيَهُ فَجَاءَ، وَنَسِيَ الرَّجُلُ؛ فَظَلَّ بِهِ إِسْمَاعِيلُ وَبَاتَ حَتَّى جَاءَ الرَّجُلُ مِنَ الْعَدُوِّ؛ فَقَالَ: مَا بَرِحْتَ مِنْ هَاهُنَا؟ قَالَ: لَا، قَالَ: (لَمْ أَكُنْ لِأَبْرَحَ حَتَّى تَأْتِي فَبَدَلِكَ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ"787).

2. رجل وفيه حدة.

3. مجاهد، (يُجَاهِدُ أَعْدَاءَ اللَّهِ).

4. ظافر، (وَيُعْطِيهِ اللَّهُ النَّصْرَ عَلَى الْأَعْدَاءِ وَالظُّفْرَ).

5. داعية، (يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ).

6. مرضيا، (وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا).

7. رسول، (وَكَانَ رَسُولًا).

8. نبي، (وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا).

عن أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ: (يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، عَلَيْكَ بِطَرِيقِ قَوْمٍ إِذَا فَرَعَ النَّاسَ أَمِنُوا، قُلْتُ: مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: هُمْ قَوْمٌ تَرَكُوا الدُّنْيَا فَلَمْ يَكُنْ فِي قُلُوبِهِمْ مَا يَشْعَلُهُمْ عَنِ اللَّهِ، قَدْ أَجْهَدُوا أَبْدَانَهُمْ، وَذَبَحُوا أَنْفُسَهُمْ فِي طَلَبِ رِضَا اللَّهِ، فَتَاهِيكَ بِهِ فَضِيلَةٌ وَرُفَى لِمَنْ قَضَى بِالْحَقِّ فِي عِبَادِهِ؛ إِذْ جَعَلَهُ ذَبِيحَ الْحَقِّ امْتِحَانًا؛ لِتَعْظُمَ لَهُ الْمَثُوبَةُ امْتِحَانًا، وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ قِصَّةَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْلُهُ: ﴿يَا بُيَّيْ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾788، فَإِذَا جَعَلَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ فِي تَسْلِيمِهِ لِدَبْحِ وَلَدِهِ مُصَدِّقًا؛ فَقَدْ جَعَلَ ابْنَهُ لَأَسْتِسْلَامِهِ لَلدَّبْحِ ذَبِيحًا، وَلِذَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: أَنَا ابْنُ الدَّبِيحِينَ"789).

787 الجامع لابن وهب ت مصطفى أبو الخير، ص 638.

788 الصفات، 102.

789 نيل الأوطار للشوكاني، 8، 300.

وَعَنْ ابْنِ إِسْحَاقَ قَالَ: حَدَّثْتُ وَعِنْدَ اللَّهِ الْعِلْمُ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ أَمَرَ بِذَبْحِ ابْنِهِ؛ قَالَ: أَيُّ بَنِي، حُذِّ الْحَبْلِ وَالْمَدِيَّةِ - وَهِيَ الشُّفْرَةُ - ثُمَّ امشَ بِنَا إِلَى هَذَا الشَّعْبِ؛ لِنَحْتَطِبَ لِأَهْلِكَ مِنْهُ؛ قَبْلَ أَنْ يَذْكَرَ لَهُ مَا أَمَرَ بِهِ، فَلَمَّا تَوَجَّهَ بِهِ اعْتَرَضَهُ إِبْلِيسُ عَدُوَّ اللَّهِ لِيَصِدَّهُ عَنِ أَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي صُورَةِ رَجُلٍ؛ فَقَالَ: أَيُّنَ تُرِيدُ أَيَّهَا الشَّيْخُ، قَالَ: أُرِيدُ هَذَا الشَّعْبَ لِحَاجَةٍ لِي؛ فَقَالَ: وَاللَّهِ إِنِّي لِأَرَى الشَّيْطَانَ قَدْ أَتَاكَ فِي مَنَامِكَ فَأَمَرَكَ أَنْ تَذْبَحَ ابْنَكَ هَذَا فَأَنْتَ تُرِيدُ أَنْ تَذْبَحَهُ؛ فَعَرَفَهُ إِبْرَاهِيمَ فَقَالَ: عَنِي أَيُّ عَدُوِّ اللَّهِ؛ فَوَلَّى اللَّهُ لِأَمْضِيْنَ لِأَمْرِ رَبِّي؛ فَلَمَّا يَبْسُ مِنْ إِبْرَاهِيمَ اعْتَرَضَ لِإِسْمَاعِيلَ وَهُوَ وَرَاءَ أَبِيهِ يَحْمِلُ الْحَبْلَ وَالْمَدِيَّةَ؛ فَقَالَ: أَيُّهَا الْعُلَامُ هَلْ تَدْرِي أَيُّنَ يَذْهَبُ بِكَ أَبُوكَ؟ قَالَ: نَحْتَطِبُ لِأَهْلِنَا، قَالَ: لَا وَاللَّهِ مَا يُرِيدُ إِلَّا أَنْ يَذْبَحَكَ؛ قَالَ: وَلِمَ؟! قَالَ: يَزْعُمُ أَنَّ رَبَّهُ أَمَرَهُ بِذَلِكَ؛ قَالَ: فَلْيَفْعَلْ مَا أَمَرَهُ بِهِ رَبَّهُ سَمْعًا وَطَاعَةً؛ فَلَمَّا امْتَنَعَ مِنْهُ الْعُلَامُ ذَهَبَ إِلَى هَاجِرِ أُمِّ إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ فِي مَنْزِلِهَا؛ فَقَالَ: يَا أُمَّ إِسْمَاعِيلَ أَتَدْرِينَ أَيُّنَ ذَاهِبَ إِبْرَاهِيمَ بِإِسْمَاعِيلَ؟ قَالَتْ: ذَهَبَا يَحْتَطِبَانِ، فَقَالَ: مَا ذَهَبَ إِلَّا لِيَذْبَحَهُ؛ قَالَتْ: كَلَا؛ إِنَّهُ أَرْحَمُ مِنْ ذَلِكَ وَأَحَبُّ إِلَيْهِ، قَالَ: يَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ أَمَرَهُ بِذَلِكَ؛ قَالَتْ: إِنْ كَانَ اللَّهُ أَمَرَهُ بِذَلِكَ سَلِمْنَا لِأَمْرِ اللَّهِ؛ فَرَجَعَ عَدُوُّ اللَّهِ بِغَيْظِهِ لَمْ يَصِبْ مِنْهُمْ شَيْئًا مِمَّا أَرَادَ، وَقَدْ مَنَعَ اللَّهُ مِنْهُ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ إِبْرَاهِيمَ، وَأَجْمَعُوا لِأَمْرِ اللَّهِ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ؛ فَلَمَّا خَلَا إِبْرَاهِيمَ فِي الشَّعْبِ - وَيُقَالُ: ذَلِكَ إِلَى ثَبِيرٍ - قَالَ لَهُ: يَا بَنِي، إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَيُّنَ أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى؟! قَالَ: يَا أَبَتُ أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ!

قَالَ: فَحَدَّثْتُ أَنَّ إِسْمَاعِيلَ قَالَ لَهُ عِنْدَ ذَلِكَ: يَا أَبَتَاهُ إِذَا أَرَدْتَ ذَبْحِي فَأَشَدُّ رِبَاطِي لَا يَصِيبُكَ مِنْ دَمِي فَيَنْقُصُ أَجْرِي؛ فَإِنَّ الْمَوْتَ شَدِيدٌ، وَلَا أَمَّنَ أَنْ اضْطَرَبَ عِنْدَهُ إِذَا وَجَدَتْ مَسَّهُ، وَاشْحَذْ شَفْرَتَكَ حَتَّى تَجْهَزَ عَلَيَّ فَتَذْبَحَنِي، فَإِذَا أَنْتَ أَضْجَعْتَنِي فَأَكْبِنِي عَلَى جَنْبِي، وَلَا تَضْجَعْنِي لِشَقِي؛ فَإِنِّي أَحْشَى إِنْ أَنْتَ نَظَرْتَ إِلَيَّ وَجْهِي أَنْ تَذْرُكَ الرِّقَةَ فَتَحُولَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ أَمْرِ

رَبِّكَ فِي، وَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَرُدَّ قَمِيصِي إِلَى أُمِّي فَإِنَّهُ عَسَى أَنْ يَكُونَ أَسْلَى هَا
فَاعْلَمْ؛ فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: نَعَمْ الْعَوْنُ أَنْتَ يَا بَنِي عَلِيٍّ أَمْرَ اللَّهِ، وَيُقَالُ: إِنَّهُ رِطْلُهُ
كَمَا أَمَرَهُ بِالْحَبْلِ فَأَوْثَقَهُ، ثُمَّ شَحَذَ شَفْرَتَهُ، ثُمَّ تَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَأَتَقَى النَّظَرَ إِلَى
وَجْهِهِ، ثُمَّ أَدْخَلَ الشَّفْرَةَ حَلْقَهُ فَقَلَبَهَا جَبْرِيلٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقْفَاهَا فِي يَدِهِ؛ ثُمَّ
اجْتَذَبَهَا إِلَيْهِ وَنُودِيَ ﴿أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرَّؤْيَا﴾ 790 فَهَذِهِ ذِيحَتُكَ
فَدَاءُ لَابْنِكَ فَادْبَحْهَا دُونَهُ "791.

وعليه؛ فَإِنَّ لُغَةَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حُجَّةٌ، وَرَوَاهُمْ عَيْنُ
الْيَقِينِ، وَدَعَاؤُهُمْ مُسْتَجَابٌ، وَإِيمَانُهُمْ جِبَالٌ لَا تَهْتَزُ إِلَّا تَسْبِيحًا لِلَّهِ تَعَالَى،
وَلِذَلِكَ فَلَا غَرَابَةَ أَنْ يَفْدِيَ إِسْمَاعِيلُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ؛ فَعَنْ مَنْصُورٍ، وَابْنِ أَبِي
نَجِيحٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، {وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ} 792، قَالَ: "مُتَقَبَّلٌ"، إِنَّهُ إِسْمَاعِيلُ
عَلَيْهِ السَّلَامُ" 793

ومن هذا الأحاديث صفات لإسماعيل عليه الصلاة والسلام:

1. ذبيح الحق.
2. عظيم المثوبة.
3. طائع لأمر الله، حيث قال: (ليفعل ما أمره الله به).
4. متحدي، (فَقَالَ: أَيُّهَا الْعُلَامَ هَلْ تَدْرِي أَيْنَ يَذْهَبُ بِكَ أَبُوكَ؟
قَالَ: نَحْتَطِبُ لِأَهْلِنَا، قَالَ: لَا وَاللَّهِ مَا يُرِيدُ إِلَّا أَنْ يَذْبَحَكَ؛ قَالَ: وَلِمَ؟! قَالَ:
يَزْعَمُ أَنَّ رَبَّهُ أَمَرَهُ بِذَلِكَ؛ قَالَ: فَلْيَفْعَلْ مَا أَمَرَهُ بِهِ رَبُّهُ سَمْعًا وَطَاعَةً) وقال: (يَا
أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ).

790 الصفات، 104 - 105.

791 أخبار مكة للفاكهي، 5، ص 75 - 76.

792 الصفات 107.

793 معجم ابن المقرئ، ص 188.

5 . صبور مطيع، (يا أبتاه إذا أردت ذبحي فأشدد رباطي لا يصيبك من دمي فينقص أجري؛ فإن الموت شديد، ولا آمن أن اضطرب عنده إذا وجدت مسه، واشحذ شفرتك حتى تجهز علي فتذبحني، فإذا أنت أضجعتني فأكبني على جنبي، ولا تضجعي لشقي؛ فأني أخشى إن أنت نظرت إلي وجهي أن تدركك الرقة فتحول بينك وبين أمر ربك في).

6 . معين لأمر الله، (وإن رأيت أن ترد قميصي إلى أمي فإنه عسى أن يكون أسلى لها فافعل؛ فقال إبراهيم: نعم العون أنت يا بني على أمر الله).

7 . مُفدى، (ويقال: إنه ربطه كما أمره بالحبل فأوثقه، ثم شحذ شفرته، ثم تله للجبين واتقى النظر إلى وجهه، ثم أدخل الشفرة حلقة فقلبها جبريل عليه السلام لقفها في يده؛ ثم اجتذبا إليه ونودي ﴿أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا 794﴾ فهذه ذبيحتك فداء لابنك فاذبحها دونه).

ثم قال الفاكهي: "قال ابن إسحاق: فحدثني من لا أتهم من أهل البصرة عن الحسن أنه كان يقول: ما فدي إلا بتيس من الأروى هبط عليه من ثبير. ثم قال الفاكهي: ويترجم أهل الكتاب وكثير من العلماء أن ذبيحة إبراهيم التي فدي به إسماعيل كبش أملح أقرع أعين 795".

قال الفاكهي: "وقد قال الناس في الذبيح ما قالوا؛ فقالت العرب: هو إسماعيل، وقالت طائفة من المسلمين وأهل الكتاب جميعاً: إنه إسحاق فإن أقوال العرب في ذلك أثبت، واستدل الفاكهي على ذلك بما معناه أن الله تعالى عبّر عن قصة إسماعيل بقوله: ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِعُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾، وأحبر عن قصة إسحاق بقوله: ﴿وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وإن ذكر قصة إسحاق بعد القصة التي قبلها دليل على

794 الصفات، 104 - 105.

795 أخبار مكة للفاكهي، 5، 76.

أَنَّ إِسْحَاقَ غَيْرَ الذَّبِيحِ، وَأَنَّ ذَلِكَ يَتَأَيَّدُ بِكَوْنِ سَارَةَ بَشَرَتْ بِإِسْحَاقِ وَمَنْ
وَرَاءَ إِسْحَاقِ يَعْقُوبَ 796.

عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعِيدِ الصُّنَابِجِيِّ، قَالَ: "حَضَرْنَا مَجْلِسَ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ
فَتَذَاكَرَ الْقَوْمُ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: الذَّبِيحُ إِسْمَاعِيلُ،
وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ إِسْحَاقُ الذَّبِيحُ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: "سَقَطْتُمْ عَلَى الْحَبِيرِ؛ كُنَّا
عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَأَتَاهُ الْأَعْرَابِيُّ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ،
خَلَفْتُ الْبِلَادَ يَابِسَةً وَالْمَاءَ يَابِسًا، هَلَكَ الْمَالُ، وَضَاعَ الْعِيَالُ، فَعُدَّ عَلَيَّ بِمَا
أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ يَا ابْنَ الذَّبِيحِينَ؛ فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَلَمْ
يُنْكِرْ عَلَيْهِ؛ فقلْنَا: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَمَا الذَّبِيحَانِ؟

قَالَ: إِنَّ عَبْدَ الْمُطَّلِبِ لَمَّا أَمَرَ بِحَفْرِ زَمْرَمٍ - نَذَرَ لِلَّهِ إِنْ سَهَلَ اللَّهُ أَمْرَهَا
أَنْ يَنْحَرَ بَعْضَ وَلَدِهِ؛ فَأَخْرَجَهُمْ، فَأَسْهَمَ بَيْنَهُمْ؛ فَحَرَجَ السَّهْمُ لِعَبْدِ اللَّهِ؛
فَأَرَادَ ذَبْحَهُ فَمَنَعَهُ أَحْوَالُهُ مِنْ بَنِي مَخْزُومٍ، وَقَالُوا: أَرْضِ رَبِّكَ، وَافِدِ ابْنِكَ، قَالَ:
فَقَدَاهُ بِمِائَةِ نَاقَةٍ، قَالَ: فَهُوَ الذَّبِيحُ، وَإِسْمَاعِيلُ الثَّانِي 797".

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: "إِنَّ الصَّخْرَةَ الَّتِي فِي أَصْلِ ثَبِيرٍ
الَّتِي ذَبَحَ عَلَيْهَا إِبْرَاهِيمُ إِسْحَاقَ هَبَطَ عَلَيْهِ كَبِشٌ أَغْبَرُ لَهُ نُوحٌ مِنْ ثَبِيرٍ قَدْ
نُوِّحَهُ) فَذَكَرَ حَدِيثًا طَوِيلًا.

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: وَحَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرٍو الْأَوْيسِيُّ، عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ، عَنْ
جَابِرٍ، قَالَ: لَمَّا رَأَى إِبْرَاهِيمُ فِي الْمَنَامِ أَنْ يَذْبَحَ إِسْحَاقَ أَخَذَ بِيَدِهِ، فَذَكَرَهُ
بِطُولِهِ.

قَالَ الْحَاكِمُ: وَقَدْ ذَكَرَهُ الْوَاقِدِيُّ بِأَسَانِيدِهِ وَهَذَا الْقَوْلُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،
وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ، وَعَمِيرِ بْنِ قَتَادَةَ اللَّيْثِيِّ، وَعُثْمَانَ بْنِ عَقَّانَ، وَأَبِي بِنِ

796 أخبار مكة للفاكهي، 5، 80.

797 المستدرک علی الصحیحین للحاکم، 2، ص 604.

كَعْبٍ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، وَاللَّهُ
أَعْلَمُ.

وَقَدْ كُنْتُ أَرَى مَشَايِخَ الْحَدِيثِ قَبْلَنَا وَفِي سَائِرِ الْمُدُنِ الَّتِي طَلَبْنَا
الْحَدِيثَ فِيهِ وَهُمْ لَا يَخْتَلِفُونَ أَنَّ الدَّبِيحَ إِسْمَاعِيلُ، وَقَاعِدَتُهُمْ فِيهِ قَوْلُ النَّبِيِّ
عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: (أَنَا ابْنُ الدَّبِيحَيْنِ) إِذْ لَا خِلَافَ أَنَّهُ مِنْ وَالدِ
إِسْمَاعِيلِ، وَأَنَّ الدَّبِيحَ الْآخَرَ أَبُوهُ الْأَدْنَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَالآنَ
فِيَّيْ أَحَدُ مُصَنِّفِي هَذِهِ الْأَدْلَةِ يَخْتَارُونَ قَوْلَ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ إِسْحَاقُ 798".

دعاء إبراهيم لإسماعيل:

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: (أَوَّلُ مَا اتَّخَذَ النِّسَاءُ الْمِنْطَقَ مِنْ
قَبْلِ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ اتَّخَذَتْ مِنْطَقًا؛ لَتَعْفِي أَثَرَهَا عَلَى سَارَةِ. ثُمَّ جَاءَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ
وَبَابِنَهَا إِسْمَاعِيلَ، وَهِيَ تُرْضِعُهُ؛ حَتَّى وَضَعَهُمَا عِنْدَ الْبَيْتِ عِنْدَ دَوْحَةٍ فَوْقَ
زَمْرَمٍ فِي أَعْلَى الْمَسْجِدِ، وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ، وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ؛ فَوَضَعَهُمَا
هُنَالِكَ، وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَابًا فِيهِ تَمْرٌ، وَسَقَاءَ فِيهِ مَاءً. ثُمَّ قَفَى إِبْرَاهِيمُ
مِنْطَقًا؛ فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ فَقَالَتْ: يَا إِبْرَاهِيمُ، أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرِكُنَا هَذَا
الْوَادِي، الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلَا شَيْءٌ؟! فَقَالَتْ لَهُ: ذَلِكَ مِرَارًا، وَجَعَلَ لَا
يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا؛ فَقَالَتْ لَهُ: اللَّهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا!)

قَالَ: نَعَمْ.

قَالَتْ: إِذْنٌ لَا يُضَيِّعُنَا، ثُمَّ رَجَعَتْ؛ فَاَنْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ
الثَّنِيَّةِ حَيْثُ لَا يَرُونَهُ؛ اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ الْبَيْتَ، ثُمَّ دَعَا بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ، وَرَفَعَ
يَدَيْهِ فَقَالَ: {رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ

الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ} 799.

وَجَعَلَتْ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ تُرْضِعُ إِسْمَاعِيلَ، وَتَشْرَبُ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ حَتَّى إِذَا نَفِدَ مَا فِي السِّقَاءِ - عَطِشَتْ وَعَطِشَ ابْنُهَا، وَجَعَلَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ يَتَلَوَّى، أَوْ قَالَ يَتَلَبَّطُ؛ فَانْطَلَقَتْ كَرَاهِيَةً أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ فَوَجَدَتْ الصَّفَا أَقْرَبَ جَبَلٍ فِي الْأَرْضِ يَلِيهَا؛ فَقَامَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ اسْتَقْبَلَتِ الْوَادِيَّ تَنْظُرُ هَلْ تَرَى أَحَدًا فَلَمْ تَرَ أَحَدًا؛ فَهَبَطَتْ مِنَ الصَّفَا حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الْوَادِيَّ رَفَعَتْ طَرْفَ دِرْعِهَا ثُمَّ سَعَتْ سَعْيَ الْإِنْسَانِ الْمَجْهُودِ؛ حَتَّى جَاوَزَتْ الْوَادِيَّ، ثُمَّ أَتَتْ الْمَرْوَةَ فَقَامَتْ عَلَيْهَا وَنَظَرَتْ هَلْ تَرَى أَحَدًا؛ فَلَمْ تَرَ أَحَدًا؛ فَفَعَلَتْ ذَلِكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَذَلِكَ سَعْيُ النَّاسِ بَيْنَهُمَا، فَلَمَّا أَشْرَفَتْ عَلَى الْمَرْوَةِ سَمِعَتْ صَوْتًا؛ فَقَالَتْ: صَهٍ - تُرِيدُ نَفْسَهَا - ثُمَّ تَسَمِعَتْ؛ فَسَمِعَتْ أَيْضًا؛ فَقَالَتْ: قَدْ أَسْمَعْتُ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ غَوَاثُ؛ فِإِذَا هِيَ بِالْمَلِكِ عِنْدَ مَوْضِعِ زَمْزَمَ؛ فَبَحَثَ بِعَقْبِهِ، أَوْ قَالَ: بِجَنَاحِهِ حَتَّى ظَهَرَ الْمَاءُ، فَجَعَلَتْ تُحَوِّضُهُ وَتَقُولُ بِيَدِهَا هَكَذَا، وَجَعَلَتْ تَعْرِفُ مِنَ الْمَاءِ فِي سِقَائِهَا وَهُوَ يَفُورُ بَعْدَ مَا تَعْرِفُ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: يَرْحَمُ اللَّهُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ؛ لَوْ تَرَكْتَ زَمْزَمَ أَوْ قَالَ: لَوْ لَمْ تَعْرِفْ مِنَ الْمَاءِ لَكَانَتْ زَمْزَمُ عَيْنًا مَعِينًا.

قَالَ: فَشَرِبَتْ وَأَرْضَعَتْ وَلَدَهَا؛ فَقَالَ لَهَا الْمَلِكُ: لَا تَخَافُوا الضَّيْعَةَ؛ فَإِنَّ هَا هُنَا بَيْتَ اللَّهِ، يَبْنِي هَذَا الْعُلَامُ وَأَبُوهُ، وَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَهْلَهُ، وَكَانَ الْبَيْتُ مُرْتَفِعًا مِنَ الْأَرْضِ كَالرَّابِيَةِ تَأْتِيهِ السُّيُُولُ فَتَأْخُذُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ.

فَكَانَتْ كَذَلِكَ حَتَّى مَرَّتْ بِهِمْ رُفْقَةً مِنْ جُزْهُمَ، أَوْ أَهْلُ بَيْتٍ مِنْ جُزْهُمَ مُقْبِلِينَ مِنْ طَرِيقِ كَدَاءٍ؛ فَنَزَلُوا فِي أَسْفَلِ مَكَّةَ؛ فَرَأَوْا طَائِرًا عَائِفًا فَقَالُوا: إِنَّ هَذَا الطَّائِرَ لَيُدُورُ عَلَى مَاءٍ لَعَهْدُنَا بِهَذَا الوَادِي وَمَا فِيهِ مَاءٌ؛ فَأَرْسَلُوا جَرِيًّا أَوْ جَرِيَيْنِ فَإِذَا هُم بِالْمَاءِ؛ فَرَجَعُوا فَأَخْبَرُوهُمْ بِالْمَاءِ؛ فَأَقْبَلُوا.

قَالَ: وَأُمُّ إِسْمَاعِيلَ عِنْدَ الْمَاءِ؛ فَقَالُوا: أَتَأْذِنِينَ لَنَا أَنْ نَنْزِلَ عِنْدَكَ؛ فَقَالَتْ: نَعَمْ، وَلَكِنْ لَا حَقَّ لَكُمْ فِي الْمَاءِ؛ قَالُوا: نَعَمْ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: فَأَلْفَى ذَلِكَ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ، وَهِيَ نُحْبُ الْإِنْسِ، فَنَزَلُوا وَأَرْسَلُوا إِلَى أَهْلِيهِمْ فَنَزَلُوا مَعَهُمْ حَتَّى إِذَا كَانَ بِهَا أَهْلُ أَنْبِيَاءٍ مِنْهُمْ، وَشَبَّ الْعُلَامُ، وَتَعَلَّمَ الْعَرَبِيَّةَ مِنْهُمْ وَأَنْفَسَهُمْ وَأَعْجَبَهُمْ حِينَ شَبَّ؛ فَلَمَّا أَدْرَكَ زَوْجُوهُ امْرَأَةً مِنْهُمْ، وَمَاتَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ؛ فَجَاءَ إِبْرَاهِيمُ بَعْدَمَا تَزَوَّجَ إِسْمَاعِيلُ يُطَالِعُ تَرْكَنَهُ فَلَمْ يَجِدْ إِسْمَاعِيلَ؛ فَسَأَلَ امْرَأَتَهُ عَنْهُ فَقَالَتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا، ثُمَّ سَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ فَقَالَتْ نَحْنُ بِشَرٍّ، نَحْنُ فِي ضَيْقٍ وَشِدَّةٍ؛ فَشَكَتْ إِلَيْهِ؛ قَالَ: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكَ فَأَقْرَأِي عَلَيْهِ السَّلَامَ، وَقُولِي لَهُ: يُعْزِرُ عْتَبَةَ بَابِهِ.

فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ كَأَنَّهُ أَنْسَ شَيْئًا؛ فَقَالَ: هَلْ جَاءَكُمْ مِنْ أَحَدٍ، قَالَتْ: نَعَمْ جَاءَنَا شَيْخٌ كَذَا وَكَذَا فَسَأَلْنَا عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ وَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّا فِي جَهْدٍ وَشِدَّةٍ.

قَالَ: فَهَلْ أَوْصَاكَ بِشَيْءٍ؛ قَالَتْ: نَعَمْ، أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ السَّلَامَ وَيَقُولُ عَزَّ عْتَبَةَ بَابِكَ.

قَالَ: ذَلِكَ أَبِي، وَقَدْ أَمَرَنِي أَنْ أُفَارِقَكَ الْحَقِّي بِأَهْلِكَ؛ فَطَلَّقَهَا، وَتَزَوَّجَ مِنْهُمْ أُخْرَى فَلَبِثَ عَنْهُمْ إِبْرَاهِيمُ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَتَاهُمْ بَعْدُ فَلَمْ يَجِدْهُ؛ فَدَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ فَسَأَلَهَا عَنْهُ فَقَالَتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا، قَالَ: كَيْفَ أَنْتُمْ، وَسَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ؛ فَقَالَتْ: نَحْنُ بِخَيْرٍ وَسَعَةٍ، وَأَثْنَتْ عَلَى اللَّهِ؛ فَقَالَ: مَا

طَعَامِكُمْ؟ قَالَتْ: اللَّحْمُ، قَالَ: فَمَا شَرَابِكُمْ؟ قَالَتْ: الْمَاءُ؛ قَالَ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي اللَّحْمِ وَالْمَاءِ.

قَالَ: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكَ فَاقْرَأِي عَلَيْهِ السَّلَامَ، وَمُرِّيهِ يُثْبِتُ عَتَبَةَ بَابِهِ؛ فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ قَالَ: هَلْ أَتَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟! قَالَتْ: نَعَمْ؛ أَتَانَا شَيْخٌ حَسَنٌ أَهْيَأَةً، وَأَثْنَتْ عَلَيْهِ فَسَأَلَنِي عَنْكَ فَأَحْبَرْتُهُ، فَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشِنَا فَأَحْبَرْتُهُ أَنَا بِخَيْرٍ.

قَالَ: فَأَوْصَاكِ بِشَيْءٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ هُوَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ، وَيَأْمُرُكَ أَنْ تُثْبِتَ عَتَبَةَ بَابِكَ؛ قَالَ: ذَلِكَ أَبِي وَأَنْتِ الْعَتَبَةُ، أَمَرَنِي أَنْ أُمْسِكَ، ثُمَّ لَبِثَ عَنْهُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ جَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ وَإِسْمَاعِيلُ يَبْرِي نَبَلًا لَهُ تَحْتَ دَوْحَةٍ قَرِيبًا مِنْ زَمْرَمَ؛ فَلَمَّا رَأَهُ قَامَ إِلَيْهِ؛ فَصَنَعَا كَمَا يَصْنَعُ الْوَالِدُ بِالْوَلَدِ وَالْوَالِدُ بِالْوَالِدِ؛ ثُمَّ قَالَ: يَا إِسْمَاعِيلُ، إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِأَمْرٍ؛ قَالَ: فَاصْنَعِ مَا أَمَرَكَ رَبُّكَ.

قَالَ: وَتُعِينُنِي! قَالَ: وَأُعِينُكَ.

قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ هَا هُنَا بَيْتًا، وَأَشَارَ إِلَى أَكْمَةِ مُرْتَفِعَةٍ عَلَى مَا حَوْلَهَا.

قَالَ: فَعِنْدَ ذَلِكَ رَفَعَا الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ؛ فَجَعَلَ إِسْمَاعِيلُ يَأْتِي بِالْحِجَارَةِ، وَإِبْرَاهِيمُ يَبْنِي؛ حَتَّى إِذَا ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ جَاءَ بِهَذَا الْحَجَرِ فَوَضَعَهُ لَهُ؛ فَقَامَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَبْنِي، وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الْحِجَارَةَ وَهُمَا يَقُولَانِ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ 800.

قَالَ: فَجَعَلَا يَبْنِيَانِ حَتَّى يَدُورَا حَوْلَ الْبَيْتِ وَهُمَا يَقُولَانِ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ 801.

800 البقرة، 127.

801 صحيح البخاري، 4، ص 144.

عَنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ قَالَ: مَرَّ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ نَفَرٍ مِنْ
أَسْلَمَ يَنْتَضِلُونَ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: (ارْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيلَ؛
فَإِنَّ آبَاءَكُمْ كَانُوا رَامِيًا، ارْمُوا، وَأَنَا مَعَ بَنِي فُلَانٍ).

قَالَ: فَأَمْسَكَ أَحَدُ الْفَرِيقَيْنِ بِأَيْدِيهِمْ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ
وَالسَّلَامُ: مَا لَكُمْ لَا تَرْمُونَ. فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، نَرْمِي وَأَنْتَ مَعَهُمْ، قَالَ:
ارْمُوا وَأَنَا مَعَكُمْ كُنْتُكُمْ 802".

وعليه:

كان الدعاء متمركزا على إقامة الصلاة والسلامة والعيش الآمن، والرزق
الحلال، ومن هذا الدعاء:

- 1 . إقامة الصلاة، (لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ).
- 2 . الإكرام، (فَاَجْعَلْ أَفْنَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ).
- 3 . الرزق الحلال، (وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ).
- 4 . شكر الله، (لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ).
- 5 . رافع القواعد مع أبيه إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، (رَفَعَا الْقَوَاعِدَ
مِنَ الْبَيْتِ؛ فَجَعَلَ إِسْمَاعِيلُ يَأْتِي بِالْحِجَارَةِ، وَإِبْرَاهِيمُ يَبْنِي).
- 6 . داعي مع أبيه الاستجابة، وَهُمَا يَقُولَانِ: { رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ
السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } 803.

802 صحيح البخاري، 4، 147.

803 البقرة، 127.

حبّ الخيل:

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "إِنَّ أَبَاكُمْ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوَّلُ مَنْ دُلَّتْ لَهُ الْخَيْلُ الْعَرَابُ؛ فَأَعْتَقَهَا وَأُورَثَكُمْ حُبَّهَا؛ وَذَلِكَ أَنَّ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَرَجَ حَتَّى أَتَى أَجْيَادًا، فَأَلْهَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى الدُّعَابَةَ بِالْخَيْلِ، فَدَعَا فَلَمْ يَبْقَ فِي بِلَادِ الْعَرَبِ عَلَيْهَا فَرَسٌ إِلَّا أَتَاهُ، وَذَلَّلَهُ اللَّهُ لَهُ وَأَمَكَّنَهُ مِنْ نَوَاصِيهَا" 804، وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ وَأَوَّلُ مَنْ نَصَبَ ذَلِكَ الْخَيْلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِدَلَالَةِ جِبْرِيلَ لَهُ ثُمَّ قَصِي بْنِ كِلَابٍ وَقِيلَ نَصَبَهَا إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ أَبِيهِ الْخَيْلِ ثُمَّ قَصِي "805.

وهناك من يرى أنّ إسماعيل عليه الصلّاة والسّلام أوّل من روّض الخيل؛ فهي من قبله كانت وحشية، قال الدميري: أوّل من ركب الخيل إسماعيل عليه السّلام، ولذلك سميت بالعراب، وكانت قبل ذلك وحشية كسائر الوحوش؛ فلما أذن الله تعالى لإبراهيم وإسماعيل عليهما السّلام برفع القواعد من البيت قال الله عزّ وجلّ: إني معطيكما كنزا دخرته لكما، ثمّ أوحى الله إلى إسماعيل: أن اخرج فادع بذلك الكنز؛ فخرج إلى أجساد، وكان لا يدري ما الدّعاء والكنز! فألهمه الله تعالى الدّعاء، فلم يبق على وجه الأرض فرس بأرض العرب إلا أجابته، فأمكنته من نواصيها وتذلت له؛ ولذلك قال نبينا عليه الصلّاة والسّلام: "اركبوا الخيل؛ فإنّها ميراث أبيكم إسماعيل 806".

804 أخبار مكة للفاكهي، 4، 167.

805 أخبار مكة للفاكهي، 5، ص 207.

806 أخرجه أبو حاتم الرازي في الزهد (99) موقوفاً على ابن عباس، وإسناده ضعيف.

وروى الثعلبي بإسناده عن النبي عليه الصلّاة والسّلام أنّه قال: (ما من فرس إلا ويؤذن له عند كلّ فجر بدعوة يدعو بها: اللهم من خولتني من بني آدم وجعلتني له؛ فاجعلني أحب أهله وماله إليه 807".

بناء الكعبة:

الكعبة (بيت الله) وهو أوّل بيت بني لعبادة الواحد الأحد جلّ جلاله، ويقال أنّ آدم هو أوّل من بنى البيت الحرام، ولهذا جاء إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما الصلّاة والسّلام لرفع القواعد كونها سابقة عليهما، أي: أنّها قد تأثرت بفعل الطوفان في زمن نوح عليه السّلام، ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ {808}.

تعدّ الكعبة الشريفة أوّل بيت وضعه الله تعالى لعبادة الله، في حين كانت الكثير من الشعوب والأمم القديمة بينون البيوت لعبادة التماثيل والأصنام، فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ

807 حياة الحيوان الكبرى، 1، 435.

808 البقرة 127 . 132.

حُجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ
الْعَالَمِينَ {809.

عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ، قَالَ: "لَبِثَ إِبْرَاهِيمُ
مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَلْبَثَ، ثُمَّ جَاءَ الثَّالِثَةَ، فَوَجَدَ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَاعِدًا
تَحْتَ الدَّوْحَةِ الَّتِي بِنَاحِيَةِ الْبَيْرِ، يُبْرِي نَبْلًا أَوْ نِبَالًا لَهُ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، وَنَزَلَ إِلَيْهِ
فَقَعَدَ مَعَهُ، فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: يَا إِسْمَاعِيلُ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَمَرَنِي بِأَمْرٍ، فَقَالَ لَهُ
إِسْمَاعِيلُ: فَأَطِعْ رَبَّكَ فِيمَا أَمَرَكَ، فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: يَا إِسْمَاعِيلُ أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ أَنْبِي
لَهُ بَيْتًا، قَالَ لَهُ إِسْمَاعِيلُ: وَأَيْنَ؟ يَقُولُ ابْنُ عَبَّاسٍ: "فَأَشَارَ لَهُ إِلَى أَكْمَةِ
مُرْتَفَعَةٍ عَلَى مَا حَوْلَهَا، عَلَيْهَا رَضْرَاضٌ مِنْ حَصْبَاءَ يَأْتِيهَا السَّيْلُ مِنْ نَوَاحِيهَا،
وَلَا يَرْكَبُهَا، يَقُولُ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَقَامَا يَخْفِرَانِ عَنِ الْقَوَاعِدِ، وَيَخْفِرَانِهَا، وَيَقُولَانِ:
رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ سَمِيعُ الدَّعَاءِ، رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، وَيَحْمِلُ
لَهُ إِسْمَاعِيلُ الْحِجَارَةَ عَلَى رَقَبَتِهِ، وَيَبْنِي الشَّيْخَ إِبْرَاهِيمَ، فَلَمَّا ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ،
وَشَقَّ عَلَى الشَّيْخِ إِبْرَاهِيمَ تَنَاوُلُهُ قَرَبَ لَهُ إِسْمَاعِيلُ هَذَا الْحُجْرَ، يَعْنِي الْمَقَامَ،
فَكَانَ يَتَوَقَّمُ عَلَيْهِ، وَيَبْنِي وَيُحْوِلُهُ فِي نَوَاحِي الْبَيْتِ حَتَّى انْتَهَى إِلَى وَجْهِ الْبَيْتِ،
يَقُولُ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَلِذَلِكَ سُمِّيَ مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ لِقِيَامِهِ عَلَيْهِ" 810. وعن الإمام
أحمد من حديث أم عثمان بنت سفيان، أن النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -
قال له في هذا الحديث: "أنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يلهي
المصلين" 811.

حجر البيت:

فَجَعَلَ إِبْرَاهِيمُ، وَإِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بَيْنَيَانٍ كُلَّ يَوْمٍ مَسَاقًا فَإِذَا اشْتَدَّ
عَلَيْهِمَا الْحَرُّ اسْتَظَلَّ فِي ظِلِّ الْجَبَلِ، فَلَمَّا بَلَغَا مَوْضِعَ الْحُجْرِ قَالَ إِبْرَاهِيمُ

809 آل عمران 96، 97.

810 أخبار مكة للأزرقي، 1، 59.

811 فتح الباري لابن رجب، 2، ص 428.

لِإِسْمَاعِيلَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اثْنَيْنِ بِحَجَرٍ أَضَعُهُ يَكُونُ عَلَمًا لِلنَّاسِ فَاسْتَقْبَلَ إِسْمَاعِيلُ الْوَادِيَّ وَجَاءَهُ بِحَجَرٍ فَاسْتَضَعَرَهُ إِبْرَاهِيمُ وَرَمَى بِهِ وَقَالَ: جِئَنِي بِعَيْرِهِ، فَذَهَبَ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهَبَطَ جِبْرِيْلُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمَا عَلَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْحَجَرِ فَجَاءَ إِسْمَاعِيلُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَدْ جَاءَنِي مَنْ لَمْ يَكِلْنِي فِيهِ إِلَى حَجْرِكَ قَالَ: فَبَنَى الْبَيْتَ وَجَعَلُوا يَطُوفُونَ حَوْلَهُ وَيُصَلُّونَ حَتَّى مَاتُوا وَانْقَرَضُوا وَتَهَدَّمَ الْبَيْتُ فَبَنَتْهُ الْعَمَالِقَةُ، فَكَانُوا يَطُوفُونَ بِهِ حَتَّى مَاتُوا وَانْقَرَضُوا، فَتَهَدَّمَ الْبَيْتُ فَبَنَتْهُ قُرَيْشٌ، فَلَمَّا بَلَغُوا مَوْضِعَ الْحَجَرِ اخْتَلَفُوا فِي وَضْعِهِ فَقَالُوا: أَوَّلُ مَنْ يَطْلُعُ مِنَ الْبَابِ، فَطَلَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا: قَدْ طَلَعَ الْأَمِينُ فَبَسَطَ ثَوْبًا وَوَضَعَ الْحَجَرَ وَسَطَهُ، وَأَمَرَ بَطُونَ قُرَيْشٍ فَأَخَذَ كُلُّ بَطْنٍ مِنْهُمْ بِنَاحِيَةٍ مِنَ الثَّوْبِ وَوَضَعَهُ بِيَدِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "812.

والحجر الأسعد هو المنزل من السماء تنزيلا على يدي آدم عليه السلام، كما سبق وأن بيناه، وهو الركن الذي منه يبدأ الطواف وينتهي في الشوط السابع كما سنه رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام، فعن ابن عباس عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم أنه قال: "نزل الحجر الأسود من الجنة أبيض من الثلج فسودته خطايا بني آدم" 813.

ونظر لما مرّت به الكعبة من أحداث فقد تعرّضت لما تعرّضت له مرات، فذكر أنّ الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وقبل بعثته كان حكما بين كبار سادة قريش، عندما اختلفوا فيما بينهم على من يضع الحجر الأسود في مكانه، حيث طلب ثوبا ووضع الحجر به وطلب من كل كبير قوم أن

812 مسند الحارث، بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث، 1، ص 462.

813 صحيح ابن خزيمة، 4، ص 219.

يمسك الثوب من طرف، وقاموا جميعا بحمله ثم وضعه الرسول الكريم بيديه مكانه.

ومما تعرّض له الحجر الأسود، احتراق الكعبة، عن محمد بن يحيى، عن الواقدي، عن عبد الله بن جعفر الزهري قال: سألت أبا عون: متى كان احتراق الكعبة؟ قال: "يوم السبت ليالٍ خلون من شهر ربيع الأول، قبل أن يأتينا نعي يزيد بن معاوية بتسعة وعشرين يوماً، وجاء نعيه في هلال شهر ربيع الآخر ليلة الثلاثاء سنة أربع وستين. قلت: وما كان سبب احتراقها؟ قال: جاءنا موت يزيد، نُويّ لأربع عشرة ليلة حلت من شهر ربيع الأول سنة أربع وستين، وكانت خلافته ثلاث سنين وتسعة أشهر، والحصين بن نمير يومئذ عندنا، وكان احتراقها بعد الصاعقة التي أصابت أهل الشام بعشرين ليلة. قال أبو عون: ما كان احتراقها إلا منا، وذلك أن رجلاً منا، وهو مسلم بن أبي خليفة المذحجي، كان هو وأصحابه يوقدون في خصاصهم حول البيت، فأخذ ناراً في زج رُحجه في النفط، وكان يوم ریح، فطارت منها شرارة، فاحتوت الكعبة حتى صارت إلى الخشب، فقلنا لهم: هذا عملكم، رميتم بيت الله عز وجل بالنفط والنار، فأنكروا ذلك" 814 وكما يبدو كان ذلك في عام 64 هجرية، حيث احتراق الكعبة، نتيجة للحرب بين ابن الزبير الذي تحصن داخلها وجيش يزيد بن معاوية.

عن سعيد بن سمعان، قال: سمعت أبا هريرة، يُخبر أبا قتادة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "يباع لرجل ما بين الركن والمقام، ولن يستحل البيت إلا أهله، فإذا استحلوه فلا تسأل عن هلكة العرب، ثم تأتي

الْحَبْسَةُ فَيُخَرَّبُونَهُ خَرَابًا لَا يَعْمُرُ بَعْدَهُ أَبَدًا، وَهُمْ الَّذِينَ يَسْتَخْرِجُونَ
كَنْزَهُ"815

وفي عام 317هـ وفي يوم التروية، قام ملك البحرين وزعيم القرامطة،
بالإغارة على مكة والناس محرمون، واستولى على الحجر الأسود، وبعث به
إلى هَجْر وقتل عدد كبير من الحجاج، وبعد 22 سنة تم استرداده منهم،
وروي أيضا أنه سنة 413 هـ حصلت حادثة على الحجر قام بها عشرة من
الفرسان، كان يقودهم رجل بإحدى يديه سيف مسلول، وبالأخرى دبوس،
حيث قاموا بمحاولة تحطيم الحجر لكن الناس حالوا دون ذلك ولكنه تعرّض
لبعض الضرر، وروي أيضا أنه سنة 990 هـ جريا حاول رجل عراقي أعجمي
بمحاولة تحطيم الحجر لكن الناس قتلوه. وهكذا، فإنَّ للدين أعداء. وكلّ
شيء يقال ينبغي أن يكون قابلا لان يتم التحقق من صحته.

اكتساء البيت:

قَالَ ابْنُ جَرِيحٍ: زَعَمَ بَعْضُ عُلَمَائِنَا أَنَّ أَوَّلَ مَنْ كَسَاهَا هُوَ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ
السَّلَامُ، وَحَكَى الْبَلَاذِرِيُّ: أَنَّ أَوَّلَ مَنْ كَسَاهَا الْأَنْطَاعُ عَدْنَانُ بْنُ أَدَدٍ،
وَرَوَى الْوَاقِدِيُّ عَنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ، قَالَ: كَسَى الْبَيْتَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ
الْأَنْطَاعُ، ثُمَّ كَسَاهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الثَّيَابَ الْيَمَانِيَّةَ، ثُمَّ كَسَاهُ
عَمْرٌ وَعُثْمَانُ الْقُبَاطِيُّ، ثُمَّ كَسَاهُ الْحَجَّاجُ الدِّيَابِيُّ"816.

ومع ذلك فلا اتفاق على من كان أول من كسى الكعبة؛ فهناك من
يقول إبراهيم عليه السلام، وهناك من يقول إسماعيل، وهناك من يقول
غيرهما، ففي حديث ابن عباس: أنَّ جبرئيل عليه السلام أرى إبراهيم عليه
السلام، أنصاب الحرم، فنصبها، ثم جددها إسماعيل عليه السلام، ثم جددها

815 مسند أحمد ط الرسالة، 13، 289.

816 أخبار مكة للأزرقي، 1، ص 253.

قُصي بن كلاب، ثم جدّدها النبي -صلى الله عليه وسلّم-، ثم الخلفاء من بعده"817.

أمّا اللون الأسود فلم يكن هو أوّل ما اكتست به الكعبة؛ فهو مجرد اختيار ذوقي، ولهذا فقد كسيت بأكثر من لون. في بداية عهد الإسلام كان الرسول "محمد صلّى الله عليه وسلّم" أوّل من كسا الكعبة المشرفة، وقد كساها بالثياب اليمانيّة، وهي ثياب مخطّطة بيضاء وحمراء. بعد ذلك كساها الحجاج بالديباج، والمأمون كساها بالديباج الأحمر والديباج الأبيض أحيانا أخرى818.

وبعد قرون عدة اعتادت فيها الكعبة المشرفة الاكتساء بالقماش المصري المعروف بأثواب بيضاء رقيقة كانت تصنع بمدينة الفيوم، وتُعرف ب(القباطي) انتقلت من بعدها إلى المملكة السعودية عام 1962م.

فُتح لإسماعيل باب من الجنّة:

عن المُبارك بن حَسَّان الأَمَاطِي، قَالَ: "رَأَيْتُ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ فِي الْحِجْرِ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: "شَكَأ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ حَرَّ مَكَّةَ فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ" أَيْ أَفْتَحَ لَكَ بَابًا مِنَ الْجَنَّةِ فِي الْحِجْرِ يَجْرِي عَلَيْكَ مِنْهُ الرُّوحُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ «وَفِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ تُؤْتَى» قَالَ خَالِدٌ: فَيَرَوْنَ أَنَّ ذَلِكَ الْمَوْضِعَ مَا بَيْنَ الْمِيزَابِ إِلَى بَابِ الْحِجْرِ الْعَرَبِيِّ فِيهِ قَبْرُهُ"819.

وكان اليوم الثامن من ذي الحجة يوم التروية؛ لأنّ إبل الحجاج رُوِيَتْ في هذا اليوم بعد عطشها في الطريق. وقيل: سُمِّيَ يوم التروية؛ لأنّ إبراهيم عليه

817 أمالي المحاملي رواية ابن يحيى البيهقي، 311.

818 أخبار مكة للأزرقي، 1، ص 253.

819 أخبار مكة للأزرقي، 1، ص 312.

السَّلام رأى في المنام ليلة ثامن ذي الحجة ذبح ابنه إسماعيل، وجعل يوم الثامن يروي؛ أي: يُفكِّر في رؤياه أنه كيف يصنع؟ حتى جزم عزمه يوم العاشر بذبح إسماعيل عليه السلام 820.

إنَّ نبيَّ الله إبراهيم عليه السَّلام ءاتاه الله الحُجَّة على قومه وجعله نبياً رسولاً فكان عارفاً بالله يعبد الله تعالى وحده. فذات يوم طلب من ربه أن يرزقه أولاداً صالحين قال: {وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ} 821 فرزقه الله تعالى إسماعيل وإسحاق ولما كبر إسماعيل وصار يرافق أباه ويمشي معه رأى ذات ليلة سيِّدنا إبراهيم عليه السَّلام في المنام أنه سيدبح ولده إسماعيل. ورؤيا الأنبياء وحيٌّ وأراد أن يعرف قرار ولده ﴿فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ {افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ} 822، ومن هنا علينا أن نتبين قوله: (افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ) فهو قال: (ما تُؤْمَرُ) ولم يقل (ما تأمر) أي: أنَّ إسماعيل له من الوحي ما له؛ فهو يعرف أنَّ إبراهيم مأمورا من الله تعالى، وهنا كانت الطاعة لإبراهيم (طاعة لأمر الله) ولهذا كانت السكينة قد ملئت نفس إسماعيل، وهو واثق بأنَّ الله لا يأمر إلا بالحق.

بئر زمزم:

عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: "أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ جَاءَ بِأُمَّ إِسْمَاعِيلَ وَابْنَهَا إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهِيَ تُرْضِعُهُ؛ فَوَضَعَهَا عِنْدَ الْبَيْتِ، وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ، وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَابًا فِيهِ تَمْرٌ وَسِقَاءٌ

820 المفاتيح في شرح المصاييح، 3، ص 278.

821 الصافات 99 . 102.

822 الصافات 102.

فِيهِ مَاءٌ ثُمَّ قَفَى مُنْطَلِقًا فَتَبِعْتَهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ، وَقَالَتْ: يَا إِبْرَاهِيمُ أَيْنَ تَذْهَبُ تَتْرَكُنَا بِهَذَا الْوَادِي الَّذِي لَيْسَ فِيهِ أُنْيَسٌ؟، قَالَتْ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فَقَالَتْ لَهُ: اللَّهُ أَمْرَكَ بِهَذَا؟، قَالَ: نَعَمْ، قَالَتْ: إِذَا لَا يُضَيِّعُنَا ثُمَّ رَجَعْتَ، وَأَنْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ الثَّنِيَّةِ اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ الْبَيْتَ ثُمَّ دَعَا بِهَذِهِ الدَّعَوَاتِ وَرَفَعَ يَدَهُ، وَقَالَ: { رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْنِكَ الْمُحَرَّمِ } 823؛ فَجَعَلَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ تُرْضِعُ إِسْمَاعِيلَ وَتَشْرِبُ مَرَّةً مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ حَتَّى إِذَا نَفَدَ مَا فِي السِّقَاءِ عَطِشَتْ وَعَطِشَ ابْنُهَا، وَجَاعَ وَجَعَلَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ يَتَلَوَّى أَوْ قَالَ: يَتَلَبَّطُ فَاَنْطَلَقَتْ كَرَاهِيَةً أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ فَوَجَدَتْ الصِّفَا أَقْرَبَ جَبَلٍ فِي الْأَرْضِ يَلِيهَا فَقَامَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ اسْتَقْبَلَتْ الْوَادِي تَنْظُرُ هَلْ تَرَى أَحَدًا فَلَمْ تَرَ أَحَدًا فَهَبَطَتْ مِنَ الصِّفَا، حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ الْوَادِي رَفَعَتْ طَرْفَ دِرْعِهَا وَسَعَتْ سَعْيَ الْإِنْسَانِ الْمَجْهُودِ حَتَّى جَاوَزَتْ الْوَادِي ثُمَّ أَنْتِ الْمَرْوَةَ، فَقَامَتْ عَلَيْهَا فَانْظَرْتُ هَلْ تَرَى أَحَدًا فَلَمْ تَرَ أَحَدًا فَجَعَلَتْ ذَلِكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ. قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (فَلذَلِكَ سَعْيُ النَّاسِ بَيْنَهُمَا)، فَلَمَّا أَشْرَفَتْ عَلَى الْمَرْوَةِ سَمِعَتْ صَوْتًا، فَقَالَتْ: صَهٍ، تُرِيدُ نَفْسَهَا ثُمَّ تَسَمَّعَتْ أَيْضًا فَسَمِعَتْ، فَقَالَتْ: قَدْ أَسْمَعْتُ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ غَوَاثُ، فَإِذَا هِيَ بِالْمَلِكِ عِنْدَ مَوْضِعِ زَمْزَمَ يَبْحَثُ بِعَقِبِهِ أَوْ قَالَ: بِجَنَاحِهِ حَتَّى ظَهَرَ الْمَاءُ فَجَعَلَتْ تَحُوضُهُ وَجَعَلَتْ تَعْرِفُ الْمَاءَ فِي سِقَائِهَا وَهُوَ يُفُورُ بِقَدْرِ مَا تَعْرِفُ" 824.

إِسْمَاعِيلُ وَأُمُّهُ أَوَّلُ مَنْ شَرِبَ مَاءَ زَمْزَمَ:

عَنْ ابْنِ أَبِي جَيْحٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، قَالَ: "مَاءُ زَمْزَمَ لِمَا شَرِبَ لَهُ، إِنْ شَرِبْتَهُ تُرِيدُ شِفَاءَ شِفَاكَ اللَّهُ، وَإِنْ شَرِبْتَهُ لَطَمًا أَرَوَاكَ اللَّهُ، وَإِنْ شَرِبْتَهُ جُوعًا أَشْبَعَكَ اللَّهُ، وَهِيَ هَزْمَةُ جِبْرِيلَ بِعَقِبِهِ وَسُقْيَا اللَّهِ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ. قَالَ أَبُو

823 إبراهيم 37.

824 شعب الإيمان، 5، ص 493.

الْوَلِيدِ: وَالْهَزْمَةُ الْعَمْرَةُ بِالْعَقَبِ فِي الْأَرْضِ، وَقَالَ زَمَزَمُ: شُقَّتْ مِنْ
الْهَزْمَةِ"825.

إِسْمَاعِيلَ رَامِي:

عَنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ، قَالَ: "خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى
قَوْمٍ مِنْ أَسْلَمَ يَتَنَاضِلُونَ بِالسُّوقِ فَقَالَ: (ارْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيلَ، فَإِنَّ آبَاءَكُمْ كَانُوا
رَامِيًا، وَأَنَا مَعَ بَنِي فُلَانٍ لِأَحَدِ الْفَرِيقَيْنِ)، فَأَمْسَكُوا أَيْدِيَهُمْ، فَقَالَ: "مَا لَكُمْ
ارْمُوا"، قَالُوا: كَيْفَ نَرْمِي وَأَنْتَ مَعَ بَنِي فُلَانٍ، قَالَ: "ارْمُوا وَأَنَا مَعَكُمْ
كَلِّكُمْ"826.

نعم أنه رسول الكافة؛ فلا يكون إلا مع الكافة، {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً
لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}827. فعن أبي هريرة
رضي الله عنه قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "من قال لا إله إلا
الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير بعدما
يصلِّي الغداة عشر مرات كتب الله له عشر حسنات ومحا عنه عشر سيئات
ورفع له عشر درجات وكن له بعدل عتق رقبتين من ولد إسماعيل عليه
السلام فإن قالها حين يمسي كان له مثل ذلك وكن له حجابا من الشيطان
حتى يصبح"828.

كان نبي الله إسماعيل عليه السلام يعمل صيادا قنّاصا، ومن قال بذلك
استدل بما رواه البخاري في قصة بناء البيت: "ثم جاء بعد ذلك، وإسماعيل

825 أخبار مكة للأزرقي، 2، ص 50.

826 صحيح ابن حبان - محققا، 10، ص 547.

827 سبأ 28.

828 مشيخة قاضي المارستان 3، ص 1063.

يبري نبلا له تحت دوحة قريبا زمزم، فلما رآه قام إليه، فصنعا كما يصنع
الوالد بالولد والولد بالوالد"829.

ختان إسماعيل:

الختان لم يكن بدعة، فهناك من يقول منذ آدم وارتكابه الخطيئة، وقبول
التوبة، وهناك من يقول بداية من إبراهيم عليه السلام، أمّا ختان إسماعيل
فلا يكون إلا تابعا لأبيه عليهما الصلاة والسلام؛ فعن أبي هريرة، عن رسول
الله صلى الله عليه وسلم قال: "اُخْتَتَنَ إِبْرَاهِيمُ حِينَ بَلَغَ ثَمَانِينَ سَنَةً، وَاخْتَتَنَ
بِالْقُدُومِ» قَالَ: وَحَدَّثَنِي بِمِثْلِهِ، عَنْ أَبِي الزِّنَادِ، عَنِ الْأَعْرَجِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،
عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَحْوَهُ. وَفِي حَدِيثِ مُوسَى بْنِ عَلِيٍّ، عَنْ
أَبِيهِ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ حَلِيلَ الرَّحْمَنِ أُمِرَ أَنْ يُخْتَتَنَ، وَهُوَ ابْنُ ثَمَانِينَ سَنَةً، فَعَجَّلَ
وَاخْتَتَنَ بِقُدُومٍ، فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ الْوَجَعُ، فَدَعَا رَبَّهُ، فَأَوْحَى إِلَيْهِ أَنَّكَ عَجَلْتَ
قَبْلَ أَنْ نَأْمُرَكَ بِالْأَلَةِ قَالَ: يَا رَبِّ كَرِهْتُ أَنْ أُؤَخَّرَ أَمْرِي. قَالَ: وَخَتِنَ
إِسْمَاعِيلُ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثِ عَشْرَةَ سَنَةً"830. والحمد لله رب العالمين.

829 صحيح البخاري، 4، ص 144.

830 السنن الصغير للبيهقي، 3، ص 343.